تاريخ الدولة العباسية
في العصر العباسي الأول

الأستاذ الدكتور

محمد نصر عبد الرحمن

الدكتور

محمد صقر الدوسري

فهرسة مكتبة الملك فهد أثناء النشر

تاريخ الدولة العباسية في العصر العباسي الأول.

محمد صقر الدوسري؛ محمد نصر عبدالرحمن - الأحساء، ١٤٣٨هـ

١٨٠ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٩٩٦٠-٠٨-١٢٨-١

١- التاريخ الإسلامي - العصر العباسي الأول ٢- الدولة العباسية

أ- الدوسري، محمد صقر (مؤلف مشارك) ب- العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٤ ١٤٣٨/٢٩٢

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٢٩٢

ردمك : ٩٩٦٠-٠٨-١٢٨-١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

من بين الدول الإسلامية التي سطرت اسمها في التاريخ الإسلامي، تأتي الدولة العباسية لتعتلي ذروة سنامها، فهي أطولهم عمراً، وأعظمهم مساحة، وأغناهم بالأحداث. لذلك لم يكن غريباً أن يجعلها كثيرٌ من الباحثين قبلتهم، فيولوا وجوههم شطرها. ولم تلق فترة من فترات التاريخ الإنساني على امتداد عمر الزمان من الاهتمام والدراسة والتحليل مثلما لقيت فترة الدولة العباسية، ولا حظيت مثلها بهذا الكم الهائل من المؤلفات التي دارت حولها أو غاصت فيها. وليس هذا بالأمر المستغرب إذا علمنا أنها تغطي زمنياً مايزيد عن ثلثي التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى.

ونتيجة لما سبق؛ كان من الطبيعي أن يحظى حقل التاريخ العباسي في العالم كله بكم هائل من الدراسات والبحوث التي استهدفت التعمق في خفايا هذا العالم المثير والغريب. وحظيت المكتبة العربية بنصيب وافر من هذه الدراسات، ولا شك أن هذه الدراسات ساهمت بشكل كبير في جعل المدرسة التاريخية الخاصة بالدولة العباسية واحدة من أغنى المدارس التاريخية وأهمها في عالمنا العربي.

ويبدو الولوج بعد ذلك إلى هذا العالم أمراً شائكاً، ففي ظل هذه الوفرة النوعية والكمية في الدراسات التي اهتمت بالدولة العباسية، يبدو للدارس أن الوقوف وسط هذا الزخم أمر بالغ الصعوبة. ولكن تبقي التجربة ودافعية التراكم المعرفي هي المحرك الأساسي لخوض غمار هذا العالم الرحب.

وفي هذا العمل العلمي، نحاول أن نلقي بعض الأضواء على تاريخ الدولة العباسية خلال العصر العباسي الأول، إذ يصعب الحديث عن الخلافة العباسية بأسرها بين دفتي عمل واحد. ولقد قسمنا الدراسة إلى ثمانية فصول؛ حيث تناول الفصل الأول نشأة الدولة العباسية، وتطرق للحديث عن الدعوة العباسية ومبادئها وشعاراتها، ثم الجهاز التنظيمي لهذه الدعوة، ثم تناول أطوار الدعوة العباسية بداية من الطور السري الذي كانت فيه الدعوة تتم في الخفاء خوفاً من الأمويين، ثم الطور العلني الذي تم فيه إعلان الدعوة العباسية وانتصارها بعد هزيمة الأمويين.

وتناول الفصل الثاني خلافتي أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور، حيث تحدث عن شخصية أبي العباس السفاح وسياسته الداخلية ثم وفاته، ثم تناول الحديث عن خلافة أبي جعفر المنصور، حيث تحدث عن شخصية المنصور، ثم سياسته الداخلية المتمثلة في موقفه من عمه عبد الله وكبير دعاته أبي مسلم الخراساني، ثم موقفه من العلويين، وكذلك موقفه من الحركات الدينية والفكرية الهدامة التي هددت المجتمع العباسي، ثم الخطوات التي قام بها لترتيب أوضاع الدولة الداخلية، وأخيراً سياسته الخارجية وعلاقته بدول الجوار مثل الدولة البيزنطية وغيرها، ثم الظروف التي توفي فيها.

وتناول الفصل الثالث خلافة المهدي، حيث تحدث عن ملامح شخصيته وتوليه العهد وارتقائه للخلافة، ثم تناول سياسته الداخلية من حيث سياسته مع الرعية، وترتيب أوضاع الدولة الداخلية، وموقفه من الحركات الهدامة كالزندقة وحركة المقنع الخراساني. ثم تناول ملامح سياسته الخارجية وعلاقته بكل من البيزنطيين والهند، ثم اختتم الفصل بالحديث عن ولاية عهده، ثم وفاته.

أما الفصل الرابع فقد خصص للحديث عن خلافتي الهادي وهارون الرشيد، حيث تطرق في البداية للحديث عن خلافة الهادي وملامح شخصيته، ثم سياسته الداخلية وموقفه من حركة الزندقة والتيارات السياسية. ثم تناول الفصل خلافة الرشيد فتحدث عن شخصيته، ثم سياسته الداخلية من حيث سياسته مع الولاة والرعية، ثم المشاكل الداخلية التي واجهها مثل: الخوارج، والعلويون، والبرامكة. ثم سياسته الخارجية وعلاقته بكل من البيزنطيين والفرنجة والهند، ثم اختتم الفصل بالحديث حول ولاية عهده، ثم وفاته.

أما الفصل الخامس فقد اختص بالحديث عن خلافة الأمين، حيث تعرض لملامح شخصية الأمين، ثم طبيعة الصراع على الحكم بينه وبين أخيه المأمون، ثم اختتم الفصل بالحديث عن وفاته. واختص الفصل السادس بالحديث عن خلافة المأمون، حيث تطرق للحديث عن شخصيته، ثم سياسته الداخلية متمثلة في موقفه وعلاقته بكل من: وزيره الفضل بن سهل، والطاهريين، والأغالبة، والعلويين، وقضية خلق القرآن. ثم الثورات الداخلية التي قامت في عهده، مثل ثورة بابك الخرمي، وثورة الزط، ثم الثورات في مصر، وأخيراً ثورة القائد نصر بن شبث. ثم

تطرق الفصل للحديث عن سياسته الخارجية وعلاقته بكل من البيزنطيين والفرنجة والهند، ثم اختتم الفصل بالحديث حول وفاته.

وتناول الفصل السابع خلافة المعتصم، حيث تحدث عن ملامح شخصيته، ثم سياسته الداخلية وعلاقته بكل من: العلويين، والأتراك، ومشكلة خلق القرآن. ثم الثورات الداخلية التي اندلعت في عهده مثل ثورات: الزط، والمازيار، والأفشين، ثم تطرق الفصل للحديث عن سياسته الخارجية وعلاقته بكل من البيزنطيين والهند، ثم اختتم الفصل بالحديث حول وفاته.

عن ملامح شخصيته، ثم سياسته الداخلية وموقفه من كل من العلويين، ومشكلة خلق القرآن. وإدارته لشؤون الحكم، والثورات الداخلية التي اندلعت في عهده مثل ثورات بني سليم وبني هلال وبني فزارة وبني نمير. ثم تناول سياسته الخارجية، ثم اختتم الفصل بالحديث حول وفاته.

وقد اختتم الكتاب بخاتمة تم فيها عرض تحليلي لأوضاع الخلافة العباسية خلال العصر العباسي الأول.

المؤلفان

أ.د. محمد نصر عبد الرحمن

د. محمد بن صقر الدوسري

فهرس المحتويات

المقدمة	**هـ**
الفصل الأول : نشأة الدولة العباسية	**١**
الدعوة العباسية	١
تنظيم الدعوة	٤
أطوار الدعوة العباسية	٥
الطور السري	٥
الطور العلني	١١
الفصل الثاني : خلافتا أبي العباس وأبي جعفر المنصور	**١٥**
خلافة أبي العباس السفاح	**١٥**
شخصية أبي العباس	١٦
سياسته الداخلية	١٧
وفاته	٢٠
خلافة أبي جعفر المنصور	**٢١**
شخصية المنصور	٢١
سياسته الداخلية	٢٢
موقفه من عمه عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني	٢٢

المنصور العلويين ٢٤
موقفه من الحركات الهدامة ٢٦
ترتيب أوضاع الدولة الداخلية ٢٨
سياسته الخارجية ٣٢
وفاته ٣٣
الفصل الثالث : خلافة المهدي ٣٥
سياسته الداخلية ٣٨
سياسته مع الرعية ٣٨
ترتيب أوضاع الدولة الداخلية ٤٠
موقفه من الحركات الهدامة ٤١
محاربة الزنادقة ٤١
حركة المقنع ٤٤
سياسته الخارجية ٤٦
مع البيزنطيين ٤٦
مع الهند ٤٧
ولاية عهد المهدي ٤٩
الفصل الرابع : خلافتا الهادي والرشيد ٥١
خلافة الهادي ٥١
شخصية الهادي ٥١

سياسته الداخلية	٥٤
موقفه من حركة الزندقة	٥٤
موقفه من التيارات السياسية	٥٦
خلافة الرشيد	**٥٧**
شخصية الرشيد	٥٧
سياسته الداخلية	٥٩
سياسته مع الرعية	٥٩
سياسته مع الولاة	٦٢
المشاكل الداخلية	٦٥
الخوارج	٦٥
العلويون	٦٧
البرامكة	٦٩
سياستة الخارجية	٧٧
مع البيزنطيين	٧٧
مع الهند	٧٩
ولاية العهد	٨٠
وفاته	٨٠
الفصل الخامس : خلافة الأمين	**٨٣**
شخصية الأمين	٨٣

الفصل السادس : خلافة المأمون	**٩٧**
شخصية المأمون	٩٧
سياسته الداخلية	٩٨
موقفه من الفضل بن سهل	٩٨
موقفه من الطاهريين	١٠٠
موقفه من الأغالبة	١٠٢
موقفه من العلويين	١٠٣
موقفه من مشكلة خلق القرآن	١٠٩
الثورات الداخلية	١١٣
حركة بابك الخرمي	١١٣
ثورة الزط	١١٥
الثورات في مصر	١١٦
ثورة الأندلسيين	١١٦
ثورة الأقباط	١١٧
ثورة نصر بن شبث	١١٩
السياسة الخارجية	١١٩
مع البيزنطيين	١٢٠
مع الفرنجة	١٢٢
مع الهند	١٢٢
وفاته	١٢٤

الفصل السابع : خلافة المعتصم	**١٢٥**
شخصية المعتصم	١٢٥
توليه الحكم	١٢٦
سياسته الداخلية	١٢٧
موقفه من العلويين	١٢٧
موقفه من الأتراك	١٢٩
موقفه من مشكلة خلق القرآن	١٣٤
الثورات الداخلية	١٣٦
حركة بابك الخرمي	١٣٦
ثورة الزط	١٣٩
حركة المازيار بن قارن	١٤٠
تمرد الأفشين	١٤٢
سياسته الخارجية	١٤٣
مع البيزنطيين	١٤٣
مع الهند	١٤٧
وفاته	١٤٨
الفصل الثامن : خلافة الواثق بالله	**١٤٩**
شخصية الواثق	١٤٩
سياسته الداخلية	١٥٠
موقفه من العلويين	١٥٠

موقفه من مشكلة خلق القرآن ١٥٠
إدارة شؤون الحكم ١٥٣
إدارة الولايات ١٥٣
موقفه من الكتاب ١٥٥
الثورات الداخلية ١٥٦
حركة بني سُليم وبني هلال ١٥٧
حركة بني فزارة ١٥٨
حركة بني نمير ١٥٩
سياسته الخارجية ١٥٩
وفاته ١٦١
الخاتمة ١٦٣

الملاحق والخرائط ١٦٧
المصادر والمراجع ١٦٩

الفصل الأول

نشأة الدولة العباسية

كما يولد الإنسان بعد مخاض ليعيش حياته التي قدرها الله له ، فإن الدول تعيش وتحيا إلى أمد ، لتتمثل بذلك دورة الحياة كإحدى السنن الربانية كما ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «حق على الله أن لايرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»[1]. والدولة العباسية ليست بدعاً عن تلك السنن حيث النشأة ثم الاضمحلال فالسقوط ، غير أنّا معنيون بالحديث في هذا الفصل عن ظروف النشأة لهذه الدولة التي حلت بعد السقوط المدوي محل الدولة الأموية.

الدعوة العباسية

لم تكد شمس القرن الأول الهجرى توشك على المغيب ، حتى أوشكت خلافة الأمويين أن تلفظ آخر أنفاسها ، فمع الضربات المتلاحقة من جانب قوى المعارضة للحكم الأموي ، بزغت شمس دعوة جديدة ، ونجحت في جذب أنظار المعارضين والساخطين على الحكم الأموي ، بجانب المتشيعين لآل البيت النبوي.

وكانت هذه الدعوة في بدايتها علوية ، حمل لواءها العلويون بزعامة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب[2] ، الذي استغل موجة السخط ضد الحكم الأموي ونجح في استقطاب الشيعة من حوله ، وبدأ يرتب دعوة له بالخلافة وينظم أمورها.

(١) رواه البخارى في صحيحه، الحديث رقم (٢٦٧٣)، وأبو داود في سننه، الحديث رقم (٤١٧١).

(٢) عن نسبه وحياته انظر : الزبيرى، نسب قريش، نشر وتعليق: ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٨٢، ص٧٥؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٢، تحقيق: علي معوض، بيروت ١٩٩٥، ص٤٨٣؛ الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة ١٩٤٩، ص١٢٦.

ورغم أن العلويين هم من حمل لواء هذه الدعوة، إلا أن واقع الأحداث أدى إلى أن تنتقل زعامة الدعوة للعباسيين عام ٩٨هـ/٧١٦م، حين توجه أبو هاشم لزيارة دمشق؛ بناء على دعوة الخليفة سليمان بن عبد الملك، ثم عاد إلى الحجاز لكنه أصيب بالمرض أثناء رحلته، فتوجه إلى مدينة الحُميمة[١] عند بني عمومته[٢].

وقد اختلفت المصادر في تحديد سبب مرض أبي هاشم، فبعض المصادر[٣] ذكرت أن الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) علم بنشاطه، وتجمع الشيعة من حوله فخشى من نجاحه، فأرسل من دس له السم في طعامه ليتخلص منه. بينما ذكرت مصادر أخرى[٤] أن مرضه كان نفسياً نتيجة استخفاف سليمان به؛ مما أصابه بالضيق فسقط مريضاً.

وتذكر بعض المصادر[٥] أنه أحس بدنو أجله فقرر التوجه إلى مدينة الحُميمة، ولما لم يكن له ولد خشي على دعوته من الزوال، فاضطر لأن يتنازل عن رئاستها للعباسيين وتحديداً لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس[٦] إمام العباسيين وتلميذه في الوقت نفسه، حيث أوصى له بالإمامه من بعده، وسلم له كتب الدعاة، وأمر شيعته بطاعته.

وقد رأي البعض[٧] أن قضية وصية أبي هاشم لمحمد بالخلافة من بعده تثير بعض الشكوك، على اعتبار أن العباسيين لم يظهروا في أية فترة سابقة رغبة أو طموحاً في

---

(١) الحُمَيْمَةُ: بلد من أرض الشرآه، من أعمال عمان في أطراف الشام، جنوب الأردن. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، بيروت (ب، ت)، ص٣٠٧.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، تحقيق: سهيل ذكار، بيروت ١٩٩٦، ص١٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٤، مراجعة: محمد يوسف الدقاق، بيروت ١٩٨٧، ص٣٢٢ مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج٣، نشر: دي غويه، بريل ١٨٧١، ص١٨١؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، بيروت ١٩٨٣، ص ٢١٨-٢١٩.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق : مصطفى فواز، بيروت ١٩٩٥، ص٢٠٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، تحقيق: عبد القادر، محمود الأرناؤط، دمشق ١٩٨٦، ص٣٩٣.

(٥) مجهول، العيون والحدائق ، ٣/ ١٨١؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، تحقيق: محمد محمود الرافعي، القاهرة ١٩٠٤، ص٢٠٧.

(٦) عن نسبه وحياته انظر : ابن قتيبة، المعارف، تحقيق : ثروت عكاشة، القاهرة ١٩٨١، ص١٢٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٤، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧١، ص١٠٣.

(٧) عن هذا الرأي انظر : عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، ج٣، الاسكندرية ١٩٩٣، ص٢٠؛ أمينة البيطار، تاريخ العصر العباسي، دمشق ١٩٩٧، ص١٨-١٩.

موضوع الخلافة، لأن جدهم العباس أسلم متأخراً وإن كان يظهر عطفه على ابن أخيه، كما أنهم لم يتخذوا موقفاً عدائياً من الأمويين أثناء صراعهم مع العلويين، كما أن العلويين كانوا يتمسكون بحقهم في الخلافة تمسكاً وصل في بعض الأحيان إلى الغلو والتطرف.

وقد يدعم هذا الرأي ما وقع من أحداث بعد ذلك، فرغم أن العباسيين في بداية دعوتهم استندوا إلى تلك الوصية في نشر دعوتهم، إلا أنهم بدلوا سياستهم بعد أن تمكنوا من الخلافة. وزعموا بأنهم ورثوا الخلافة عن جدهم العباس، لأنه عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو أحق الناس بوراثته. وكانت في البداية بشكل محدود، كما حدث حين راسل الخليفة أبو جعفر المنصور محمد النفس الزكية[١] يرد عليه دعوته بأحقيته في الخلافة بقوله: « لم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولى، لأن الله جعل العم أباً، ... وأما قولكم إنكم بنو رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[٢]، ولكنكم بنو بنته، .. ولاترث الولاية ولايجوز لها الإمامة[٣]. ثم قام ابنه المهدي بإنكار هذه الوصية، وإعلان وراثتهم للخلافة عن جدهم العباس[٤]. يضاف لذلك أن رواية ابن طباطبا[٥] - وإن كانت قد نصت على الوصية - إلا أنه ذكر أنه بعد وفاة أبي هاشم، تهوس محمد بن علي بالخلافة، ويشير هذا المعنى ضمناً إلى أنه لم تكن هناك وصية بالخلافة[٦].

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وطبيعة موقفه من العباسيين، انظر: الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٣٣٠؛

Traini، R., " LA Corrispondenzatra al-Mansure e Mohammad " an-nafs Azzakiyyah", *Annali del Institute Universitario Orientale di Napoli* , 14 (1964), pp.773-798.

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٤٠).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٤٥/٥.

(٤) مجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق: عبد العزيز الدوري، عبد الجبار المطلبي، بيروت ١٩٧١، ص١٦٥.

(٥) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، القاهرة (ب.ت)، ص١٠١.

(٦) أمينة البيطار، تاريخ العصر العباسي، ص١٩.

تنظيم الدعوة

بانتقال الدعوة لمحمد بن علي صارت عباسية خالصة، ويعتبر محمد هو أول منظم للدعوة السرية، حيث وضع شعاراتها وأنظمتها واختار قاداتها[١]. وكان أبو هاشم قد وضع هيكلاً تنظيماً دقيقاً لإدارة الدعوة، يسير في تسلسل تنازلي، على رأسه الإمام الذي يدير شؤون الدعوة، ومقره الحميمة، ثم كبير الدعاة وكان مقره الكوفة. ثم مجلس مكون من سبعين من الدعاة، يُختار منهم اثني عشر نقيباً[٢]، ومهمة النقيب هي مساعدة الداعي في ضمان من يدخل الدعوة ليأخذ منه البيعة، ويحذره لو شك في سوء نوايا من يعرض الدخول في الدعوة. ثم يليهم مرتبة نظير النقيب وهم اثنا عشر أيضاً، وهؤلاء يحلون محل النقباء عند سفرهم أو وفاتهم، ثم يليهم دعاة الدعاة، ثم يتبع الدعاة مرتبة العمال، ويتبع العمال خلايا سرية تتوغل في أنحاء الدولة الإسلامية. وكان النقباء يعملون على مساعدة الدعاة في خراسان فقط، أما باقي المناطق فكان الداعي يقوم بمهمة النقيب أيضاً[٣].

وقد لخص أبو هاشم فكره في خلق أساس هذا النظام في قوله: «إن السنة في الأولى والمثل في الآخرين، وإن الله تعالى يقول: (وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا)[٤]، ثم قال في آية أخرى: (وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗا)[٥]، وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وافاه ليلة العقبة خمسة وسبعون رجلاً من الأوس والخزرج فبايعوه، فجعل منهم اثني عشر نقيباً، فإن سنتكم سنة بني إسرائيل، وسنة النبي -عليه الصلاة والسلام-[٦].

---

(١) فاروق عمر، الثورة العباسية، بغداد ١٩٨٩؛ ص٦٩، عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، بيروت ١٩٩٧، ص٢٢.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٤، ص٥٦٢؛ ابن الأثير، الكامل، ٣٢٢/٤.

(٣) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٢١٥-٢٢٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.

(٥) سورة المائدة، الآية ١٢.

(٦) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٢١٦.

أطوار الدعوة العباسية

مرت الدعوة العباسية بطورين مهمين :

الطور السري

بدأ هذا الطور مع نهايات القرن الأول الهجرى/السابع الميلادي، وانتهى بطلب الإمام إبراهيم من أبي مسلم الخراساني[(١)] إعلان الدعوة عام ١٢٩هـ/٧٤٦م، وتميزت الدعوة خلال هذه الحقبة بالسرية. وقد بدأ محمد بن علي دعوته خلال عهد عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م، مستغلاً فترة التسامح التي مرت بها الخلافة الأموية في عهده، محافظاً خلالها على التنظيم الذي وضعه أبو هاشم، وجعل مقره الحُميمة، وجعل مقر كبير الدعاة في الكوفة، حيث أوصى أبو هاشم محمداً بذلك بقوله: « وعليك بالكوفة فبها شيعتك وأهل مودتك ...[(٢)]».

وكان كبير الدعاة يقوم بنشر الدعوة والإشراف عليها بخراسان، وكان يكتب إلى الإمام بأخبار الدعوة، ويلقاه في موسم الحج، أو يزوره في الحميمة إذا طرأ طارئ. وكان دعاة خراسان يطلعون كبير الدعاة بالكوفة على تفاصيل عملهم، كما يقابلون الإمام في الحجاز في موسم الحج، فيؤدون إليه ما جمعوه من أموال، ويخبروه بأخبار الدعوة، ويتلقون منه التوجيهات والارشادات قبل عودتهم لخراسان[(٣)].

وقد تولي رئاسة الدعاة خلال فترة الدعوة وحتى قيام الخلافة العباسية ثلاثة من كبار الدعاة، وهم على التوالي : ميسرة العبدي ١٠٢-١٠٥هـ/٧٢٠-

(١) اختلفت الروايات حول أصله ونسبه، ولكن الغالب أنه من أصل فارسي. كان عبداً ثم أُعتق، ولم يكن اسم أبي مسلم هو اسمه الحقيقي، بل هو الاسم الذي أطلقه عليه الإمام محمد. ولمزيد عن أصله وحياته قبل الدعوة انظر : الدينوري، الاخبار الطوال، ص٣٢٢-٣٢٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١٦١/٤-١٦٣.

Lassner، J.، « Abu Muslim al-Khurusani: The Emergence of a Secret Agent from Kurasan، Iraq، or Was It Isfahan?»، Journal of the American Oriental Society Vol.١٠٤، No.١، Studies in Islam and the Ancient Near East Dedicated to Franz Rosenthal (Jan. - Mar.، ١٩٨٤)، pp. ١٧٥-١٦٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٥٨/٤.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٥٨/٤؛ حسين عطوان، الدعوة العباسية تاريخ وتطور، بيروت ١٩٩٥، ص١٧٢.

٧٢٣م[١]، ثـم بكـير بـن ماهـان ١٠٥-١٢٧هـ/٧٢٣-٧٤٥م[٢]، ثـم أبـو سـلمة الخـلال ١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٥-٧٤٩م[٣]. وكان هـؤلاء مـن يتولـون إرسـال الدعـاة إلى باقـي أرجـاء الخلافـة وخاصـة خراسـان، وكان الدعـاة عـادة يتخفـون في ثيـاب التجـار، وينشـرون دعوتهـم بـين مـن يطمئنـون إليهـم[٤].

وقد آثر محمد بن على أن تكون بداية الدعوة منطقة خراسـان، خاصة أنها كانت نصيحـة أبـي هاشـم، الـذي أوصاه بإرسـال الدعاة إليهـا، وحدد له المدن والقرى التي عليهـم دخولهـا. ويبـدو اقتنـاع محمـد بخراسـان في قوله عنهـا: «عليكم بخراسـان، فإن فيهـا العـدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلـوب فارغة لم تتقاسمها الأهواء ...[٥]».

والواقـع أن خراسـان كانـت محطة مثاليـة لإنطـلاق الدعوة، فهي مـن ناحية بعيدة عن مركز الأمويين في الشـام، ومن ناحية أخرى موطن الموالي الذين عانوا من عسـف الحكـم الأمـوي، وتطلعـوا لحكـم جديد يصلح من أحوالهم. يضاف لذلك أن سـاكنيها من العرب اليمنية لم يكونوا أحسـن حالاً، فقد عانوا من تحيز بني أمية لبعض القبائل العربيـة علـى حسـاب الأخـرى، مما جعلهـم متحفزيـن لأي عمـل مـن شـأنه أن يزيـح الأمويين عن رأس الحكم في الدولة الإسلامية. وقد أوصى محمد دعاته بالتستر والرفق حتـى تنجـح الدعـوة، وأن يدعـوا النـاس لبيعـة الإمـام، وينفروهم من حكـم الأمويين بسـب جورهم وسـوء سيرتهم[٦].

كما حدد لهم المبادئ والشعارات التي سينشروها بين الناس، وهي الرضا من آل محمد، والمسـاواة، والإصلاح. وهي الشـعارات التي كان لها مفعول السـحر في جذب

(١) المقـدسي، البـدء والتاريـخ، ج٦، القاهـرة (ب، ت)، ص٥٩. وميـسرة رجـل عراقـي مـن الشـيعة، كان مـن أوائـل مـن انضـم للدعـوة العباسـية، فاختـاره الإمـام محمـد ليكـون مـن دعاتـه في العـراق. انظـر: الدينـوري، الأخبـار الطـوال، ص٣١٨.

(٢) ويكنـي بـأبي هاشـم، كان يعمـل ترجمانـاً للـوالي الأمـوي عـلى السـند، ثـم انضـم للدعـوة العباسـية بعـد أن أقنعـه ميـسرة العبـدي بهـا، انظـر: الدينـوري، الأخبـار الطـوال، ص٣٢٠.

(٣) الطـبري، تاريـخ الرسـل، ٣٢٧/٧. وهـو أبـو سـلمة حفـص بـن سـليمان، الهمـداني، كـوفي الأصـل وكان صيرفيـا أنفـق أمـوالاً كثـيرة في خدمـة الدعـوة العباسـية. انظـر: الذهبـي، سـير أعـلام النبـلاء، ج٦، تحقيـق: شـعيب الأرنـاؤوط، بـيروت ١٩٩٦، ص٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٣، النجف ١٣٥٨هـ، ص٥٤.

(٥) المقدسي، البدء، ٥٩/٦.

(٦) الدينوري، الأخبار الطوال، القاهرة ١٣٣٠هـ ص٣١٩.

الأنصار لهذه الدعوة، وكسب كل المتذمرين ضد الحكم الأموي. فالمبدأ الأول حرص على عدم تسمية زعامة للدعوة حتى لا تفقد أنصارها من العلويين في بداية أمرها، أما مبدآ المساواة والاصلاح، فكانا كافيين لجذب الموالي الذين عانوا من التفرقة العنصرية والضرائب الفادحة من جانب الخلافة الأموية وولاتها.

وعلى الرغم مما عُرف عن الدعوة العباسية من تركيزها على الموالي وجذبهم عنصراً أساسياً في الوقوف في وجه بني أمية، إلا أن بعض الباحثين[١] يرون أن تركيز الدعوة في البداية كان على القبائل العربية بخراسان، والتي تكونت منها القوة الفعالة في الجيش الخراساني الذي قضى على الوالي الأموي نصر بن سيار[٢]. وهو رأي يبدو صحيحاً - إلى حد كبير- فيما يخص بدايات الدعوة، يدل على ذلك أن أغلب دعاة العباسيين ونقبائهم في بداية الأمر كانوا من عرب خراسان[٣].

ورغم أن الدعاة نجحوا في نشر الدعوة، وجذب كثير من الأنصار، إلا أن مهمتهم لم تكن سهلة على الاطلاق، بل أحياناً كانت تتعرض للفشل، ويكون نتيجتها نهاية مأسوية لهم، ومن ذلك ماحدث لبعض الدعاة الذين أرسلهم بكير بن ماهان إلى خراسان عام ١٠٧هـ/٧٢٥م، فقد انتشر خبرهم بين الناس، ووشي بهم بعضهم لدى الوالي الأموي على خراسان أسد بن عبد الله القسري، فقام بالقبض عليهم، ولم يكتف بذلك، بل قام بعدها بالانتقام منهم، فقتلهم ومثل بهم، حتى يكونوا عبرة للجميع[٤].

ويبدو أن ماحدث جعل أسد ينتبه للأمر، فتتبعت عيونه أخبار الدعوة حتى علم ببعض النقباء فقبض عليهم، ولكنه هذه المرة اكتفى بأن أغلظ القول لهم، وحذرهم المضي في أمر الدعوة[٥]. ويبدو أن السبب في هذا التغير في سلوكه هو أنهم كانوا ينتمون إلى قبيلته، مما جعله يكتفي بهذ الإجراء الاحترازي فقط . وقد أربكت هذه الأحداث خطط محمد بن علي، فأرسل أوامره للدعاة والنقباء بالكف عن النشاط مؤقتاً، خوفاً

(١) عن هذا الرأي انظر : فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها، بيروت ١٩٧٠، ص٢٧٧؛ عبد العزيز سالم، العصر العباسي، ص٢٨.

(٢) هو نصر بن سيار بن ليث بن رافع بن ربيعة من بني كنانة ـ ولي خرسان للأمويين عام ١٢٠هـ/٧٣٨م. لمزيد عنه انظر، الطبري، ١٥٤/٧ وما بعدها.

(٣) راجع قائمة الدعاة والنقباء عند : مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٢١٥ وما بعدها.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٥٩/٤.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٤١٥/٤.

من تتبع أسد القسري لهم، وخوفاً من انكشاف أمر الدعوة بالكامل، مما يعرض المشروع برمته للفشل.

وقد تعرضت الدعوة بعد ذلك لهزتين أخريين أثرتا على مسيرة الدعوة، وأوقفت نشاطها مجدداً، فرغم أن الإمام أوصى الدعاة باستئناف نشاطهم بعد عدة سنوات من التوقف الأخير، خاصة بعد رحيل أسد القسري عن خراسان، إلا أن عودة الأخير للولاية مرة أخرى عام ١١٦هـ/٧٣٤م، وما قام به من إجراءات هددت سلامة الدعوة، جعلت الإمام يطلب من الدعاة الحيطة وتجميد نشاطهم. وكان أسد قد استأنف نشاطه في خراسان من جديد بالقبض على النقباء الذين سبق وأطلق سراحهم، وفي هذه المرة بدل سلوكه معهم، حيث قام بتعذيبهم وإلقائهم في السجن، ويبدو أنه علم باستمرار نشاطهم، لكنه سرعان ما عفا عنهم مجدداً، بعد أن توسط عنده بعض الشيوخ من عشيرته[١].

أما الهزة الثانية فأتت هذه المرة بسبب سلوك أحد الدعاة، ويدعي عمار بن يزداد، وكان بكير بن ماهان قد أرسله لخراسان عام ١١٨هـ/٧٣٦م للقيام بالدعوة هناك، وأراد عمار كسب قلوب عامة خراسان، فبدل اسمه إلى خداش، ثم حرف في الدعوة وحاد بها عن الإسلام، وبدأ في صبغها بالفكر الفارسي الوثني القديم، فأباح لمن تبعه نساء بعضهم بعضاً، وغيرها من مبادئ الخُرمية[٢]، ودعاهم لترك الطاعات والفروض، «وقال لهم إنه لا صوم له ولا صلاة ولا حج، مؤولاً الصوم بمعني الصوم عن ذكر الإمام، والصلاة أي الدعاء له، والحج بمعني القصد إليه» وقد وصل خبره لوالى خراسان فقتله ومثَّل به. وقد أصابت هذه الأخبار محمد بن علي بالغضب مما قام به خداش، خاصة بعدما علم باتباع بعض الدعاة والنقباء لفكره، مما جعله يعتزلهم طيلة عامين، توقفت خلالها نشاط الدعوة وهددت بالفشل لولا أن صفح عنهم في النهاية[٣].

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٥٩/٤.

(٢) الخرمية: هم طائفة مجوسية تدين بالعقيدة المزدكية التي تؤمن بتناسخ الأرواح والحلول، وتدعوا لاستباحة الأموال والنساء وأنها مشاع بين الناس، الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد الأمير مهنا، علي فاعور، بيروت ١٩٩٣، ص٢٩٥؛ ابن النديم، الفهرست، ج٢، تحقيق: أحمد فؤاد السيد، لندن ٢٠٠٩، ص٤١٦ وما بعدها.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٤٢٠/٤.

وبعد أن سكن عن محمد بن علي الغضب، أمر كبير دعاته بكير بن ماهان بالشخوص لخراسان لإصلاح ما أفسده خداش، وأرسل لدعاته ونقبائه رسالة يقول فيها: «قد كنت أعلمت إخوانكم رأيي في خداش، وأمرتهم أن يبلغوكم قولي فيه. وإني أشهد الله الذي يحفظ ما تلفظ به العباد من زكي القول وخبيثه، أني بريئ من خداش، وممن كان على رأيه، ودان بدينه ...»[١].

وقد توفي محمد بن علي عام ١٢٥هـ/٧٤٣م، وكان قد أوصى لابنه إبراهيم بأن يكون إماماً للدعوة العباسية، كما أوصى بأن تؤول رئاسة الدعوة إلى أبي سلمة الخلال بعد موت بكير بن ماهان[٢]. وقد بدأ إبراهيم تزعمه للدعوة بإرسال بكير إلى خراسان ليخبرهم بوصية أخيه الراحل، ونجح بكير في الحصول على بيعة أتباع العباسيين للإمام الجديد، وجمع منهم الأموال له. كما أمره بلبس السواد، وأن تكون رايات الدعوة سوداء، وأن يأمر من يتبعه بذلك، ويعد الرايات السود لوقت الخروج على بني أمية. وحين توفي بكير عام ١٢٧هـ/٧٤٥م، نزل إبراهيم على وصية أخيه؛ فقلد رئاسة الدعاة لأبي سلمة الخلال[٣].

وخلال إمامة إبراهيم بن محمد بزغ نجم أبي مسلم الخراساني واحداً من أهم دعاة بني العباس، وكان ارتباط أبي مسلم بالدعوة يرجع لأواخر إمامة أبيه محمد، حين وفد عليه في المدينة مع بعض الدعاة الخراسانيين في موسم الحج، فعرفوه بالإمام وأخبروه أنهم ضموه إليهم، لما لمسوه من إيمانه بالدعوة وعقله وفطنته، فرحب به محمد بن علي وقربه منه[٤].

وقد سار إبراهيم على هدى أبيه في تقريب أبي مسلم فجعله رسوله إلى دعاة خراسان، وأعطاه ثقته حتى إنه بدأ يجهزه لدور مهم في المرحلة الأخيرة من الدعوة العباسية. وكان إبراهيم يرى أن ثمرة الدعوة قد أينعت وحان وقت قطافها، فخراسان قلب الدعوة ومحور اهتمامها أضحت مستعدة للتحرك الكبير الذي خطط له أبوه من قبل، خاصة مع الصراع الذي احتدم بين القبائل العربية في خراسان، وعجز الوالي الأموي عن السيطرة عليه، وانشغال الخلافة الأموية بمواجهة الخوارج[٥].

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤٢/٧.

(٢) مجهول، تاريخ الدولة العباسية، ص٢٣٨.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٦٠.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٤٦٢/٤.

(٥) مجهول، تاريخ الدولة العباسية، ص٢٦٩.

وكان إبراهيم يبحث عن رجل يقود الدعوة العباسية في خراسان خلال هذه الفترة الحاسمة منها، ولم يكن وقتها يثق في كبير الدعاة هناك سليمان الخزاعي نظراً لعصبيته وسطوته، وخشيته من استقلاله بالأمر بعده، لذلك وقع اختيار الامام علي أبي مسلم الخراساني فأرسله عام ١٢٨هـ/٧٤٦م ليقود الدعوة في خراسان، وأوصاه بأن يركز في دعوته على العرب اليمنية، وأن يراعي في الوقت نفسه مكانة الخزاعي حتى لاينقلب عليه(١).

وقد أوردت بعض المصادر(٢) وصية إبراهيم لأبي مسلم، وفيها عبارة: « وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فأفعل، فأي غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ». وهي عبارة تبدو غريبة في سياقها، وتتعارض مع ما ورد في بقيتها. وقد رأى بعض الباحثين(٣) أنه إذا صح أن الجملة من الوصية، فيبدو أنه سقط منها بعض الألفاظ وأن فيها نقصاً أدي إلى التعميم في معناها، ويمكن أن يكون تقدير الكلام: « ممن خالفك» لأنه كيف يوصيه بمحو العرب من خراسان، ويطلب منه في الوقت نفسه أن يخطب ود العرب اليمنية؛ لأن نجاح القضية العباسية يتوقف عليهم وهم عرب؟ كذلك كيف يوصيه بسحق العرب، وأهم شيوخ الدعوة كسليمان الخزاعي وغيره من العرب؟

وقد اختلفت المصادر التاريخية في وصف ردة فعل الدعاة والنقباء في خراسان بعد اختيار الإمام إبراهيم لأبي مسلم ليقود الدعوة هناك، فعلى حين ذكر البلاذري(٤) أنهم تقبلوا هذا بصدر رحب، وعاونوه في أمر الدعوة بمن فيهم سليمان الخزاعي. ذكر ابن الأثير(٥) أن الدعاة والنقباء عارضوا الأمر ورفضوا معاونة أبي مسلم في شؤون الدعوة، فلما كان موسم الحج وفدوا على الإمام بمكة، فشكا أبو مسلم لإبراهيم بن محمد ما حدث، فغضب منهم وأمرهم بالانصياع لأوامره ففعلوا. بينما يذكر مؤلف مجهول(٦) أن سليمان الخزاعي هو الذي رفض الأمر نظراً لمكانته بين قومه، ودوره

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٢١/٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٤٤/٧.

(٣) انظر: فاروق عمر، الثورة العباسية، ص٨٩؛ حسين عطوان، الدعوة العباسية، ص٢٥٤؛ الدوري، العصر العباسي الأول، ص٢٧.

(٤) أنساب الأشراف، ١٦٤/٤.

(٥) الكامل، ٢١/٥.

(٦) تاريخ الدولة العباسية، ص٢٧٠-٢٧٢.

السابق في الدعوة مع اعتزازه بنفسه، لكن باقي الدعاة والنقباء رحبوا به نكاية في سليمان، نظراً لترفعه عليهم، فالتفوا حول أبي مسلم وتركوا سليمان وحيداً، فلما رأي الأخير ذلك عدل عن موقفه وانضم لهم في الترحيب به.

وكان أبو مسلم عند حسن ظن سيده به، فانطلق يجوب ربوع خراسان مبشراً بالدعوة العباسية، ونجح بذكائه وشخصيته في اجتذاب كثيرىن للدعوة، وقد وصفت لنا المصادر هذا النجاح المذهل، فيقول عنه الطبري[١]-: «وبث الدعاة في أقطار خراسان، فدخل الناس أفواجاً، وكثروا، وفشت الدعوة بخراسان كلها» ويقول الدينوري[٢]: «حتى أجاب جميع أرض خراسان: سهلها وجبلها، وأقصاها وأدناها، وبلغ في ذلك ما لم يبلغه أصحابه من قبله».

وبعد هذا النجاح الكبير أوشكت الدعوة أن تودع طورها الأول الذي اتسم بالسرية إلى طور جديد من العلانية والصراع العنيف مع الأمويين. وفي تقييمنا لهذا الطور من عمر الدعوة، نجد أن الدعوة حققت فيه نجاحاً كبيراً بفضل الشعارات التي رفعتها الدعوة، والتي جذبت كثيراً من الاتباع. يضاف لذلك تحفز الجميع لدعوة تنقذهم من مظالم الحكم الأموي، وتحيزه الصارخ لبعض القبائل العربية على حساب بعضهم الآخر، بجانب الاستخفاف بالموالي ونبذهم. ومن نافلة القول: إن كفاءة بعض الدعاة وشخصيتهم المميزة ساهمت إلى حد كبير في هذا النجاح.

على الجانب الآخر؛ ساهم موقف الخلفاء الأمويين المتهاون من الدعوة في تسهيل مهمتها إلى حد ما، والذي ظهر في مواقف كثيرة خاصة في عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م، فقد كتب إليه واليه على العراق بأمر الدعوة وانتشارها في خراسان، فكان رده أن أمره أن يكتب لوالى خراسان بألا يرغب في الدماء، وأن يكف عمن كف عنه، وأن يطلب النفر الذين يدعون الناس حتى يجدهم وينفيهم[٣]. ويظهر رد هشام مدى استخفافه بأمر هذه الدعوة وخطورتها. وحتى عندما شعر هشام بخطورة إبراهيم بن محمد وهم بالتعرض له، استجاب لنصيحة بعض المقربين منه، حين حذروه من أن في ذلك تشجيعاً للناس على اتباعه، مما جعله يعرض عن ذلك. يضاف لذلك أن الصراع الخفي بين ولاة الخلافة الأموية والبحث عن المصلحة الفردية،

---

(١) تاريخ الرسل، ٣٦٢/٧.

(٢) الأخبار الطوال، ص٣٢٧.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٢٢.

أسهم بدوره في التأثير على مواجهة هذه الدعوة، فقد كان ابن هبيرة[١] والى العراق - على سبيل المثال- يمنع الكتب التي يرسلها نصر بن سيار[٢] والي خراسان للخليفة هشام بن عبد الملك؛ حتى يضر بصورته عند الخليفة، دون النظر لمصلحة الخلافة العامة[٣].

الطور العلني

وهو الطور الذي نفضت فيه الدعوة ثوب السرية عنها، وبدأ بقيام الإمام إبراهيم بن محمد بإرسال إشارة الثورة لاتباعه في خراسان عام ١٢٩هـ/٧٤٦م، وينتهي بقيام الدولة العباسية بزعامة أبي العباس السفاح عام ١٣٢هـ/٧٤٩م.

وحين وصلت أوامر الإمام بالتحرك العلني، لبى الدعاة الدعوة، ثم بدأوا في التحرك للسيطرة على مدن خراسان، فسقطت في أيديهم طوس ونيسابور وأصفهان ونهاوند وغيرها[٤]، وفي حين جنى الخراسانيون حصاد ثورتهم بتمهيد الطريق للعباسيين صوب العراق، تعرضت قاعدة العباسيين في الحميمة لهزة كادت تعصف بآمال البيت العباسي في الخلافة، وذلك حين فطن الخليفة الأموي مروان بن محمد ١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٥٠م للتحركات المريبة التي كانت تصدر من هناك، مما أدي به للقبض على كبير البيت العباسي إبراهيم بن محمد، فسجنه ثم قتله في شهر محرم عام ١٣٢هـ/٧٤٩م[٥].

ويظهر أن اكتفاء الأمويين بالتخلص من إبراهيم كان يشير إلى سوء تقديرهم لحقيقة الأوضاع، وعدم معرفتهم بالتوجهات الحقيقية للدعوة، الأمر الذي يؤكده استمرار البيت العباسي في خطه المتصاعد، من خلال تسليم قيادة الحركة لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي[٦]، وذلك دون أن يتنبه الأمويون لمجريات الأمور!! والواقع أن الظروف

(١) هو عمر بن هبيرة بن معاوية الفزاري، والي الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك علي العراق عام ١٠٣هـ/٧٢١م. ولمزيد عنه انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٠٧/٧.

(٢) هو نصر بن سيار الليثي الكناني، آخر ولاة الأمويين علي خراسان، ولاه هشام بن عبد الملك عليها عام ١٢٣هـ/٧٤١م. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٦٤/٥.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٩٦/٣.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٨٢/٣.

(٥) العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، القاهرة ١٩٩٩، ص٥٧؛ الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ج٢، تحقيق: عصام هزايمه وآخرون، الأردن ١٩٩٩، ص٢٧٧.

(٦) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٤٠٩.

التي عاشتها الدولة الأموية، ابتداء من نهاية خلافة هشام بن عبد الملك كانت تحول بينهم وبين الإشراف الدقيق على أحوال الولايات والنظر في أخبارها، بسبب انشغال بعض الخلفاء باللهو وحياة القصور، وبسبب الصراع الداخلي الذي نشب بين الأمراء على منصب الخلافة. وإذا أخذنا في الاعتبار إلى جانب الأزمات التي عانتها الدولة الأموية، حركات الخوارج المتمردة ضدها في إقليم الجزيرة؛ أمكن تصور حجم التوفيق الذي حالف العباسيين في طريقهم نحو السلطة.

وكانت الكوفة - التي لجأت إليها طلائع البيت العباسي خُفْيةً بوصية من إبراهيم ابن محمد[١] - علوية الهوى، منذُ انتقال الخلافة الراشدة إليها زمن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وانتهاءً بالتسبب في الحوادث الجسام التي شهدتها زمن الأمويين. ولذا فقد كانت سياسة العباسيين في عدم الإعلان عن أنفسهم تؤتي أُوكلها هناك، بما يخدم أهدافهم في تجييش الرأي العام ضد الأمويين، تمهيداً للساعة التي تهيأ لهم فيها إقامة دولتهم!! وفي ضوء ذلك؛ فإن إمعان القيادة العباسية في الاستتار داخل الكوفة لم يكن ليصب فقط في حياطتها من انكشاف أمرها للأمويين، بقدر ما كان يعني كذلك حرصها على عدم إفشاء سرها وكشف علاقتها بالحركة المتنامية في المشرق لأهالي الكوفة حتى لا يتسبب ذلك في صدهم عن المناصرة. على أن الاختيار الموفق للكوفة لتكون مقراً للقيادة العباسية كان يدل على براعة وحسن تخطيط، فمركزها العراقي المتوسط بين خراسان والشام كان يسمح لها بمتابعة شؤون الحركة وتوجيه أمورها في الشرق، فيما هي تظل قريبة من الغرب، حيث يسهل عليها مستقبلاً تطويق الأمويين والقضاء عليهم.

وثمة ما يشير إلى أن دخول البيت العباسي إلى الكوفة كان مفاجئاً حتى لدعاة العباسيين العاملين في الساحة، ويظهر أن مقتل إبراهيم بن محمد قد هز التنظيم العباسي وسبب إرباكاً؛ بدت صورته تتضح في موقف دعاة الكوفة من القادمين الجدد، ، وهو ما عبر عنه زعيمهم أبوسلمة الخلال في قوله: « خاطروا بأنفسهم وعجلوا ». لكن إصرار العباسيين وتذكيرهم بالخطر المحدق بهم أتاح لهم الدخول على مضض من قبل أبي سلمة الخلال إلا أنه « كتم أمرهم عن جميع القواد والشيعة [٢]».

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، القاهرة ١٩٣٨، ص ٨٥- ٨٦ .

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٨٥-٨٦ .

وفي هذه الأجواء كانت الكوفة ودعاتها على موعد مع أنصار العباسيين الزاحفين من خراسان، حيث دخلوها في محرم من العام ١٣٢هـ/٧٥٠م، بعد أن تقهقر جيش الأمويين وحلت به الهزيمة. ولم يكن بوسع أبوسلمة الخلال أمام تلك التطورات التي قادت بعض المخلصين لبني العباس للكشف عن حقيقة الأمر، سوى أن يقدم اعتذاره، ويبايع أبا العباس عبد الله بن محمد بن علي؛ ليصبح بذلك أول الخلفاء العباسيين[١].

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٢٤/٧.

الفصل الثاني

خلافتا أبي العباس وأبي جعفر المنصور

خلافة أبي العباس ١٣٢ ـ ١٣٦هـ/٧٥٠ـ٧٥٣م

لم تكد شمس اليوم الحادي عشر من جمادي الأول سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م تؤذن بالمغيب ؛ حتى حلت الهزيمة بجيش الخليفة الأموي مروان بن محمد في معركة الزاب الكبير[١] ، ليجد نفسه مطارداً من قبل العباسيين ، إلى حيث قتل بقرية في صعيد مصر في شهر ذي الحجة من العام نفسه[٢].

كانت تلك النهاية الدامية لرأس الخلافة الأموية إيذاناً ببدء عهد جديد ، استند فيه ساسته على أحقيتهم بالخلافة ؛ لقرابتهم من النبي – صلى الله عليه وسلم – من جهة عمه العباس بن عبد المطلب ، وذلك ضمن البيان الذي أعلنه الخليفة العباسي الأول أبو العباس ، والذي ارتكز على ما يلي :

١. التنديد بسياسة الأمويين ، وعجزهم عن الوفاء بحقوق الرعية.
٢. التأكيد على منزلة العباسيين ، وارتباطهم بالبيت النبوي .
٣. الالتزام بالكتاب والسنة.
٤. ترهيب الخصوم ، وترغيب الأتباع[٣].

لا شك أن لهذه المبادئ دلالة لما ستؤول إليه علاقة العباسيين بالرعية ، حيث كان منتظراً انطلاق العباسيين في التعاطي مع عديد من الأطراف بمنتهى القسوة و العنف ، لمجرد الشك في الولاء ، أو لمجرد الانتساب لبني أمية. ويبدو أن تصرفاً كهذا الشأن كان يشير إلى تخوف العباسيين وتحوطهم من فشلهم في مشروعهم السياسي ، وهو ما يدفع إلى إثارة التساؤلات حول مصداقية عديد من الآثار المنسوبة للنبي – صلى الله عليه وسلم – عن التبشير بانتقال الخلافة للعباسيين ! ! ؟[٤]

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٨٠/٣.

(٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج٣، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٣، ص٢٦١.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ١٢٧/٨.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج١٠، تحقيق: بشار عواد، بيروت ٢٠٠١، ص٤٨.

شخصية أبي العباس

كان أبو العباس القوة الأساسية التي باتت محاطة بدوائر النفوذ ذات الأذرع الطويلة في رقعة من الأملاك الشاسعة، تتنافس فيما بينها لتوطيد الحكم الجديد، مع صلاحيات مطلقة شبيهة بمقولة: (افعل ولا حرج) !!؟

فيما تبقي شخصية أبي العباس في منأي عن الألسنة لتحاط بهالة من التبجيل والتكريم. كما يصفه اليعقوبي « كريماً، حليماً، جواداً، وصولاً لذوي رحمه»،[١] أو كما تبرزه بعض الروايات عند المسعودي بالشهم الذي يعاتب أحد قواده لإساءته الأدب بجلوسه على فراش الخليفة الأموي مروان بن محمد، وأكله من طعامه عقب اجتزازه لرأسه[٢] !!؟، أو كما يصفه المقدسي بقوله : « كان أبو العباس يكره الدماء »[٣]. رغم أن إحدى الروايات لا تخدم هذا التوجه من الاستخلاص الحسن، حين ينسب لأبي العباس ما يذكر حقده على الأمويين، وأخذه بثأره منهم[٤]، وهي إشارة للتطهير الفظيع الذي مورس بحقهم دون تمييز.

على أن الواقع الذي عاشته الخلافة العباسية في بدء نشأتها لم يكن ليعطي انطباعاً متسقاً مع صفات الخليفة الشخصية، وإذا أخذنا بعين الاعتبار سن الخليفة الشاب الذي لم يتجاوز السابعة والعشرين، وهشاشة موقف السياسيين العباسيين في ظل وجود منافسين من العلويين، أدركنا طبيعة الحالة النفسية التي حكمت تصرفات أبي العباس والتي ميزت عصره بالتوتر والقلق لكثرة ما أزهق فيه من الأنفس. على أن أبا العباس لم يكن بمقدوره التمادي في بسط يد ولاته على رقاب الناس دون وجه حق، خاصة بعد أن عاث عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس في أرض الشام فساداً، حيث قتل بدمشق وحدها خمسين ألفاً من الجند وغيرهم، لم يرقب فيهم إلا ولا ذمة، ولا رعى رحماً ولا نسباً، وهو ما استحق وصف الذهبي له بقوله: « كان عبد الله بن علي ملكاً جباراً، سفاكاً للدماء صعب المراس».[٥] في حين لم يبخل عليه اليعقوبي حين وصفه: بالسفاح[٦]، وهو لقب لازم الخليفة أبا العباس في عديد

(١) تاريخ اليعقوبي، ٩٧/٣.

(٢) مروج الذهب، ٢٧١/٣.

(٣) البدء والتاريخ، ٨٩/٦.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ٢٧١/٣ - ٢٧٢.

(٥) سير أعلام النبلاء، ١٢٥/٧.

(٦) تاريخ اليعقوبي، ٩٧/٣.

من المصادر المتأخرة، ربما بسبب كثرة القتل في عهده، وإن لم يكن ذلك من أفعاله المباشرة، رغم أنه كان له من الألقاب ما يتناسب مع ظروف توليه الخلافة، كالمرتضي والقائم[١]، على أن تدخل الخليفة للجم ولاته لم يحدث إلا بعد أن قتل عبد الله بن علي الزاهد الأموي عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك[٢]، عندئذ فقط أرسل له يأمره بألا يقتل أموياً دون أن يؤذنه بذلك[٣].

سياسته الداخلية

وفي الوقت الذي انكسرت فيه شوكة الأمويين وأتباعهم بقتل ابن هبيرة، كان على أبي العباس مواجهة تحديات؛ لاحت له من جهة مراكز القوة التي ساهمت في قيام الدولة وانتصارها على بني أمية. وكان في أوائل تلك المراكز أبو سلمة الخلال؛ الذي كان يدير أمور الدعوة لبني العباس في الكوفة وما جاورها، والذي كان أنصار العباسيين يلقبونه بوزير آل محمد[٤]، لما كان له من المنزلة وعظم الشأن، فيقول ابن قتيبة: « وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين»[٥]. بينما يذكر الدينوري: « أنه كان ينفذ الأمور من غير مؤامرة»[٦]. ومن كان هذا قدره فإنه لن يأمن كثرة الحساد الذين يرتقبون الزلات ويتشوفون العثرات.

وكان الخطأ الفادح ما أجمعت عليه المصادر المختلفة من محاولة أبي سلمة تأخير الإعلان عن ظهور أبي العباس وآل بيته، لما لجأوا إليه في الكوفة تمهيداً لنقل الخلافة للبيت العلوي[٧]، لكن الأحوال في ذاك الحين لم تكن لتشجع على اتخاذ قرار سريع بالتخلص من أبي سلمة، نظراً لانشغال العباسيين بخصومهم الأمويين، فلما تمهد الطريق لذلك طلب من أبي مسلم أن يبعث أحد رجاله لقتل أبي سلمه الخلال ففعل[٨].

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٦/١٠.

(٢) وهو ابن الخليفة سليمان بن عبد الملك، وولاه مروان بن محمد على مكة والمدينة حتى قُتل. انظر: الزبيرى، نسب قريش، ٥٥/١.

(٣) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة، ١٢٢/٢ – ١٢٣.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٤٨.

(٥) الإمامة والسياسة، ٢٣١/٢.

(٦) الأخبار الطوال، ص٣٦٨.

(٧) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٢٣/٧ – ٤٢٤.

(٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٩١/٣.

ومع حرص بعض المصادر على نفي التهمة عن الخليفة وإلصاقها بأبي مسلم خوفاً من منافسته له، إذ لما سمع بأن الخليفة: «ولي أبا سلمة جميع ما وراء بابه، وجعله وزيره، وأسند إليه جميع أموره، وأرسل أحد قواده وأمره بقتل الخلال»[١]؛ إلا أن الخليفة لم يبدر منه أي استنكار لقتل الخلال، ولم يأمر بالتحقيق في الحادثة التي مست في الصميم هيبة الدولة وأحد رجالاتها المرموقين، لكن ذلك لم يطو دون أن يشاع مقتله على يد الخوارج، في حين عكس أحد الشعراء ما يتردد صداه بين الناس، في قوله:

إن الوزير وزير آل محمد　　　أودى فمن يشناك كان وزيرا[٢]

كان الإيعاز لأبي مسلم الخراساني بقتل أبي سلمة الخلال مناورة سياسية بارعة؛ لا يعوزها الدهاء والمكر، فالخليفة أراد تجنيب نفسه فعل ذلك؛ «لئلا يوحش أبا مسلم أو يوجد لأهل خرسان حجة»[٣]. فيما تبقي على الخليفة مواصلة استعادة مركزية الدولة التي توزعتها أيدي قواده؛ بسبب الظروف الاستثنائية التي عاشتها في بداية نشأتها، والتي أتاحت لبعضهم كأبي مسلم الخرساني أن يتدخل في شؤون الدولة، حيث كان له ممثل في مجلس الخليفة ينقل إليه الأخبار، فيتيح له بذلك الحضور والمشاركة السياسية في قرارات الخليفة[٤]، الأمر الذي اشتدت وطأته على الخليفة بكثرة خلافه، ورده لما لا يرضاه[٥].

غير أن الخليفة كان مدفوعاً بحذره المعهود في التعامل مع أبي مسلم خشية تمرد الجند الخراسانيين؛ لما كان يراه من حبهم إياه وإتباعهم لأوامره وإيثارهم لطاعته، فظل الخليفة متردداً ومحجماً عند اتخاذ قرار في هذا الشأن مؤثراً انتظار الفرصة المناسبة للانقضاض عليه. لكن ذلك لم يتح له في حياته، إلا أنه أمام إلحاح أخيه أبي جعفر المنصور؛ الذي توجه إليه بالقول: «لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك، فلقد رأيته وكأن لا أحد فوقه، ومثله لا يؤمن غدره ونكثه»[٦]، سعي لبعض الإجراءات التي تحد من مكانة أبي مسلم في الدولة، وتنزع

(١) الدنيوري، الأخبار الطوال، ص ٣٦٨.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٥٠/٧.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي،٩١/٣.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢/ ٢٤٧.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٩٢.

(٦) الدنيوري، الأخبار الطوال، ص ٢٧٣.

منه هيبته في قلوب الجند، ومن ذلك: أنه كان يطلب من بعض ولاته القرى بين من خراسان التحرش بأبي مسلم، كما أنه تعمد في بعض المرات إحراج أبي مسلم عبر دفع أحد جنوده للاعتراض عليه، الأمر الذي أثار حفيظة أبي مسلم، وسر قلب الخليفة[١].

ولئن بدا موقف الخليفة أكثر حرجاً في التخلص من مراكز القوى في الدولة، فإنه بدا أكثر استعداداً للتجاوز والتسامح مع خصومه السياسيين من العلويين؛ الذين ماكانوا يعتقدون أن الخلافة ستؤول لغيرهم، الأمر الذي جعل بعضهم يدعو لنفسه بين الناس في مراسلات غير معلنة، كشفها الخليفة مبكراً مما سمح له بالتعاطي معها اكتفاءً بالمسالمة والوعد بعدم الخروج على سلطانه، وذلك فيما تضمنته رسالة عبد الله بن الحسن له: «يا أمير المؤمنين لك عهد الله وميثاقه ألا تري منهما - أي ولديه محمد ذي النفس الزكية، وإبراهيم - شيئاً تكرهه ما كان(محمد) في الدنيا»[٢].

كانت النتيجة الرئيسية لتعقب المناوئين، بداية لبناء قاعدة ولاء حقيقية للخلافة الناشئة، تقوم على أساس السمع والطاعة، لذلك لم يكن غريباً أن تشهد العلاقة بين الخليفة العباسي والرعية مزيداً من التكلف والترفع؛ الهدف منه إظهار أبهة الخلافة وزرع الهيبة في قلوب الناس، وكان من بين الخطوات التي اتخذتها في هذا الصدد: الأمر بتقبيل يد الخليفة عند الدخول عليه[٣]، والأخذ ببعض تقاليد ملوك الفرس[٤].

ولم تكن مدينة الكوفة بالتي تفي بمتطلبات الاستقرار والوجاهة التي أرادها الخليفة للعهد الجديد، فهي من جهة علوية الاتجاه، ومن جهة أخرى لم تكن لترضي طموح الخليفة في صلاحيتها لتكون حاضرة الخلافة وعاصمة الدولة، ولذا انتقل منها إلى الهاشمية ثم الحيرة، وأخيراً استقر به المقام في الأنبار؛ «فابتني بها مدينة عظيمة لنفسه وجموعه، وقسمها خططاً بين أصحابه من أهل خراسان، وبنى لنفسه في وسطها قصراً عالياً، وأقام بتلك المدينة طول خلافته»[٥].

ولكي يستكمل أبو العباس تثبيت قواعد الخلافة، ويكسر شوكة الطامعين فيها من داخل البيت العباسي، نظم مسألة العهد، فجعل أخاه أبا جعفر ولياً لعهده، على أن يليه ابن أخيه عيسى بن موسى[٦].

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٩٤.

(٢) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ١٢٧.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٩/١٠.

(٤) الذهبي، سير الأعلام، ٨٠/٦.

(٥) الدنيوري، الأخبار الطوال، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، ٢٩٤/٣.

وفاته

غير أن نجاح الخليفة في ترتيب أوضاع الخلافة لم يحلِ دون تفجرها عقب وفاته في العام ١٣٦هـ/٧٥٣م، إثر إصابته بمرض الجدري[١]، تاركاً لأخيه أبي جعفر المنصور العمل على توطيد دعائم الملك؛ عبر التخلص من القوي النافذة التي بدأت تهز عصا الطاعة، وتشق صف بني العباس.

لقد دفع الأمويون ثمناً غالياً لسقوطهم، فيما كان على العباسيين ترميم سمعتهم كدولة بنيت على جماجم وأموال معارضيها، الأمر الذي هيأ لحالة من التوجس والحذر؛ تجلت في مواقف العلماء والفقهاء من التعامل الرسمي مع الخلافة، ولقد استمرت هذه العلاقة من التوتر والحذر تجاه الخلافة، بحيث حالت في أحايين كثيرة من بناء ما يمكن أن يكون امتزاجاً بين الطرفين، يحمي الدولة ويصد عنها التيارات الكفرية ذات الأصول الفكرية، التي ما فتئت تبحث لها عن موطئ قدم طيلة العصر العباسي، وهو ما سوف نلاحظ أولي بوادره في خلافة المنصور.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، القاهرة ١٩٩٦، ص٦١.

خلافة أبي جعفر المنصور ١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٥م

شخصية المنصور

إذا كانت سياسة أبي العباس في آخر أيامه قد ساهمت في تهدئة الأوضاع ؛ فإن بداية خلافة أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي قد أعادت الأمور إلى سخونتها ، فالطامعون والمنتفعون من مراكز القوي لم يكن ليسرهم اعتلاء أبي جعفر سدة الخلافة ؛ فالخليفة كان قد أؤخر عنها ابتداء لمصلحة أخيه أبي العباس ، رغم أنه كان أسن منه بما يقارب الخمس سنوات ؛ بسبب ما قيل عن عدم صلته المباشرة بأمور الدعوة كأخيه ، وبسبب أن أمه كانت بربرية[١] .

مبعثها الرئيسي تقديمه أو تأخيره في أمر الخلافة ، أو كونه من أم ولد ، فنشأته في الوسط العباسي ، وكثرة أسفاره وتنقله بين مراكز وحلقات العلم ، وقربه من أخيه الخليفة كانت تشير إلى اضطلاعه بأدوار شتى ضمن الدعوة لبني العباس ، وهو ما أتاح له الطريق نحو ولاية العهد[٢]. غير أن نظرة الخصوم له تتضح من طبيعة شخصيته التي تميزت بالحذر والدهاء الممزوج بالمكر ، مع بخل وميل للاقتصاد ، وهي صفات تثير في الأخرىن التوجس ، وتدفعهم للميل نحو النفور.

ويظهر أن شخصية أبي جعفر قد تأثرت كثيراً بما نالها من مصاعب وأزمات واجهتها قبل بزوغ دولة العباسيين ، حيث تشير بعض المصادر[٣] إلى أن سليمان بن حبيب بن المهلب[٤] عزله عن ناحية كان يتولاها من بلاد فارس ، ثم ضربه وصادره ، ويرد كذلك أنه كان محبوساً في سجن بالأهواز ، دون الإشارة لذكر السبب الذي استوجب به ذلك[٥] ، على أنه في سياق التكوين الشخصي لأبي جعفر تبرز مؤشرات

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢١/١٣-١٢٢.

(٢) كان يشير على أخيه وولي له أرمينية وأذر بيجان والجزيرة، انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٩١/٣.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٨٣/٧؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ٣٩٦/١.

(٤) هو سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، كان قد ثار ضد الخليفة الأموي مروان بن محمد واستولى على فارس والأهواز، فقصده أبو جعفر فأكرمه وولاه بعض الأعمال بالأهواز، فحاز أبو جعفر مالاً كثيراً من ذلك، فعزله سليمان وعاقبه وضربه بالسياط. انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ٣٩٦/١.

(٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٥٤/١٠- ٥٥.

أخرى تضعه فيصورة العالم، حيث يلتقي مبكراً في مرحلة الطلب مع سفيان الثوري[١]، وعمرو بن عبيد المعتزلي[٢].

ويبدو أن ذلك كله مع تجربة الخلافة قد صقل شخصيته على النحو الذي يلخصه المسعودي بقوله فيه: «محنك السن، حازم الرأي، قد عركته الدهور، وحلت الأيام سطوته، وروي العلم، وعرف الحلال والحرام، لا يدخله فتور عند حادثة، ولا تعرض له وثبة عند مخوفة، يجود بالأموال حتى يقال: هو أسمح الناس، ويمنع في الأوقات حتى يقال: هو أبخل الناس، ويسوس سياسة الملوك ويثب وثوب الأسد العاري، لا يبإلى أن يحرس ملكه بهلاك غيره»[٣].

وها هو يحدث عن نفسه بما يدل على تيقظه وسلوكه الذي اتسم بالحذر طيلة خلافته، حيث يقول لبعض أصحابه: «إن هذا الملك أفضي إلى وأنا حنيك السن، قد حلبت هذا الدهر أشطره، وزاحمت المشاة في الأسواق، وشاهدتهم في المواسم، وغازيتهم في المغازي، فوالله ما أدب أن أزداد بهم خبراً، على أني أحب أن أعلم ما أحدثوا بعدي منذ تواريت عنهم بهذه الجدارات، وتشاغلت عنهم بأمورهم، مع أني -والله- ما لمت نفسي أن أكون قد أذكيت العيون عليهم، حتى أتتني أخبارهم، وهم في منازلهم»[٤].

سياسته الداخلية

موقفه من عمه عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني

لقد كان أبو جعفر يؤسس لملك في مرحلة أعقبت حجر الأساس، فالخصوم لم يكونوا لينتظروا أكثر من وفاة أبي العباس لتنفجر الأوضاع ولتتوسع التطلعات، وكان أبو جعفر مدركاً لتلك الأبعاد، عازماً على مواجهتها بالصرامة والدهاء اللذين عرف بهما، ومنذ اللحظة التي تولى فيها الخلافة كان عليه مواجهة الأطماع الداخلية لعمه عبد الله بن علي؛ والتي كانت ترتكز - فيما رواه المسعودي - على وعد سابق لأبي

(١) الدينوري، الإمامة والسياسة، ١٤٣/٢. وهو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، وصفه الذهبي بقوله: « هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد (ت.١٦١هـ/٧٧٨م) «. انظر: سير أعلام، ٢٣٠/٧.

(٢) قال عنه الذهبي: « الزاهد، العابد، القدري، كبير المعتزلة، وأولهم، أبو عثمان البصري، توفي عام ١٤٤هـ/٧٦١م. انظر: سير أعلام، ١٠٥/٦.

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٩٥.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٢١/٣.

العباس بأن تكون ولاية العهد لمن يقتل الخليفة الأموي مروان بن محمد[١]. وكان على الخليفة تبعاً لذلك أن يعيد رسم أولوياته، فإلحاحه سابقاً على أخيه أبي العباس في قتل أبي مسلم الخرساني؛ بسبب سوء ظنه فيه؛ وخوفه من غدره مع تصرفه في الأمر والنهي دون الرجوع إلى الخلافة، كان من الصعب أن يبادر به في ظل الوضع الراهن. لكن أبا جعفر لم يبعد كثيراً عن نواياه، حيث رأى بطبعه الميال للمشورة أن ينتدب أبا مسلم لقتال عمه، أملاً في التخلص من أحدهما، وهو ما عبر عنه أحد مستشاريه بقوله: «نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبد الله بن علي، إلا أنا نرجو واحدة»[٢]. وكان من الواضح أن أبا مسلم بطموحاته المحدودة في خراسان يدرك أن لا ناقة له ولا جمل في مناصرة أحد الطرفين على حساب الآخر، حيث تبين ذلك من قوله لكاتبه: «امض إلى خرسان وأخلِ بين هذين الكبشين فأيهما غلب، كتبنا إليه سمعنا وأطعنا، فرأىَ أنا قد أنعمنا عليهَ وعملنا له عملاً»، ولكن كاتبه أشار عليه بخلاف ذلك[٣]. ولم يتردد أبو مسلم كثيراً في اتخاذ قراره؛ إذ بادر بالكتابة لأبي جعفر، مهوناً من أمر عبد الله بن علي، ومصغراً لشأنه في إشارة يرمي من وراءها لكسب ثقته، وحفظ اليد عنه[٤]!! غير أن التقارير التي كانت تصل أبا جعفر المنصور بشأن تصرفات أبي مسلم حال قراءته لرسائله لم ترسم سوى صورة من الاستهانة والسخرية بمقام الخليفة[٥]!!؟ ولم يزد أبو مسلم - بعد أن أزاح عبد الله بن علي بعد حرب دامت ما يقارب خمسة أشهر ١٣٦- ١٣٧هـ/٧٥٣-٧٥٤م - عن طريق أبي جعفر إلا قرباً من هلاكه، حيث كان أبو جعفر يعد له الأيام عداً، وينصب له الفخ الذي وقع فيه. بيد أن سياسة أبي جعفر الرامية لقتل أبي مسلم كانت تقتضي استدراجه بعيداً عن أنصاره في خراسان، حيث ينفرد به الخليفة، ليثبت له سطوته وقدرته في قهر خصومه، الأمر الذي كان يتحاشاه أبو مسلم وينفر منه، لما يرى في نفسه من التعاظم والفدية لغيره، ولذا طالت المراسلات بين الطرفين ترغيباً وترهيباً حتى أذعن أبو مسلم في نهايتها لإرادة أبي جعفر ، فسار إليه ليلاقي حتفه بعد أن ووجه بسلسلة من الاتهامات، كانت كفيلة - من وجهة نظر أبي جعفر - بوضعه في صف الخونة الشاقين عصا الطاعة. ولم يكن أبو جعفر يحتاج لأكثر من ذلك حتى يبرر للناس السبب الداعي لقتل رجل، كان

(١) مروج الذهب، ١٨٨/٣.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٨١/٧.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٠١/٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٧٥/٧.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٨٢/٧.

أداة طيعة للعباسيين في توطيد ملكهم وقهر خصومهم، حيث قال في خطبة ألقاها: «أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تستروا غش الأئمة، فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته في فلتات لسانه، وسقطات أفعاله، وأبداها الله لإمامه الذي بادر بإعزاز دينه به، وإعلاء حقه بفعله، إنا لم نبخسكم حقوقكم، ولم نبخس الدين حقه عليكم، إنه من نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد، وإنَ أبا مسلم بايعناه وبايع لنا، على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح لنا دمه، ثم نكث بيعته هو، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه [1]».

المنصور والعلويون

كان السعي الدؤوب للتخلص من معاوني أبي جعفر في الداخل، يرمي لبناء دولة تضمن مرتكزات دائمة تستند فيها على مركزية لا ينافسها فيه أحد، ولما كان أنموذج الدولة العباسية مرتبطاً بشخصية كأبي جعفر في حذره وترصده، فإن أية قوي تمثل تهديداً لحالة الاستقرار لن تنعم بالأمان في ظل هذا الوضع، ما لم تقدم الولاء التام والطاعة القصوى. وانطلاقاً من ذلك؛ فإن القوى التي غيبتها خلافة بني العباس عن الساحة كانت تشعر بأنها مطالبة كغيرها بإثبات حسن نواياها، بعد مرحلة سابقة كانت تسعى فيه للخلافة باسمها، ولم يكن في مقدمة هؤلاء سوى العلويين، الذين كانوا عنصراً فاعلاً في جذب اهتمام العامة، لما لهم من رصيد في قلوب المسلمين بحكم انتمائهم لبيت النبوة. وداخل هذه الحدود وحدها نستطيع أن ندرك صعوبة التعايش بين الكتلتين من بني هاشم (العباسيين والعلويين) ما لم يتنازل أحدهما للآخر، وإلا فإن الاحتكاك السلبي بين الطرفين سيعيد للأذهان صراعات مشابهة لما عرفته الدولة الأموية. وفيما يخص العلويين فإن تياراً مهماً من المعارضة والاستقواء بدأ يتشكل في المدينة برئاسة عبد الله بن الحسن وبنيه، تحديداً محمد وإبراهيم اللذين لم يكن باستطاعتهما أن يندمجا في إطار دولة أبي جعفر المنصور، دون أن يرضياه بمبايعتهما له، وهو ما لم يحدث مطلقاً[2]!! وكرد فعل على هذا السلوك ذي الدلالات السياسية العميقة، فيما يمس أهلية العباسيين للخلافة، تحتم على أبي جعفر كما هي عادته في تقوية السلطة وتركيزها، أن يعتبر ذلك تفلتاً من الإقرار بشرعية الدولة، الأمر الذي

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٣٠٥/٣.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١١٠/٣.

سيقود لمواجهة مؤكدة، أراد لها أن تجيء في وقت لم يكن العلويون مهيئين لها بطريقة تصل لقلب الدولة العباسية.

وقد عمد أبو جعفر إلى التضييق بالحبس على عبد الله بن الحسن وبعض قرابته، حتى يدلوه على موضع محمد وإبراهيم اللذين اختفيا فيه منذ اللحظة التي طلبهما فيها، ولما لم يكن لهذه الخطوة أية فائدة ترجي فإن أسلوباً آخر بدأ يشق طريقه في التعامل بين الطرفين، حيث بلغت المناقشات الساخنة عبر المراسلات حول أي الفريقين أحق بالخلافة أشدها، في محاولة لكل منهما لتجرىد الآخر من المسوغات النظرية التي تبطل صلاحية عائلته للحكم، وتنسف جهوده في كسب تعاطف الناس، وتزعزع بناء قواعده التي تدير أمره وتدعو له[١].

إن ظرفاً من هذا القبيل كان ولا بد أن يحسم لمصلحة أحد الطرفين، وهو ما تسبب في متاعب كثيرةً لبني الحسن، حيث حملهم موقف الخليفة التصعيدي على إعلان المواجهة قبل الاستعداد لها، وقد نتج عن ذلك: فقدان زمام المبادرة، ضيق الفرص المتاحة، إشاعة الخوف والقلق، تراجع العناصر الموالية.

وبالنظر لاِتكاء أبي جعفر على سلطانه ضيَّق الخناق على منافسيه ومناصريهم، كما أمكن له الحصول على أخبار كثيرة؛ من خلال جواسيسه الذين بثهم ليتسللوا داخل العلويين، مشجعين لهم على الثورة، وملوحين لهم بالنصر[٢]!؟ وهو ما دفع محمد وإبراهيم إلى الظهور والإعلان عن نفسيهما في المدينة والبصرة على التوالى، وبفارق أتاح لأبي جعفر إمكانية القضاء على حركتيهما واحدة تلو الأخرى، بعد أن كادتا تطيحان بدولته[٣].

لقد كان لاهتمام أبي جعفر بحركات العلويين سبب أكثر عمقاً يتصل باعتبارات شخصية، تري أنها أحق بالمرجعية الشرعية من غيرها، واستناداً لهذا الفهم استثمر أبو جعفر انتصاره على العلويين ليتخذ «لقب المنصور»؛ مكتسبا بذلك القوة التي يرهب بها الخصوم، وداعماً لبنية الدولة وأساسها الذي قامت عليه.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٤٥/٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٥٢/٧.

(٣) الذهبي، سير أعلام، ٨٣/٧.

موقفه من الحركات الهدامة

لم يكن مبعث الدعوة لبني العباس قبل نشأة الدولة سنِّي الطابع، ففكرة تفويض الإمامة والوصاية بها لبني العباس كانت قد صيغت في إطار عقيدة تدين بالنص على العصمة، وتؤمن بالحلول والتناسخ، وهي نظرية كانت دائماً قادرة على استيعاب مجموعة الآخر المتمايزة في ذلك الوقت، والمدعومة من قبل التيارات المتطرفة دون أن تتحصن بها عملياً مسوغاً شرعياً في الطريق نحو الخلافة.

ولقد تبلور هذا الاتجاه - فيما يخص العباسيين- في فرقة الراوندية؛ التي ظهرت في إيران، واقترنت بالدعوة لبني العباس. حيث زعمت «أن الروح التي كانت في عيسى ابن مريم صارت في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة واحداً بعد واحد، إلى إبراهيم بن محمد، وأنهم آلهة»[١].

وكان من الطبيعي أن يعكس انتصار العباسيين، إلى جانب التبدلات السياسية؛ تأثيراته على تطور الحركة في ذلك الحين، حيث بلغ ذروة رواجه في عهد المنصور الذي رأى فيها داعماً قوياً لسلطته، الأمر الذي جعله يغض - في بعض الأحيان - النظر عن التجاوزات العقدية الخطيرة التي أوصلته إلى مرتبة الربوبية، طالما أنها كانت في طاعته، يروي الطبري عن أبي بكر الهذلي: «أنه رأي رجلاً يشير إلى باب المنصور، ويقول: «هذا رب العزة، هذا الذي يطعمنا ويسقينا»، فلما أخبر المنصور بما سمع، أجاب: «يا هذيلي، يدخلهم الله النار في طاعتنا ويعتلهم، أحب إلى من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا»[٢]. وإذا صحت هذه الرواية، فإن أبرز مؤشراتها وثيقةً تاريخيةً، تلك التي تصب في إطار السماح بإحياء الموروثات الفكرية الشرقية التي تستهدف تقديس السلطان، دون التورط مباشرة في دعمها!! على أنه إذا كانت حركة الراوندية في جانب سياسي منها، مدفوعة باعتبار موالاتها للعباسيين حتى إنها أفرزت حركة أخرى سميت بالعباسية فإنها في جانب سياسي آخر لم تكن بعيدة عن تطورات الأحداث السياسية في عهد المنصور التي أطاحت برأس أبي مسلم، حيث تري بعض المصادر أنهم كانوا على رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم فيما زعموا من تناسخ الأرواح وربوبية المنصور[٣]، ولذا فإن تركهم الغامض في التوافد إلى الهاشمية

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٧/ ٥٠٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٠٧/٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ١٢٩/٥.

حيث مقر المنصور، لم يكن منفصلاً عن موقف خاص من هذه التطورات، التي لم تعد تخفي وراءها أزمة الراوندية سرعان ما استحالت إلى لظى ؛ كادت تكوي بحرارتها دولة العباسيين، ذلك أن الراوندية حاصروا أبا جعفر وكادوا يفتكون به لولا إرادة الله - عز وجل - ثم كفاءته القتالية، وثبات رجاله من حوله[١].

كان الاختيار محسوماً لدى أبي جعفر، الذي رفض مهادنة الراوندية بعد ذلك، على أن المجابهة معها كانت في الوقت نفسه جزءاً من الصراع المحوري ضد القيادات والحركات الفكرية الهدامة المناهضة للإسلام، وهو الخيار الذي انحاز إليه العباسيون فجاء التزامهم به تعبيراً عن حاجة موضوعية ملحة، أكدت عمق التصاقهم بالعقيدة والتزامهم بوحدة الجماعة. ولا شك أن هذا الموقف من العباسيين قد أورث لدى تلك التيارات شعوراً بعدم الرضا، ورغبة عارمة في الانتقام ؛ لفقدانها ما كانت تأمله من اعتبارات مصلحية مع بروز الدولة العباسية، وهو ما عبر عنه المقريزي في قوله: « واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام ؛ أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها، بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، كانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً، تعاظم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتي، وفي كل ذلك يظهر الله - تعالى- الحق»[٢].

ولقد شكل ذلك الاتجاه انطلاقاً أدى إلى ظواهر خطيرة في المجتمع الإسلامي، حيث كان سبباً في نشأة طوائف طبعت بشيء من الخصوصية، ذات حسابات مختلفة ورؤي خاصة، لم تلتقي أبداً طيلة تاريخها وحتى اليوم مع وسطها الذي عاشت فيه، دون أن يكون في ذلك الالتقاء انحيازاً لمشاريع استبطنت حقداً على الأمة وعقيدتها، مستغلة قلقها ومعاداتها وتمحورها حول ذاتها في تعبئتها وتحريضها على المجتمع الدولة. ولم يكن ثمة ما يحول بينها وبين نزعتها الغارقة في العداء لتستثمر كل حدث في سياقات التبعية والارتهان لمصلحة التيار المقترن بالكفر أحياناً وبالنفاق أحياناً أخرى ! ! ولذا مثل مقتل أبي مسلم الخرساني فرصة سانحة في إذكاء حدة الصراع الذي كان يشهد نمواً في الداخل الإيراني، معتمداً على توظيف العقائد في خدمة الأهداف

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٠٥/٧.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، ج٢، القاهرة ١٩٨٧، ص ٣٤٥.

السياسية، حيث يروي المسعودي: « ولما نما مقتل أبي مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال، اضطربتالخرمية وهي الطائفة التي تدعي بالمسلمية، القائلين بأبي مسلم وإمامته»[١] لتشكل تحالفاً نادت فيه قيادته التي أوكلت لرجل « كان من صنائع أبي مسلم » يقال له سنباذ، بالخروج إلى الحجاز وهدم الكعبة، ثأراً لمقتل أبي سلم الخراساني[٢].

ولم يطل الوقت حتى انضم للحركة كثير من أهالى القرى والضياع من الفلاحين والزراع، الذين كانوا محتفظين حتى ذلك الحين بانتماءاتهم الدينية لمذاهب الفرس القديمة، والتي يوحدها دين المجوسية، إلى جانب بقائهم على عصبيتهم للجنس الفارسي[٣]، ونتيجةً مباشرة لهذا التكتل توجه سنباذ إلى نيسابور والري وقومس، حيث سيطر عليها وضم ما فيها من أموال وخزائن[٤]، ليصبح بذلك مركزاً للاستقطاب ومدخلاً للقضاء على الخلافة العباسية.

ومع أن هذه الحركة التي حظيت بتعاطف العوام والبسطاء من الناس ووجهت بجيش منظم من الخلافة أنزل بها هزيمة ساحقة، إلا أنها قد سجلت تقدماً للعناصر الفارسية على حساب العرب، حيث أدى ذلك إلى تراكم ثقافي عدائي، تجلى في أوضح صورة فيما سمي بعد بالشعوبية.

ترتيب أوضاع الدولة

كما حصن المنصور ملكه بالقضاء على منافسيه، فإن اختياره لموقع العاصمة الجديدة (بغداد) لم يكن سوى تمهيد لخطوة أكثر شمولاً، تهدف إلى تحصين قدرة الدولة في ضبط أطرافها وحفظ كيانها، حيث أصبحت بغداد « مشرعة للدنيا، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين، وما يتصل بذلك؛ فإليها ترقى وبها ترسي، وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية، مما يحمل في السفن في دجلة، وما يأتي من ديار مضر والرقة

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٢٢٠/٣.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٩٥/٧.

(٣) المسعودي، مروج الذهب ٣٠٥/٣ - ٣٠٦

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٩٥/٧.

والشام والثغر ومصر والمغرب، مما يحمل السفن في الفرات فيها يحط وينزل، ومدرجة أهل الجبل وكور خراسان»[١].

ومن الموقع الذي احتفظ باسم بغداد عاصمة للخلافة العباسية، كانت نفسية المنصور تتوق لجعلها الحلقة المركزية التي تدير شؤون الدولة بكفاءة واقتدار، ولذا مافتأ طيلة خلافته من السعي في إحاطة ملكه بالتنظيم والمتابعة؛ «فكان شغله في صدر نهاره: بالأمر والنهي، والولايات والعزل، وشحن الثغور والأطراف، وأمن السبل، والنظر في الخراج، ومصلحة معاش الرعية، لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم. فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق، وشاور سماره في ذلك، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه»[٢].

ومن خلال برنامجه اليومي، فإن سياسة المنصور في إدارة الدولة كانت تقتضي الإشراف العام والمباشر على شؤونها وهي ذاتها السياسة التي تتناسب مع الطبيعة الشخصية للخليفة، في حبه للاستئثار بالقرار، وحذره وعدم ثقته بالأخرىن من حوله!! وقد اتعبت هذه السياسة عماله حتى ثقل عليهم «تفقده الأعمال ومراعاته لها»[٣]، إذ كان كثيراً ما يكلف البريد بالكتابة إليه عن أخبار الولاة والقضاة، وأحوال البلدان» بسعر القمح والحبوب والأدم، وبسعر كل مأكول، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم، وبما يعمل به الوالي، وبما يرد بيت المال من المال، وكل حدث»[٤].

ولعل إحدي الظواهر المبتكرة لهذه السياسة، كانت في تفريق الجيش إلى أحزاب: «قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزاباً، كل حزب منهم يخاف أن يحدث عليك حدثاً، فتضربه بالحزب الآخر»[٥].

على أن هذه السياسة - التي كان من بين أهدافها إحداث التوازن في تركيبة الجيش من ناحية أجناسه - كانت مفتاحاً لتحولات خطيرة، إمَّا حال ضعف الخلافة وإمَّا حال

---

(١) اليعقوبي، البلدان، ليدن ١٨٦٠، ص٩.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٧٠/٨.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٣٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٢٢١/٥.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٩٢/٧.

الصراعات القائمة داخلها. وهو ما سوف يشاهد في فترات لاحقة من عمر الخلافة العباسية.

وهكذا أصبحت بغداد – في ظل المنصور – الأداة المنظمة والراعية لأحوال الدولة ومواطنيها ، فمثلت بذلك الصورة المركزية التي تحلقت حولها الأطراف لتستمد منها أسباب الحياة وعوامل القوة ، ولتصبح بذلك جزءاً من الوصية التي أوصى المنصور ابنه المهدي بها ، حيث قال : « ... وانظر هذه المدينة ، فإياك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك ... قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وإعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً»[١].

غير أن نجاح المنصور في إدارة الدولة وبنائها لم يحل دون الشعور الدائم بحالة من عدم الرضا : «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم... هم أركان الملك : فقاض : لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر : صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث : صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني ، والرابع : ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، في كل مرة يقول (آه) ... صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة» [٢].

ولعل ذلك الشعور كان وراء الأسلوب الحياتي الخاص الذي فرضه المنصور على نفسه ؛ حيث كان ميله للاقتصاد قد بلغ به حد تلقيبه : « أبا الدوانيق » ، وهو ما انعكست مظاهره على نفقاته الخاصة ، مما آل ببعض عارفيه إلى أن قال : « الحمد الله الذي أفقره الله في ملكه !!؟» ، ومع أن هذا القول قد عبر بدقة عن الواقع ، إلا أن أخريات أيام الخليفة شهدت انفراجاً في النفقات المالية ، فأهل الحجاز أطلقوا على أحد الأعوام : « عام الحصب ؛ لما أغدقه عليهم المنصور من الأموال[٣] ، فيما نال أعمامه في يوم واحد عشرة آلاف ألف درهم»[٤].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٧٠/٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٢٢١/٥.

(٣) ابن طباطبا، الفخري، ص١١٦.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ٢٣٢/٣.

ويبدو أن هذا الانفراج الجزئي في النفقات تبعه انفراج آخر في سياسة الملك: «الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، السلطان لا يصلحه إلا العدل»[١] مقابل سياسة سابقة كان السيف فيها الحكم، وتظهر معالم السياسة الجديدة من حكم عامله على المدينة لجمالين نقلوا أحمال المنصور في طريق الحج دون أن يرضيهم، فطلب من المنصور إنصافهم، الأمر الذي سُر له المنصور، وعبره عنه بقوله: «جزاك الله عن دينك وعن بيتك وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء»؛ ثم أمر له بعشرة آلاف دينار[٢].

بيد أنه هذه السياسة لم تطرح ثقلها الكامل على الواقع المتوتر أصلاً بين الخليفة والفقهاء، حيث تجمعت في الأخيرة قواعد منهج أهل السنة والجماعة الذي تعززت فيه خيارات الأمة بارتماء الخلافة في أحضانه، أما خلفية هذا التوتر فلا تتعدى الإطار الديني والأخلاقي؛ حيث رأى الفقهاء في القرب من السلطان مشروعاً إلى الفتنة، وهو ما يفسر جانباً من نظرة الفقهاء للخلافة العباسية، تلك النظرة التي كانت تفصح عن نفسها كلما دعت الحاجة والضرورة إليها، حيث قال أحد الفقهاء: «ويل لمن دخل عليهم، إذا لم يكن كبير العقل، كثير الفهم، كيف يكون فتنة عليهم وعلى الأمة»[٣].

بيد أن محاولة الفقهاء في القرب من الخلافة ظلت محكومة بمقدار ما تفرضه المصلحة العامة، بحيث أدى ذلك إلى افتقاد احتمالات التعايش ضمن الإطار الشخصي، الأمر الذي يفسر الموقف المتأرجح بين القرب والبعد من السلطان؛ بسبب أفعاله؛ «أباد جماعة كباراً حتى توطد له الملك، ودانت له الأمم على ظلم فيه وقوة نفس، ولكنه يرجع إلى صحة إسلام وتدين في الجملة، وتصون وصلاة وخير، مع فصاحة وبلاغة وجلالة»[٤]. والحق أن المنصور كان شديد الاحترام والتقدير لأهل العلم، عارفاً لفضلهم، راغباً في القرب منهم، قوي التأثير بمواعظهم، بعث ذات مرة للإمام الأوزاعي، قائلاً له: لم تبطئ عنا! فقال الأوزاعي: وما تريد منا؟ فقال: لآخذ عنكم، واقتبس منكم، فقال الأوزاعي: مهلاً، فإن نبي الله - صلى الله عليه وسلم- قال: «**من جاءته موعظة من ربه فقبلها شكر الله له ذلك، ومن جاءته ولم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة**»، مهلاً فإن مثلك لا ينبغي أن

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٣٦.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٣٧.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٨٧/٧-٨٨.

(٤) الذهبي، سير أعلام، ٨٣/٧.

ينام وإنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية، يجبرون الكسير، ويسمنون الهزيل، ويؤون الضالة، فكيف من يسفك دم المسلمين ويأخذ أموالهم؟ أعيذك بالله أن تقول: إن قرابتك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- تدعوك إلى الجنة، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- كانت في يده جرىدة يستاك بها، فضرب بها قورة أعرابي فنزل جبريل فقال: يا محمد! إن الله - تبارك وتعالى- لم يبعثك مؤيساً مقنطاً تكسر قرون أمتك، ألق الجرىدة من يدك، فدعا الأعرابي إلى القصاص من نفسه. فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟ إن الله - عز وجل- أوحي إلى من هو خير منك داود عليه السلام: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾[١]، وأوحي إليه: يا داود إذا أتاك الخصمان فلا يكون لأحدهما الفضل على صاحبه، فأمحوك من ديوان نبوتي، اعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار، لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه، فكيف بمن يتقمصه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم، وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي إلى الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها؟ فبكي المنصور بكاءً شديداً، من شدة تأثره حتى خضبت دموعه لحيته ووجهه[٢].

سياسته الخارجية

ظلت الدولة العباسية مشغولة في السنوات الأولى من خلافة أبي جعفر بالمتاعب الداخلية التي كانت تهدد تماسكها، وتحول دون تكتلها في وجه الخطر الخارجي، وهو ما شجع البيزنطيون في الشمال، حيث فرضوا سطوتهم على مناطق الثغور فتحاً وتخريباً وأسراً لأهلها[٣]، ما أشاع جواً من الفوضى وعدم الاستقرار بين السكان، وقاد إلى شعور بالحرج لدى الخليفة أمام الرأي العام الإسلامي؛ الذي كان يتلهف لإعادة حركة الفتح ونشر الإسلام، وهي المسألة التي لم تكن أقل طلباً لدى العباسيين باعتبارهم المعنيين بالتعبئة وقيادة الأمة. ولذا ما أن استقرت الأوضاع الداخلية حتى بدأت سلسلة من الغزوات، كانت مهمتها الرئيسة ردع البيزنطيين وصد هجماتهم على

---

(١) سورة (ص)، الآية ٢٦.

(٢) العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، ج٣، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، بيروت ١٩٩٨، ص٢٥٩.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٣٨٧/٢.

الثغور، إلى جانب تحصين المدن وتعميرها بالمقاتلة وأدوات البناء[١]. ويبدو أن البيزنطيين اضطروا تحت وطأة تلك الغزوات إلى الانكفاء داخل أراضيهم؛ مما هيأ لإرسال حملات ذات طابع هجومي، تمكنت من كسر شوكة البيزنطيين وفتح بعض بلادهم[٢].

وتحت تأثير الضربات التي تلقاها البيزنطيون تقدموا بمقترحات للصلح[٣]، سرعان ما رفضها المنصور؛ لتستمر الحملات حتى العام ١٥٨هـ/٧٧٥م[٤]، حيث عهد المنصور لابنه المهدي بالخلافة؛ موصياً إياه بقوله: «... وليكن أهم أمورك إليك تحفظ أطرافك، وسد ثغورك واكماش بعوثك، وارغب إلى الله - عز وجل - في الجهاد، والمحاماة عن دينه، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين، ويمكن لهم في الدين»[٥].

وإذا كان قد قدر للخلافة في عهد المنصور أن تستوعب وبسرعة التحرشات البيزنطية في منطقة الثغور الشمالية لتردها داخل حدودها، فإن العباسيين لم يمضوا كثيرا في الداخل البيزنطي، حيث اقتصروا على ترتيب أوضاع الثغور التي كانت قد شهدت انتكاسات، بعضا منها يُعزى لدسائس ومؤامرات السكان المحليين ذوي الديانة النصرانية.

ويظهر أن الخشية من اضطراب الأوضاع في مناطق أخرى، قد عجل باستكمال ذات السياسة، القاضية بتحصين الحدود وبناء المدن، وعلى الأخص ما كان منها مواجهاً للجزر الذين كانوا يقطنون مناطق شمال غرب بحر قزوين.

وفاته

عاش المنصور أربعاً وستين سنة، مخلفاً ملكاً واسعاً وراء ظهره، هنأ فيه حتى ذي الحجة من عام ١٥٨هـ/٧٧٥م، ليختمه برجاء عفو الله له قائلاً: «اللهم إني قد ارتكبت عظائم، جرأة مني عليك، وقد أطعتك في أحب الأشياء إليك، شهادة أن لا إله إلا الله، مناً منك لا مناً عليك، فسبحان من قهر بالموت عباده»[٦].

(١) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٨٧، ص١٩١.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٣/٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٦/٨.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٧/٨.

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٢٥/٣.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٠/٨.

الفصل الثالث

خلافة المهدي

١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٦م

شخصية المهدي

المهدي محمد بن عبد الله المنصور، اللقب الذي اختاره له أبوه، ليكرس بذلك صيغة خاصة ظلت متداولة بمسميات مختلفة حتى آخر الخلفاء العباسيين، في إشارة للإطار الديني والأخلاقي الذي يعطي للخلافة دورها الإصلاحي.

ولد المهدي بالحميمة قاعدة العباسيين زمن الأمويين ١٢٦هـ/٧٤٤م، من أم هي أروى ابنة منصور؛ التي تنتسب للقبيلة اليمانية المشهورة حِمير، وكان يتميز بحسن الوجه والجسم، قريب الشبه من والده في السمرة والطول، جعد الشعر، على عينه اليمني نكتة بياض[١].

اهتم به والده منذ صغره؛ فعهد به إلى علم من أعلام اللغة والأدب، هو المفضل الضبي[٢]، حيث نهل منه الأمثال والشعر، فنشأ محباً للقراءة وطلب العلم، مهتماً بمكارم الأخلاق، معتنياً بدراسة الأخبار وأيام العرب[٣]. وكان لتلك النشأة أثرها في شخصية المهدي وتوجهاته المستقبلية، حيث كان: «كريماً بذول الأموال، حسن العفو، كريم الظفر، لا يدخله غفلة عند مخوفة، ولا يتكل في الأمور على غير ثقة، وصولاً لأرحامه، براً بأهله، فيه لين جانب»[٤]، وكان: «ذكياً فصيحاً، بعيد الهمة، سديد الرأي، ثاقب الفكر، قوي البيان، فصيح اللسان، عالماً بضروب السياسة وفنونها»[٥].

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٢) ويلقب بالكوفي، كان لُغَوِيًّا، من علماء القرن الثاني الهجري، وأحد رواة الشعر الأعلام، قدم إلى بغداد أيام هارون الرشيد، توفي سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م. انظر: ابن النديم، الفهرست، ٦٨/١.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٩١/٥.

(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٩٧.

(٥) ابن طباطبا، الفخري، ص١٣١.

وقد لا نجد صعوبة من خلال هذه الصفات، في فهم سعادة المنصور وإعجابه بشخصية ابنه، الذي كان معداً بحيث يكون قادراً على فك التأزيم الذي تسببت فيه الدولة العباسية أثناء مرحلة التأسيس، حيث كانت النفوس لا تزال مشحونة بالتوتر ومصحوبة بالحذر، الأمر الذي كان يدركه المنصور في وصيته لابنه: «إني تركت الناس ثلاثة أصناف: فقير لا يرجو إلا غناك، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلا منك»[1].

وهكذا كان المهدي يُعَد ليكون رأس الخلافة بعد وفاة والده، وفي هذه الحالة جاءت مشاركته المبكرة، وهو في سن الخامسة عشر، إلى جانب القائد في الجيش السائر إلى خراسان؛ من أجل إخماد فتنة وإليها ليرأس بعد ذلك الجيش الذي غزا طبرستان، وليتولى إقليمي خراسان والجبال حتى العام ١٥١هـ/٦٧٨م، حين عاد إلى بغداد مع جيشه الخراساني لتكون الرصافة معسكراً له ولجنده[2].

وكان من المقرر منذ خلافة العباس أن يلي ولاية العهد للمنصور ابن أخيه موسى بن عيسى، في بادرة كانت تنم عن تسوية؛ ترمي إلى تماسك البيت العباسي الداخلي تجاه أوضاع بالغة التعقيد، وظروف سياسية متقلبة. غير أن الاستقرار الذي شهدته الدولة أواخر خلافة المنصور، والولاءات التي تشكلت حول الخليفة وابنه المهدي؛ ساعدت كثيراً في تقديم الأخير ليكون ولياً للعهد، في مقدمة لحفظ الخلافة في أولاد المنصور دون باقي أولاد إخوته، في حين تم استرضاء موسى بن عيسى - وإن كرهاً- ليخلف المهدي كولي لعهده[3].

وهكذا وجد المهدي طريقه إلى الخلافة سالكاً دون منافسين ليرى مُلكاً قد توطدت أركانه واتسعت أرجائه، فيما كانت خطوط السياسة العامة التي رسمها له والده تتشكل أمام ناظريه كوصية لم يشأ المنصور أن يغادر الدنيا دون أن يزود ابنه بها. «وليتسع إنصافك، وينبسط عدلك، ويؤمن ظلمك، وواس بين الرعية في الاحتكام، وأهل الدين فليكونوا أعضادك، وأعط حظ المسلمين من أموالهم، وتابع أعطياتهم عليهم، وعجل بنفقاتهم إليهم سنة سنة وشهراً شهراً، وعليك بعمارة البلاد بتخفيف

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٢٥/٣.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٨ /٣٧.

(٣) ابن طباطبا، الفخري، ص١٢٦.

الخراج، واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة، وليكن أهم أمورك إليك: حفظ أطرافك، وسد ثغورك، وإكمال بعوثك. وأرغب إلى الله - عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه وإهلاك عدوه»[١].

كان نعي الخليفة المنصور على لسان المهدي إعلاناً آذناً بصفحة جديدة بين الحاكم والمحكوم، صفحة من التيسير والرفق لطالما انتظرتها الرعية وهي تشد أنظارها صوب المهدي ليلقي بارتجال وإيجاز كلمة العهد: «لقد فارقت عظيماً، وقلدت جسيماً، فعند الله أحتسب، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس، أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهل السلامة من حيث رآه الله مقدماً على ذلك على فعل من تقدمه، والله لأفنين عمري من عقوبتكم، ولأحملن نفسي على الإحسان إليكم»[٢].

وهكذا تقررت بصورة تقريبية ملامح العهد الجديد، حيث وضح مبدأ اعتماد المهدي على العفو والأخذ باللين، ومن البديهي أن ذلك كان مبعث شعور بالراحة والاطمئنان لدى الرعية، حتى أن شاعراً كأبي دلامة لم يكتم غبطته بشخصية الخليفة، وهو ينثر أبياته في عزاء المنصور قائلاً:

عيناي ترى واحدة مســـرورة   بأميرها جذلى وأخرى تذرف
تبكى وتضحك تارة ويسؤوها   ما أنكـرت وسيرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محـرماً   ويســـرها أن قام هذا الأرأف
هلك الخليفة يا آل أمة أحمـد   واتاكـم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة   ولذلك جنـات النعيم تزخرف [٣]

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٢٥/٣.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، بيروت ٢٠٠٣، ص ٢٧٢.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٩٢/٥.

سياسته الداخلية

سياسته مع الرعية

لم يكن إعلان البيعة وخطبة الخليفة سوى البداية، التي حملت تباشير التغيير الذي مس كافة جوانب الحياة في عهد المهدي، بحيث أصبح السمة البارزة لخلافته، إذ استهل عهده بالنظر في أوضاع المسجونين، فأطلق من الحبس كل من أخذ في حياة والده لموقف معارض لحكمه، أو لتهمة لم تتعدي الريبة والظن!؟ إلا من كان محبوساً في دم، أو كان لأحد عليه مظلمة أو حق، أو كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد[١]. وقد بلغ من عظيم عفوه أنه كان يقرأ مرة في صلاته قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾[٢]. فلما أنهي صلاته أمر حاجبه بإحضار موسى بن جعفر العلوي من الحبسَ. فلما لاقاه قال له: يا موسى إني قرأت هذه الآية، فخفت أن أكون قطعت رحمك، فوثق لي أنك لا تخرج علي فقال: نعم! فوثق له فخلاه!! وكان لهذا الإجراء أثره السريع في تطييب خواطر المفرج عنهم، وقد زاد من إحسانه إليهم أنه كان يأمر لهم بالجوائز والصلات والأرزاق، وهو ما كان يتعدى أثره ولا شك أهاليهم[٣].

وهكذا بذل المهدي جهده في سياسة الاسترضاء، حيث أعاد للأمويين وجاهتهم بوصلهم والإحسان إليهم، ومما يذكر في هذا الشأن أن مزينة امرأة مروان بن محمد دخلت على الخيزران - زوج المهدي- وهي في حالة يرثى لها من العوز، فأحسنت الخيزران إليها، ورفع أمرها للمهدي فبكى لها واستدعاها ورحب بها وعرض عليها السكنى مع أهل بيته في القصر فقبلت، ثم مازال في إحسانه إليها بالخدم والأموال والأراضي، حتى امتد بها العمر إلى خلافة الرشيد[٤].

والواقع أن وفرة المال لدى الخلافة كان عوناً للمهدي في نجاح سياسته الرامية لكسب ود الرعية، لكن ذلك كان مقترناً ولاشك بفضيلة السخاء التي ميزته عن والده، يذكر أنه لما استخرج ما ادخره أبوه من الذهب والفضة، وكان كثيراً جداً،

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٢٧/٣.

(٢) سورة محمد، الآية ٢٢.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٢٩/٣.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ٣٢٣/٣-٣٢٥.

بحيث لا يعد ولا يحصى، فرقه بين الناس ولم يعطِ أهله ولا مواليه شيئاً، لكنه قرر لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم، وأعطي لكل واحد خمسمائة درهم في الشهر[١].

ولما شكى إليه سدنه الكعبة خوفهم أن تهدم لثقل ما عليها من الكسوة، أمر أن تجرد تماماً وتكسي بأفخر الكسوة، ثم صرف الأموال الضخمة في مكة على مصارف الخير، فكان من ذلك ألف ألف درهم حملها معه من العراق، وثلاثمائة ألف دينار جاءته من مصر، وألف دينار جاءته من اليمن[٢]، وامتد عطاء المهدي لأهل مكة ففرق عليهم مائة وخمسين ألف ثوب[٣]، وجد في استرضائهم بعد أن كان المنصور قد عاملهم بشدة؛ بسبب مساندتهم لخصمه محمد النفس الزكية. فوزع عليهم الأموال الطائلة، وأمر بإعادة حمل الحبوب والغلال إليهم من مصر والشام، وضم إلى حرسه الخاص بعض الجند الحجازية، ووسع المسجد الحرام والمسجد النبوي[٤].

ومضي المهدي في طي صفحة الماضي وما احتوته من شبه قطيعة مع بعض الأقاليم، فعمل على اكتساب مودة أهل الشام، فزار بيت المقدس ودمشق، وحاول التوفيق بين القبائل الشامية وفرق الأموال بينهم. وضمن سياسة الاسترضاء تلك كان المهدي حريصاً على إعادة الحقوق لأهلها، يذكر أنه لما ولي الخلافة نظر في « دفتر القبوض «؛ حيث كان المنصور يسجل ما أخذه من أموال الناس على سبيل المصادرة، فأمر بردها لأصحابها دون تأخير، معللاً ذلك بوصية والده له إذ قال: » يابني! إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجباية والمصادرة وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده إلى أربابه، ليدعو لك الناس ويحبوك!»[٥].

والحق أن المهدي لم يكن بحاجة لمثل هذا التوجيه، فشخصيته المتدينة كانت مبعثاً لسلوكه الحسن، حيث حمله ذلك على الجلوس بنفسه للمظالم، وإحضار القضاة ليشركهم معه في النظر فيها، ولم يكن ذلك يمنعه لينصف الناس حتى من نفسه، وكان يقول: « لو لم يكن ردي للمظالم إلا حياءً منهم لكفي « وقد بلغ من حرصه

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٥٢/١٠.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ١٣٣/٨.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٧٥/٥.

(٥) ابن طباطبا، الفخري، ص ١١٥.

في وصول شكايات المظلومين إليه أن اتخذ لنفسه غرفة لها شبك حديد، يطرح فيه أصحاب الشكايات رقاعهم فتجمع وتقدم بين يديه للبت فيها[١].

كان الحس بالمسؤولية عظيماً لدى المهدي، وقد قوى عزيمته في ذلك الخوف من الله واستشعاره عاقبه الذنب ومآل الظالمين، ويبرز هذا الحس المرهف بشكل واضح فيما يروى عن حياة المهدي الخاصة والمتعلقة بسلوكه مع نفسه، إذ لما هاجت ريح سوداء في سماء بغداد جزع منها الناس وظنوا أنها القيامة، ففقد الحجاب الخليفة المهدي، و طفق بعضهم يبحث عنه في غرف القصر، حتى رآه في إحداها ساجداً على التراب يقول: «اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم، ولا تفجع بنا نبينا، اللهم إن كنت أخذت العامة بذنبي فهذه ناصيتي بيدك، فما أتم كلامه حتى انجلت»[٢]. وبمثل هذه النفس التواقة لحب الخير أدار الخليفة المهدي علاقته مع الرعية، فنال محبتهم ورضاهم، وكسب ولاءهم لدولته وتقديرهم لشخصيته.

ترتيب أوضاع الدولة الداخلية

كان للعلاقة الطيبة التي قامت بين الخليفة والرعية أثرها الحسن على استقرار الدولة ودعم اتجاهها نحو تنظيم شؤونها المالية والإدارية على نحو خدم الطرفين، حيث كان لمنصب الوزارة دوره الحيوي في توجيه مشاريع الخلافة، الأمر الذي أكسب الوزير ثقة الخليفة، ومن ثم تفويض الأمور كلها إليه[٣]. ونظراً لاتساع الدولة وبعد أقاليمها عن بعضها، تم استحداث العمل بنظام دواوين الأزمة لمساعدة الوزير في ضبط شؤون الدولة وتصريف أمورها، بحيث ولي لكل ديوان منها رجلاً، ليكون حلقة الوصل بينه وبين من يليهم من العمال، وكان ذلك سنة ١٦٢هـ/٧٧٨م[٤]. ومع تطور الإدارة في الدولة واتجاه الخليفة لتقليص صلاحيات الوزراء بسبب خوفه من ازدياد نفوذهم السياسي[٥]، اعتمد الخليفة تأسيس ديوان «زمام الأزمة» ليجعله تحت سلطته المباشرة، في دلالة على المضي قدماً نحو مركزية الإدارة العباسية في بغداد[٦]، ويبدو أن الملاحظة

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ١٥٠/٨.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٠٠/٥.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ١٣٦/٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤٢/٨.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ٢٣٦/٣.

(٦) الجهشياري، الكتاب والوزراء، ص ١٦٦.

التي نقلها الذهبي عن عهده تشير إلى ما يؤكد هذه المنهجية في التعامل الحذر مع العمال، حين قال: «كان كثير التولية والعزل بغير كبير سبب ويباشر الأمور بنفسه»[١]، ومن الواضح أن أسلوبه هذا لم يكن سوى نتاج خبرته التي استحصل عليها بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين وزيريه على التوالى أبي عبد الله بن يسار ١٥٩-١٦٣هـ/٧٧٦-٧٧٩م، ويعقوب بن داود ١٦٣-١٦٦هـ/٧٧٩-٧٨٢[٢].

ومع هذا، فإن المهدي ظل محتفظاً بحب الرعية له، فلم يعسر عليهم أمر معيشتهم، حيث أجرى الأموال على المجذومين وأهل السجون في جميع أرجاء الدولة، كما أجرى على العميان والضعفاء وأنشأ دوراً للمرضى[٣]، وأتم بناء مستودعات للمياه بين العراق ومكة، وأقام المنازل، ووسع القصور، وحفر الآبار[٤].

وإلى جانب ذلك؛ فإن المهدي التزم التخفيف على الرعية في أمر الجباية، فاستبدل الخراج النقدي المقرر على المساحة في الزروع والغلات بنظام المقاسمة، حيث حددت النسبة تبعاً لكيفية السقيا[٥].

كما أظهر المهدي قدراً من المرونة في التعامل مع المشاكل التي كانت تنشأ بسبب الخراج، حيث أذن لوالي فارس أن يأخذه من أهلها مقسطاً، فيما ألغى ما كان يستوفيه الوالي من خراج الشجر، نظراً لوطأته الثقيلة عليهم، وضمن مراعاة الخليفة لأحوال الرعية وصونه لكرامتهم كتب إلى عماله برفع العذاب عن أهل الخراج، ممن كان يمتنع أو يظهر المراوغة عن السداد لخزينة الدولة[٦].

موقفه من الحركات الهدامة

محاربة الزنادقة

رأينا كيف أن العباسيين في بدء نشاطهم السياسي كانوا مستثمرين بارعين لسخط التيارات الفارسية المناوئة لحكم الأمويين؛ وذلك من أجل إنجاح قيام دولتهم، فلما تم

(١) سير أعلام النبلاء، ٤٠٢/٧.

(٢) الجهشياري، الكتاب والوزراء، ص ١٦٦.

(٣) المقدسي، البدء والتاريخ، ٩٦/٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٣٤/٦.

(٥) الماردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، الكويت ١٩٨٩، ص ١٠٧.

(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٥٦.

لهم ما أرادوا أظهروا قدراً من التساهل تجاه عديد منها، رغم تبنيها لعقائد ومذاهب مجوسية!!، حيث كان لاعتقادهم بخلو تلك التيارات من أي محتوي سياسي سلبي تجاه الدولة أثره في التغافل عنها. الأمر الذي أتاح لها ظرفاً من الاستقرار، تمكنت من خلاله في إحياء نشاطها، والترويج له، بما يتناسب مع الواقع الذي تعيشه.

على أن مصادمة هذه التيارات للدولة العباسية زمن المنصور ساهم في التنبيه إلى النوايا الحقيقية التي كانت تخفيها تلك التيارات المتذرعة بميولها العباسية!! الأمر الذي أعاد البصيرة للخلافة، وجعلها أكثر تمسكاً بعقيدة أهل السنة والجماعة، وكان من الواضح أن تلك التيارات لم تكن لترضى عن هذا الاختيار، ولذا سعت لمواجهة ذلك عبر الترويج لثقافة التحلل والانحراف عن العقيدة، ولم يكن ليتم هذا إلا من خلال تسهيل وصول تراث الفرس بما فيه من ديانات وعادات للخاصة والعامة على حد سواء. وكان من صور تأثيرات ذلك على المجتمع الإسلامي أن أظهر قوم المجون والفسق، الأمر الذي أثار حفيظة الناس فأطلقوا عليهم لقب الزنادقة(١)، وهي تسمية ارتبطت بالذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر(٢).

وقد شعر المهدي بعد أمد بخطورة هؤلاء على الدولة، وعلى عقيدة الأمة المكونة لها، خاصة بعد أن انتشرت دعوتهم للفجور والإباحة والاستهتار والتعرض للدين، في وضع استغلت فيه أجواء التسامح والعفو التي أشاعها عدل الخليفة وانفتاحه على رعيته(٣)!!.

وكان لزاماً على المهدي حينئذ أن يتخذ موقفاً آخراً مغايراً يتسم بالصرامة والحسم، حيث أنشأ إدارة مستقلة بالزنادقة، عهد فيها لأحد رجاله الثقات بتتبعهم والفحص عنهم والقضاء عليهم(٤)، وتشير إحدي روايات المسعودي إلى أن المهدي: «أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعتقادهم

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١١، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٥٠، ص٧١.

(٢) ابن النديم، الفهرست، طهران ١٩٧١، ص ٤٦٨- ٤٧٠.

(٣) للوقوف على طبيعة هذه الحركات وجذورها انظر: فتحي أبو سيف، الجذور الفكرية لحركة الشعوبية الإيرانية، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٠- ٣٢؛
Omar، f.، " A point of View on the Nature of the Iranian Revolts in the early Abbasid Period "، ***Islamic Culture***، 48 (1974)، pp.1-9.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ٣/ ٧٢.

في خلافته، لما انتشر من كتب المانوية[١]، والديصانية[٢]، والمَرقيونية[٣]، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره، وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية، فكثر بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس. وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شبه الملحدين، فأوضحوا الحق للشاكين»[٤].

وتكشف إحدي النصوص التاريخية مدى إلمام المهدي بطبيعة الزندقة وما ترمي إليه، وهو ما يدل على وعي بالتيارات والمذاهب المختلفة، واستبطان واضح لحقيقتها وتطورها في المجتمع، إذ يذكر الطبري: «أن المهدي قال لموسى يوماً وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه: يابني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة؛ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فأرفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين»[٥].

ومن الواضح أن تكوين المهدي الثقافي والديني، وشعوره بدوره التاريخي، كان عاملاً أساسياً في بلورة موقفه من حركة الزنادقة على هذا النحو الحاسم، الذي ساهم كثيراً في وئد تطلعاتهم وكشف حيلهم، وهو ما وحد المجتمع المسلم ضدهم، وجيَّش أقلام العلماء والأدباء على نحو جعل الزنادقة موضعاً للاستخفاف والذم. ولعل في

(١) المانوية: نسبة إلى ماني بن بابك، وهي عقيدة فارسية مجوسية قديمة، تقوم على تناسخ الأرواح، وغيرها من البدع والضلالات. انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٧١.

(٢) الديصانية: تنسب إلى رجل يدعي ديصان، وهي عقيدة تقوم على أن النور والظلام هما أساس كل شيئ في الحياة، والنور هو مصدر الخير، والظلام هو مصدر الشر. انظر: ابن النديم، الفهرست، ص٤٧٤.

(٣) المرقيونية: تنسب إلى رجل من آسيا الصغري يسمى مرقيون، وكان مسيحياً أرثوذكسياً، وعقيدته مزيج من المسيحية والثنائية التي تجمع بين النور والظلمة. انظر: الشهرستاني، تحقيق: على حسن قاعود، بيروت ١٩٨٨، ص٢٧٩.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ٤٠١/٢.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤٨/٨.

تصوير الجاحظ لحراك الزنادقة المتلبس بالثقافة عبر التأليف، ما يتيح للدارسين مزيداً من الفهم والتبصر حول أساليبهم في تغييب الفكر والثقافة وتمييع المواقف وتجزئة القيم للحد الذي يسمح بإفراز جيل ممسوخ الهوية، معدوم الكرامة، مضطرب الشخصية. يحدث الجاحظ عن ذلك فيقول: «والذي يدل على ما قلنا، أنه ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، وجلَّ ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد، وكله هذر وعي وخرافة وسخرية وتكذيب، لا تري فيه موعظة حسنة، ولا حديثاً مونقاً، ولا تدبير معاش، ولا سياسة عامة، ولا ترتيب خاصة، فأي كتاب أجهل، وأي تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة، والنجوع بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين؟! والناس لا يحبون إلا ديناً او دنيا: فأما الدنيا فإقامة سوقها، وإحضار نفعها؛ وأما الدين فأقل ما يطمع في استجابة العامة، واستمالة الخاصة، أن يصور في صورة مغلطة، ويموه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذي لا يغلط فيه الكثير، ويعرف حقيقته القليل، فليس إنفاقهم عليها من حيث ظننت. وكل دين يكون أظهر اختلافاً وأكثر فساداً، يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له، والتغليظ فيه إلى أكثر. وقد علمنا أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تعبداً. فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده، واحتفالهم في إظهار تعليمه»[1].

حركة المقنع ١٥٩-١٦٣هـ/٧٧٥-٧٧٩م

تكاد معظم الثورات والحركات التي ظهرت أوائل العصر العباسي متصلة الحلقات، مترابطة الغايات يجمعها محاربة الإسلام وبغض الدولة العباسية[2]، وليست حركة المقنع سوى واحدة من بينها. حيث كان المقنع في بدء أمره يعتقد بقول طائفة من الكيسانية يقال لهم الرزامية، يرون أن الإمامة انتقلت من أبي هاشم بن محمد الحنفية إلى الفرع العباسي، حتى وصلت لأبي العباس السفاح، ومنه إلى أبي مسلم الخراساني، الذي جعلته طائفة منهم إلهاً، ينتظرون عودته، بزعم أن روح الله قد حلت فيه[3]!!

(١) الحيوان، ج١، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٥، ص ٥٧-٥٨.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، تحقيق: محمد عبد القادر، مصطفى عبد القادر، بيروت ١٩٩٢، ص ١١٠-١١١.

(٣) النونجتي، فرق الشيعة، تحقيق: عبد المنعم الحفني، القاهرة ١٩٩٢، ص ٤٢-٤٣؛ الشهرستاني الملل والنحل، ١/ ٢٠٥-٢٠٧.

ولاشك أن مثل هذه الاعتقادات تقوي قلوب الطامعين في الإفساد، فتجرهم على الابتداع ليسهل عليهم الإيقاع بالعامة السذج، ومن ثم جعلهم مادة أية ثورة أو حركة. ولم يكن المقنع سوى واحداً من هؤلاء الذين استغلوا القول بالإمامة، لينتهي بها في إدعاء الحلول والتناسخ، فزعم أن الله - سبحانه وتعالى- انتقل إلى صورته هو، فدعا الناس إلى تأليهه، واضعاً قناعاً من ذهب ليخفي ملامح وجهه القبيحة، مدعياً للناس: «أنه وضعه ليحجب الذات الإلهية التي تجسدت فيه عن عيونهم الدنسة»[١].

ولكي يجذب المقنع مزيداً من السفلة لدعوته جاهر أتباعه بإباحة «الأموال والفروج، وشرع لهم جميع ما أتي به مزدك»، واتسع في مباينة الإسلام حتى «أباح لأتباعه المحرمات، وحرم عليهم القول بالتحريم، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائرالعبادات»[٢].

ويبدو أن دعوة المقنع لاقت قبولاً لدى العناصر الساخطة على الدولة العباسية، وعلى الأخص أولئك الذين فقدوا امتدادهم المؤثر والمساهم في بناء دولة بني العباس ألا وهم الفرس[٣]، ولذا سرعان ما أعلنت قطاعات منهم الانضمام إلى جانب المقنع في بخاري والصغد، إلا أن ذلك لم يكن كافياً في نظر المقنع لمواجهة الخلافة؛ مما دفعه لطلب العون من خاقان الترك[٤]. ولم يمضِ كثير وقت حتى ضيق المقنع على من حوله من المسلمين، فقطع طرق القوافل، ونهبَ القرى، وسبى الأبناء فاضطربت الأحوال، وعمَّ البلاء وسادت الفوضي خراسان، حتى توالى عليها أربعة من الولاة[٥]، مما ساهم في مضاعفة مخاطر المقنع وأتباعه، إذْ شكل انتقال مركزه من مرو وخراسان إلى ما وراء النهر، واتخاذه لقلعة حصينة بين الجبال[٦]- شكل ذلك - نقطة استقطاب للمناوئين لسلطة الدولة، وهو ما أطال من عمر الحركة وشجعها أكثر في تحدي الخلافة. غير أن العام ١٦٣هـ/٧٧٩م كان حداً فاصلاً في لجم تطلعات الحركة، حيث كان لإشراف أمير خراسان الشخصي على سير المعارك وتوزيع الجيوش دوره في تمزيق وحدة أتباع

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٩٢/٥.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٤٣.

(٣) ابن طباطبا، الفخري، ص ٢٣؛ ابن الأثير، الكامل ١٣/٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل ١٣/٦.

(٥) النرشخي، تاريخ بخارى، ترجمة وتحقيق: أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله مبشر الطرازي، القاهرة ١٩٦٥، ص ٩٤-١٠٤.

(٦) البغدادي، الفرق، ص٢٤٤؛ ابن الأثير، الكامل، ١٤/٦.

المقنع[١]، تلك الوحدة التي بنيت على الخداع والوهم والمصالح الشخصية، والتي لم يحل دون تفككها وإخفاقها ارتباط أتباعها بالعداء للإسلام.

وعلى الرغم من أن حركة المقنع لم تحقق هدفها؛ في القضاء على النفوذ، فإنها زادت الفتنة وأثارت جدلاً، هيأ له المقنع ذاته، بما قيل: إنه وعد أصحابه «أن تتحول روحه إلى قالب رجل أشمط على برذون أشهب، وأنه يعود إليهم بعد كذا سنة ويملكهم الأرض. فهم بعد ينتظرونه»[٢]، ولأجل ذلك؛ كان المقنع بحاجة لنهاية يغرر بها أتباعه بعد مماته، ويتوج بها نيران أحقاده، فلم يجد بعد أن أوشكت قلعته في السقوط بيد المسلمين - سوى أن يؤجج ناراً في التنور؛ ليلقي بنفسه فيها[٣]!!

لقد كانت الخلافة على الأرجح مستوعبة لحجم حركة المقنع، ولذا تركت لأمير خراسان مهمة القضاء عليها، دون أن تتوجه بجهدها الكامل، ومن هنا لا نجد بين الروايات ما يشير إلى انشغال المهدي بأمر تلك الحركة واستشعاره لخطورتها، رغم ما سببته من إشكالات في المحيط الذي ظهرت فيه.

سياسته الخارجية

مع البيزنطيين

سار المهدي على نهج والده، فيما يخص سياسته تجاه البيزنطيين، فاهتم بتحصين الثغور وزيادة المقاتلين فيها، كما استمر في إرسال الصوائف التي تغزو المدن البيزنطية، ومن ذلك الصائفة التي أرسلها عام ١٥٩هـ/٧٧٥م، وقامت بالتوغل في الأراضي البيزنطية حتى وصلت مدينة أنقرة[٤]. وكذلك الصائفة التي أرسلها عام ١٦٢هـ/٧٧٨م، وكانت حملة ضخمة تجاوز عددها ثلاثين ألف مقاتل عدا المطوعة، وقامت هذه الحملة بمهاجمة بعض المدن البيزنطية الثغرية، وقام بتخريبها، لكن الحملة على ضخامتها لم تفتح أي حصن[٥].

---

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٩٤- ١٢٤.

(٢) البغدادي، الفرق ، ص ٢٤٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ١٨/٦.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٧٦.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ١١٦/٨.

ولم يتوان المهدي في الرد على أي هجوم يقوم به الجانب البيزنطي، فخلال عام ١٦٣هـ/٧٧٩م قام الإمبراطور البيزنطي (ليو الرابع) بمهاجمة بعض الثغور الإسلامية، ودمر بعض مدنها، وسبى الكثير من أهلها. فأمر المهدي بتجهيز جيش كبير، وخرج بنفسه على رأس الجيش، ومعه ابنه هارون الرشيد، وهاجموا المناطق البيزنطية، حتى طلب البيزنطيون الصلح[١].

وواصل المهدي اعتماده على ابنه هارون في مواجهة البيزنطيين، فأرسله في حملة أخرى عام ١٦٤هـ/٧٨٠م، ونجحت الحملة في التقدم داخل الاراضي البيزنطية حتى وصلت شواطئ البسفور، فطلبت الإمبراطورة (إيريني) الصلح، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات، على أن تدفع الإمبراطورة البيزنطية جزية سنوية مقدارها تسعون ألف دينار، وأن تجهز الجيش بالأدلاء، وتسهل له التموين في طريق الرجعة[٢].

مع الهند

بدأت علاقة المهدي بالهند حين هاجم القراصنة الهنود السفن التجارية الإسلامية في أثناء مرورها بالسواحل الهندية، مما جعل المهدي يرسل حملة بحرية بقيادة عبد الملك المسمعي قائد الأسطول العباسي في المياه الشرقية، وقد هاجمت تلك الحملة تجمعات القراصنة على السواحل الهندية الغربية، حيث حققت نجاحاً ملحوظاً، لكن عبد الملك لم يكتب له أن يستمتع طويلاً بهذا النجاح، إذ يبدو أنه لم يضع في حسبانه تقلب الظروف الجوية وأثر الرياح الموسمية العاتية، مما أدي لغرق كثير من سفن الحملة، كما لقى كثير من جنود الحملة حتفهم نتيجة تفشي وباء غريب بينهم[٣].

ولم تكن تلك النهاية المفجعة هي خاتمة العلاقات العباسية بالهند خلال عهد المهدي إذ أن هناك ثمة إشارة غير مباشرة عن وجود علاقات ودية بين المهدي وإحدي الممالك الهندية، وتلك الإشارة نجدها لدى المؤرخ الغربي أينهارد في حديثه عن الهدية

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٢٩/٣.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ١٥٢/٨؛ عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص٩٥.

(٣) الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٠، ج١، ص ٢٣٣

التي أرسلها هارون الرشيد للإمبراطور الكارولنجي شارلمان[١]، إذ يذكر أن من بين محتويات تلك الهدية فيل هندي سبق أن أهداه أحد الملوك الهنود لوالده المهدي.

وتفصح تلك الإشارة عن وجود علاقات ودية بين الدولة العباسية وتلك المملكة الهندية، كان من ثمارها تلك الهدية للمهدي، والتي شملت ذلك الفيل، والأرجح أن تلك المملكة هي مملكة البالاس في البنغال، إذ إن لتلك الهدية مثيلاتها في الفترات اللاحقة بين ملوك البالاس[٢] والخلفاء العباسيين، وترمز تلك الهدايا إلى العلاقات الودية التي ربطت بين الطرفين، وعلى ذلك كان هذا الملك هو دهارمابالا.

أما عن ملابسات هذا التقارب بين الطرفين خلال عهد المهدي فتبدوا جلية فيما رواه سليمان التاجر[٣] من أن: «أهل الهند مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة؛ فأول من يعدون من الأربعة ملك العرب، وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه، أنه أعظم الملوك، وأكثرهم مالاً، وأبهاهم جمالاً، وأنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء ..».

ونص سليمان هنا يفصح عن الاحترام الذي يكنه الهنود، بما فيهم ملوكهم للخليفة العباسي، ولعل ما يؤكد ذلك ما ذكره في موضع آخر؛ من أن حاكم مملكة قنوج - رغم كراهيته للعرب - إلا أنه مقر أن ملك العرب أعظم الملوك يضاف لذلك الدافع الاقتصادي المتمثل في التبادل التجاري القوي بين التجار المسلمين ومنطقة البنغال، والذي كان يسبب رواجاً كبيراً هناك، وكان من صالح حكام البنغال دعم هذا التقارب التجاري عن طريق التقارب السياسي.

---

(١) عن تلك الهدية انظر، اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٨، ص ١٠٧.
Pirenne، H.، Mohammed and Charlemagne، (London، 1958)، p.160; Schmidt، F.، " Karl der Gross und Harun al Rashid "، ***DER ISLAM*** III، (1912)، pp.409-411; Strohmaier، G.، " Abu l'Abas der elelfant Karls des Grossen "، ***mitteilunge des institutus fur orientforschung*** 17، (1971-2)، pp.365-358.

(٢) تقع تلك المملكة في أقصى شرق الهند، وتحديداً في منطقة البنغال Pengal، ظهرت مملكة البالاس Palas التي أسسها جوبالا Gopala عام ١٣٢هـ عندما جرى تنصيبه ملكاً من جانب نبلاء المنطقة، وخلفه ابنه دهرمابالا Dharmapala الذي حكم حتى عام ١٩٤هـ/٨١٠م. ولمزيد عنها انظر: Chandra، S.، Medieval India، (New Delhi، 1999)، pp.8 – 9.

(٣) أخبار الصين والهند، نشر جان سوفاجيه، باريس ١٩٤٨، ص ١١- ١٢.

ولاية عهد المهدي

لم تكن سياسة المهدي نشازاً عن سياسة والده، الرامية لبقاء الخلافة في عقبه، حيث كانت الوراثة السمة البارزة وعنصر الاستمرار في السلطة العباسية، ولعل الفارق بين الاثنين في مسألة ولاية العهد؛ هو أن المهدي وضع حداً نهائياً لموضوع الخليفة المؤجل عيسى بن موسى، الذي لم يعد قادراً على مقاومة وسائل الضغط السياسي تجاهه، مثل مخاطبة المهدي له: «إن لم تجبني إلى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحل به العاصي، وإن أجبتني عوضتك منها ما هو أجدي عليك وأعجل نفعاً»، حيث حمله ذلك على خلع نفسه والمبادرة بمبايعة غيره، مؤثراً السلامة والعافية، فيما لم يتردد الخليفة في وصله بعشرة آلاف ألف درهم، وقيل عشرين ألف ألف درهم وقطائع كثيرة[1].

ومهما يكن من أمر الضغوطات التي مورست مع عيسى بن موسى، منذ أن كان ولياً لعهد المنصور حتى خلع نفسه منها في عهد المهدي، فإن شخصيته تبدو ميالة للمسالمة والموادعة، ولولا ذلك لاستغل الظروف القاسية التي أحاطت بالدولة في فترات متقطعة من عمرها ليدبر لنفسه أمر الخلافة، وهو لو فعل لوجد من المبررات ما يستقطب به مراكز القوي في الدولة.

لقد وضعت بيعتا الهادي وهارون بولاية العهد، الأنموذج الملائم والتقليدي للصيغة التي ارتضاها الخليفة المهدي؛ اعتقاداً منه بالتسوية بين ابنيه في أمر الخلافة، ولئن استقامت له الأمور في حياته دون ظهور بوادر الشقاق بين الأخوين، فإنها سرعان ما برزت على السطح لتؤذن بما لا تحمد عقباه!! ويبدو أن وفاة المهدي المفاجئة عام ١٦٩هـ/٧٨٥م، بسبب ما قيل من أن إحدى جواريه وضعت سماً لجاريه أخرى فأكل منه فمات. وفي رواية أخرى: كانت وفاته بسبب اصطدامه بباب خربة أثناء ممارسة رياضة صيد الغزلان!!. ويبدو أن قصر فترة حكمه لم تتح له القدر الكافي من الروية وحسن التصرف، وهو ما نلمح بعضاً من آثاره في محاولته التراجع عن تقديم الهادي على هارون، دون أن يحالفه النجاح[2]!!؟

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ١٢٥/٨.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل ، ١٦٨/٨-١٧٠.

الفصل الرابع
خلافتا الهادي وهارون الرشيد

خلافة الهادي ١٦٩- ١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م

شخصية الهادي

ولد الهادي موسى بن محمد المهدي بن جعفر المنصور بالري سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م، إبان ولاية أبيه لجده المنصور، من أم ولد تدعى الخيزران بنت عطاء، اشتراها والده من نخاس، واعتقها ثم تزوجها فولدت له الهادي وهارون[١].

كان الهادي «طويلاً جسيماً جميلاً أبيض، مشرباً حمرة»[٢]، تكاد الروايات تتفق فيما بينها على مجمل صفاته، فالمسعودي يقول عنه: «كان موسى قاسي القلب، شرس الخلق، صعب المرام، كثير الأدب محباً له، وكان شديداً، شجاعاً، جواداً سخياً»[٣]. ويذكر عنه ابن شاكر الكتبي أنه: «كان شجاعاً بطلاً أديباً جواداً صعب المرام، يلهو ويلعب ويركب حماراً فارهاً، ولا يقيم أبهة الخلافة، وكان فصيحاً قادراً على الكلام، تعلوه هيبة وله سطوة»[٤]. ويزيد الذهبي: «وكان يشرب المسكر، وفيه ظلم وشهامة»[٥]. غير أننا نلمح جوانب أخرى من شخصيته، يظهر فيها ميله للعفو وحب الصلح[٦]، وغيرته الشديدة[٧]، مع تدين وصلاح[٨]!! وهي مفارقات واضحة!؟ وفي كل الأحوال كان بعض ما جاء في ترجمتة من مساوي قديعزوإلىصغرسنه، وسعة ما عاشته الدولة في عصره من ترف ونعيم[٩].

(١) ابن كثير، البداية، ١٥٩/١٠.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٢١٤/٨.

(٣) مروج الذهب، ٣٣٥/٣

(٤) فوات الوفيات، ج٤، تحقيق: إحسان عباس، القاهرة ١٩٦٥، ص١٧٤.

(٥) سير أعلام النبلاء، ٤٤٢/٧.

(٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٢٣/١٣.

(٧) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٢١/٨-٢٢٢.

(٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٢٣/١٢.

(٩) الأصفهاني، الأغاني، ٦/٥.

وقد ارتبط اسم الهادي بالخلافة بعد وفاة والده المفاجئة، والتي أحدثت إرباكاً كاد يعصف بالاستقرار الداخلي للدولة، فمع توليه الخلافة شغب الجند، وقاموا بإحراق بعض مقرات الخلافة مطالبين بزيادة العطاء، ولم يتوقفوا إلا بعد أن صرف لهم الوزير الربيع بن يونس ما يعادل السنتين من مرتباتهم ليرضيهم[١]!!؟ ومع عودة الاستقرار، تهيأت بغداد لاستقبال الهادي القادم على وجه السرعة من جرجان، حيث كان يحارب أهل طبرستان، فبلغها في عشرين يوماً، وقام في الناس خطيباً، وأخذ البيعة منهم. ومن الواضح أن الهادي استطاع أن يمسك بزمام الأمور، وأن يهيئ الأرض للخطبة لتحذير علاقته مع رجال الدولة، رغم سخطه على بعض من خدم والده بسبب مخالفتهم له، أو تصرفهم دون الرجوع إليه، حيث عفا عنهم، وزادهم إكراماً بإبقائهم في مناصبهم التي كانوا يلونها[٢]، ولا ريب أن هذا الموقف أفضى إلى تفاهم مشترك في إدارة شؤون الخلافة، الأمر الذي حال دون اضطراب الأوضاع.

غير أن ثمة قواعد كان الخليفة حريصاً على بيانها في علاقاته مع المحيطين به، في وقت كان لا يزال الحكم في أوج مركزيته السياسية، حيث قال لوزيره: « لا تحجب عني الناس، فإن ذلك يزيل عني البركة، ولا تلقوا إلى أمراً إذا كشفته أصبتهُ باطلاً، فإن ذلك يوقع الملك، ويضر بالرعية»[٣]. ويظهر أن تلك القواعد ظلت محل اعتبار وتقدير من قبل الوزراء، الذين كانوا يحرصون على تذكير الخليفة ببعضها، كلما أدركه الانشغال عنها!!

يروى أن وزيره اعترض موكب الخليفة وهو في الطريق لعيادة أمه الخيزران من علة كانت وجدتها، فقال له: « يا أمير المؤمنين، ألا أدلك على وجه هو أعوذ عليك من هذا؟ فقال: وما هو يا عمر؟ قال: المظالم لم تنظر فيها منذ ثلاث، قال: فأومأ إلى المُطرقة - حرس خاص يحملون المطارق الحديدية- أن يميلوا إلى دار المظالم، ثم بعث إلى الخيزران بخادم يعتذر إليها من تخلفه، وقال: قل لها إن عمر بن بزيع أخبرنا من حق الله بما هو أوجب علينا من حقك، فملنا إليه ونحن عائدون إليك في غد إن شاء الله»[٤]. وكان من الطبيعي أن يشغل المحيطون بالخليفة الدور البارز في الدولة، وعلى نحو يسمح لهم في تدعيم مراكزهم وتقوية نفوذهم، على أن الخوف من سطوة الخليفة

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ١٨٧/٨-١٨٨.

(٢) ابن طباطبا، الفخري، ١٨٩-١٩٠.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٢١٧/٨.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٢١٥/٨-٢٣٦.

وشخصيته كانا يدفعهم للبحث عن وسائل أخرى لتمرير حاجاتهم، من هنا كانت أم الهادي الخيزران مقصد رجالات الدولة كما العامة، وهو ما أزعج الخليفة الغيور على محارمه، ليستخدم نفوذه في لجم تدخلات أمه في شؤون الخلافة، في صورة لا تخلو من العنف والقسوة، مع ما فيها من مخالفة البر والقيم بحقوق الأمهات. يروي المسعودي فيقول: «كان الهادي كثير الطاعة لأمه الخيزران، مجيباً لها فيما تسأل من الحوائج، فكانت المواكب لا تخلو من بابها...، فكلمته ذات يوم في أمر، فلم يجد في إجابتها فيه سبيلاً، فاعتل عليها بعله، فقالت: لا بد من إجابتي، قال: لا أفعل، قالت: فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب الهادي، وقال: ويل لابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها، والله لا أقضينها لك، قالت: إذن والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذا والله لا أبالي وحمي، وقامت وهي مغضبه، فقال: مكانك فاستوعبي كلامي، وإلا نفيت من قرابتي من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي، أو من خاصتي، أو من خدمي، لأضربن عنقه، ولأقبضه ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك، إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي، فانصرفت وما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلو ولا مر بعدها»[1]. وهكذا لم يتردد الهادي في مخاطبة أصحابه بلهجة متوعدة، إذا خولت نفس أحدهم الدخول على أمه أو الحديث بشأنها[2]!!.

وقد نتساءل هنا؛ عن دور ما حدث بين الهادي وأمه في إسقاط صفات القسوة والشراسة عليه من قبل بعض المؤرخين!!، وإذا كانت جذور المشكلة متصلة أساساً بالخليفة المهدي؛ الذي لم يضع حداً لتجاوزات الخيزران في أمور الدولة، فإن مشكلة أخرى ذات جذور مرتبطة بنظام الخلافة العباسية في ولاية العهد أخذت في البروز، بسبب رغبة الهادي في عزل أخيه هارون لمصلحة ابنه جعفر، ويبدو أن توقيت ذلك لم يكن بعيداً عن آثار العلاقة المتخشبة مع الخيزران!! وفي غمرة ذلك أخذت نقمة الهادي على أخيه هارون تعبيرات شتى، متدرجة من التنقص والإهانة والشتم[3]، حتى طال التهديد بالقتل كاتب أخيه ومربيه يحيى بن خالد[4]. ومع غياب البدائل

(١) مروج الذهب، ٣/٣٣٧-٣٣٨.

(٢) ابن طباطبا، الفخري، ص١٩١.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٨/٢٠٧-٢١٠.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٣/١٣٨.

لوقف المواجهة، كان موت الخليفة الهادي المفاجئ كما والده، السبيل الوحيد الذي وضع حداً انتهت معه آمال الهادي في خلافة أطوال وآمال في ولاية لابنه أمثل. ولم تكن ثمة ما يحول مع تلك النهاية المفاجئة من كثرة القيل والقال حول أسبابها، ففيما يختار الطبري روايتين إحداهما تتهم الأم بقتل ابنها، بعد أن أمرت جواريها بالجلوس على وجهة أثناء مرضه!! تذكر الأخرى مرضه ثم موته[١]، بينما ترد الرواية الثانية دون إشارات لدور الأم لدى اليعقوبي[٢] والمسعودي[٣]. وهو ما نميل إليه لما جبلت عليه الأم فطرياً من حب الأبناء والتضحية من أجلهم.

سياسته الداخلية

موقفه من حركة الزندقة

لم ينقطع الصراع مع الزندقة بموت المهدي، فقد ورث الهادي كراهية والده وأسلوبه في التعامل معها، حيث أسهمت ظروف نشأته في تكريس هذا الاتجاه لديه ، وذلك في أعقاب المواجهات عديدة التي كانت تحصل في بلاط الخلافة مع الزنادقة، والتي بلغ من إثارتها استباحة أحد الزنادقة المنتسبين لبني هاشم عرض ابنته، وحملها منه برغبتها[٤]!!؟ وهي الحادثة التي لم يشأ المهدي أن يطويها دون أن يشرك الهادي في وضع خاتمتها، حيث يروي أن: «المهدي أتي بابن داود بن علي زنديقاً، وأتي بيعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب زنديقا، في جلستين متفرقتين، فقال لكل واحد منهما كلاماً واحداً، وذلك بعد أن أقرا له بالزندقة، أما يعقوب بن الفضل فقال له: أقر بها بيني وبينك، فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل، ولو تقرضني بالمقاريض، فقال له: ويلك! لو كشفت لك السموات، وكان الأمر كما تقول، كنت حقيقاً أن تغضب لمحمد، ولولا محمد - صلى الله عليه وسلم - من كنت! هل كنت إلا إنساناً من الناس! أما والله لولا أني كنت جعلت لله عليَ عهداً إذا

---

(١) تاريخ الرسل، ٢١٢/٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ١٣٨/٣.

(٣) مروج الذهب، ٣٤٣/٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ١٩١/٨.

ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما نظرتك وقتلتك. ثم التفت إلى موسى الهادي، فقال: يا موسى، أقسمت عليك بحقي (!؟) إن وليت هذا الأمر بعدي ألا تناظرهما ساعة واحدة»[١].

بهذا القدر من المعطيات كانت نفس الهادي تواقة لسحق الزندقة، وهكذا جاءت خلافته ليتابع سياسة والده في الاستئصال، والتي بلغ من حرصه عليها أنه لما قدم من جرجان «فساعة دخل، ذكر وصية المهدي، فأرسل إلى يعقوب من ألقي عليه فراشاً، وأقعدت عليه الرجال حتى مات، ثم لهى عنه ببيعته وتشديد خلافته»[٢]. لقد كان الهادي مدركاً لمخاطر تفشي الزندقة في المجتمع، وهو ما جعل قضية مكافحتها في صدر اهتماماته إبان خلافته، وقد جاء تنفيذها مستهدفا في المقام الأول بعض رجالات الدولة، الذين كان لهم الأثر الكبير على العامة، فكان ممن قتلهم أحد الزنادقة كان قد رأى الناس يطوفون حول الكعبة، فقال عنهم: كأنهم بقر تدوس في البيدر!! فوصل أمره للهادي من شاعر قال فيه:

أيا أمين الله في خلقه	ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر	يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا	حمر تدوس البر والبيدر

فقتله وصلبه بمكة أيام الحج[٣].

وهكذا أكسبت الحرب مع الزنادقة طابعاً عملياً، سرعان ما تعزز مع الزمن، ليجعل من ذلك التزاماً قطعته الخلافة أمام الرعية، حفاظاً لها على عقيدتها وأمنها، وفي ذلك يقول الهادي بعد مضي عشرة أشهر من الخلافة: «أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها، حتى لا أترك منها عيناً تطرف»، ويقال: إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع، فقال هذا في شهر كذا ... فمات بعد شهرين[٤].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ١٩٠/٨.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ١٩٠/٨-١٩١.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ١٩٠/٨.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٢٠/٨.

موقفه من التيارات السياسية

باستثناء الزندقة - إذا ما اعتبرناها حركة سياسية - لا نجد إجراءات عملية تكتسب ربع العموم تجاه التيارات السياسية في عهد الخليفة الهادي، وذلك رغم محاولة اليعقوبي تأزيم علاقة الهادي بآل البيت، دون أن يقدم شواهد من سيرته تدعم مقولته «وذلك أن موسى ألح في طلب الطالبيين، وأخافهم خوفاً شديداً، وقطع ما كان المهدي يجريه لهم من الأرزاق والأعطية، وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم»(١).

وقد نجد أصداء أخرى للتأزيم مع الأمويين؛ فيما يسجله المسعودي عن أرق الخليفة ذات ليلة، بسبب ما هيجه ذكر دمائهم التي سفكت على أيدي الأمويين، ليقوم جليسه بدوره في التنفيس عنه بذكر ما أصاب الأمويين على أيدي العباسيين؛ ليسكن غضبه، وترتاح نفسه، ويسر خاطره(٢)!!؟.

وهي رواية قد يكون للحبكة دور منها، إلا أن صداها أخذ في التردد ليحيك منها بعض الباحثين مقولة: إن الخليفة كان يوقع المثلة بالأمويين، ويأخذ أكثرهم بالظنة والريبة(٣). مع أنه لا يوجد في المصادر التي اعتنت بترجمة حياة الهادي ما يشير لحادثة واحدة فقط تدلك على ذلك!!؟.

والواقع أن حدثا بارزاً كان ينتظر خلافة الهادي، لا نستبعد انعكاس تأثيراته على تقييم المؤرخين لموقف الهادي من التيارات السياسية في عهده إما بالتزيد أو التضخيم، أو حتى بإطلاق ألفاظ العموم، ذلك بأن المدينة النبوية كانت قد اضطربت أمورها؛ بسبب سوء تصرف الموالي تجاه نفر أقدموا على شرب النبيذ، فضربهم ثم طوف بهم طرقات المدينة، وأطلقهم بعد أن شفع فيهم الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب، شرط أن يكفل ابن عمه الحسن بن محمد، ويبدو أن تغيب الأمير عن الحضور قد عجل بخروج الحسين؛ إلا أن هذا الخروج لم يقل دعماً من أهل المدينة؛ الذين أذاهم كثيراً امتهان قداسة المسجد النبوي على يد أتباع الحسين وللإساءة إليه!! الأمر الذي دفعهم للتوجه إلى مكة، حيث التقوا الجيش العباسي بالقرب منها،

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٣٧/٣.

(٢) مروج الذهب، ٣٣٨/٣-٣٣٩.

(٣) حسن إبراهيم، تاريخ الاسلام، السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٢، بيروت ١٩٩٦، ص٤٥.

فكانت وقعة فخ قُتل فيها الحسين وعدد من آل بيته، فيما فر إدريس بن عبد الله بن الحسن إلى المغرب ليؤسس هناك دولة الأدارسة[١].

وفي الوقت الذي صب فيه الهادي نقمته على الكوفة؛ بسبب مساعدة بعض أهلها لحركة الحسين، فإنه سخط على بعض قادته؛ لتصرفهم في القتل دون الرجوع إليه[٢]، ولئن صح ما نقل عنه من قوله لمن جاءه برأس الحسين: «أتيتموني تبشرون كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم، إنه رجل من عتره رسول الله - صلى الله عليه وسلم- **ألا إن أقل جزائكم عندي ألا أثيبكم شيئاً**[٣]».

ولئن صح هذا فإنه يتبين أن الهادي لم يكن منطوياً على موقف سياسي غير ودي من الطالبين، وهو ما يدعوا إلى إعادة التفكير بجدية في مقولة اليعقوبي الآنفة الذكر.

لقد استطاع الهادي برغم سنه، وقصر خلافته التي لم تتجاوز الثلاثة عشر شهراً، أن يعرض هيبته ويضبط دولته، على نحو تنامت معه المشاكل الداخلية المعقدة، ويبدوا أن استقلاله بالقرار قد أدى إلى تلاشي دور مراكز النفوذ في الدولة طيلة فترة حكمه، وهو ما يدفع إلى القول باصطفاف تلك المراكز ضده، حيث لم يبق فيها من تحسر على وفاته سوى المغني إسحاق الموصلي؛ الذي يروى عنه أنه قال: «والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا ذهباً»[٤].

خلافة الرشيد ١٧٠- ١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م

شخصية الرشيد

لا يوجد من بين خلفاء بني العباس أكثر من هارون الرشيد شهرة، ولا أزهى من عصره حيوية وندرة، تجتمع في أخباره المتناقضات، حتى يخال الدارس أن حياته مليئة بالمجون والمتعة، فيما يرى في الجانب الآخر دلائل على الصلاح والعفة!!؟

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ١٩٢/٨-٢٠٠؛ الأصبهاني، مقاتل العباسيين، ص ٢٩٠- وما بعدها.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٠٠/٨.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٣٣٧/٣.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ٦/٥.

ولد الرشيد سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م، ونشأ في سنيه الأولى بصحبة أسرته في الري فعاش بين كنف يحيى بن خالد البرمكي، وزوجته التي أرضعته مع ابنيها جعفر والفضل، ثم انتقل إلى بغداد سنة ١٥١هـ/٧٦٨م، لتحطه الرحال بين كبار العلماء في عصره، فينهل من علومهم، وينشأ على معارفهم زمناً، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال تدربه والده إبان خلافته ليرأس جيشاً كامل العدد والعدة، توجه به سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م شمالاً صوب الحدود البيزنطية، حيث تم له كسر شوكتهم وضم بعض قلاعهم. ولم يمض كثير وقت حتى عاود هارون الخروج إلى الحدود؛ ليتوغل في بلاد الروم فيفرض هيبة المسلمين، ويشرف على خليج القسطنطينية، فتصطلح معه الروم على الجزية والهدنة، فيعود بالنصر إلى بغداد ليكافئه والده بلقب الرشيد، ويعقد له ولاية العهد أخيه موسى الهادي، الذي كان شبيهاً له في بعض ملامحه، حيث أرخ له الخطيب البغدادي، بقوله: « كان هارون أبيض طويلاً، مسمناً جميلاً »[(١)]، وأرخ له الذهبي أيضاً بقوله: « وكان ذا فصاحة وعلم وبصر ... وله نظر جيد في الأدب والفقه »[(٢)].

وما لم تستكمله أقلام المؤرخين عن شخصية الرشيد قبل الخلافة، دونته بعد أن تولاها في الليلة التي مات فيها أخوه الهادي[(٣)]، حيث أطنبوا في امتداحه والثناء عليه، فشهد له الخطيب البغدادي، بقوله: « كان يصلي في كل يوم مائة ركعة، إلى أن فارق الدنيا، إلا أن يعرض له علة، وكان يتصدق في كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وكان إذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج في سنة ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة، والكسوة الظاهرة، وكان يقتفي أخلاق المنصور ويعمل بها إلا في العطايا والجوائز، فإنه كان أسنى الناس عطية ابتداء وسؤالاً، وكان لا يضع عنده يد ولا عارفة، وكان لا يؤخر عطاء اليوم إلى عطاء غد، وكان يحب الفقه والفقهاء، ويميل إلى العلماء، ويعظم في صدره الأدب والأدباء، وكان يكره المراء في الدين والجدال، ويقول: إنه لخليق أن لا ينتج خيراً، وكان يصغي إلى المديح ويحبه، ويجزل عليه العطاء[(٤)]. وذكره الذهبي وقال: « كان من أنبل الخلفاء، وأشم الملوك، ذا حج وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي »[(٥)].

---

(١) تاريخ بغداد، ٥/١٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، ٢٨٧/٩.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٣٤٧/٣.

(٤) تاريخ بغداد، ٦/١٤-٧.

(٥) سير أعلام النبلاء، ٢٨٧/٩.

ومع أن شخصية كهذه يغلب عليها الجد إلا أن الخطيب البغدادي - من طريق آخر- يوازن بين ما توافر لهارون الرشيد من وسط التقي فيه الجد والهزل، فيقول: «اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد وهزل، وزراؤه البرامكة لم ير مثلهم سخاء وسروراً، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة كان في عصره كجرير في عصره، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية، وحاجبه الفضل بن الربيع، أتيه الناس وأشدها تعاظماً، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته، وزوجته أم جعفر أرغب الناس في خير، وأسرعهم إلى كل بر، وهي أسرع الناس في معروف، أدخلت الماء إلى الحرم بعد امتناعه من ذلك، إلى أشياء من المعروف»[١].

وخلافاً لأوصاف؛ المديح فإن خبراً في هذا المجال يفيد بأن الناس لم يكونوا راضين عن هارون الرشيد، الأمر الذي عبر عنه أحد علماء عصره وهو يشير إليه أمام تلاميذه يقول: «الناس يكرهون هذا، وما في الأرض أعز علي منه، ولو مات لرأيت أموراً عظاماً»[٢]، وهي مقارنة عجيبة في موقف هذا العالم، قد يفسرها قوله في مناسبة أخرى: «ما من نفس تموت أشد علي موتاً من هارون أمير المؤمنين، ولوددت أن الله زاد في عمره من عمري، فكبر ذلك علينا. فلما مات هارون، وظهرت تلك الفتن، وكان من المأمون ما حمل الناس على أن القرآن مخلوق، قلنا الشيخ كان أعلم بما تكلم به»[٣]. ولعل النعيم والثراء اللذين عاشتهما الدولة وأخبار ما يجرى في العصر من العطايا والهبات قد ألهب حماس العامة، فجعلهم أكثر استيعاباً لتصديق كل شاردة وواردة تدور حول شخصية هارون الرشيد، ومن طبائع النفوس أن تشعر بالغيرة والحسد من كل صاحب نعمة.

سياسته الداخلية

سياسته مع الرعية

منذ اللحظة التي اعتلى فيها الرشيد سدة الحكم، تحدد الإطار العام لسياسته الداخلية، عبر البيان الأول الذي جاء فيه: ... إن الله - جل وعز- استأثر بخليفته

(١) تاريخ بغداد، ١١/١٤.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٨٩/٩.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٢/١٤.

موسى الهادي الإمام، فقبضه إليه، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين رؤوفاً بكم رحيماً، من محسنكم قبولاً، وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً، وهو - أمتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة، وتولاه ما تولي به أولياءه وأهل طاعته - يعدكم من نفسه الرأفة بكم، والرحمة لكم. وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء، مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً، غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحامل باقي ذلك، للدفع عن حريمكم، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار، من العصاة المعارقين إلى بيوت الأموال، حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها، والحال التي كانت عليها، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم مزيداً من إحسانه إليكم، بما جدد لكم من رأي أمير المؤمنين، وتفضل به عليكم، أيده الله بطاعته.

وارغبوا إلى الله له في البقاء، ولكم به في إدامة النعماء، لعلكم ترحمون. وأعطوا صفقة أيمانكم، وقوموا إلى بيعتكم، حاطكم الله وحاط عليكم، وأصلح بكم وعلى أيديكم، وتولاكم ولاية عباده الصالحين »[1].

وقد شكل التحبب إلى الرعية والتقرب إليها بالعطاء والرأفة العامل الأهم في سياسية الرشيد تجاه العامة، وقد مضى الرشيد في هذا الشأن حداً « فأنه لم ير خليفة أسمح منه بالمال»[2]. أما رأفته بالناس وسهره على أمنهم وراحتهم فيدل عليه أنه في إحدي غزواته لبلاد الروم، شكي إليه أحد قادته ما يلقونه من الثلج والبرد بينما الرعية نائمة، فرد عليه قائلاً: « على الرعية المنام وعلينا القيام»!!

وكان من حسن رأفته بالرعية؛ أنه كان يرفق في أمر القضاء، فيختار من القضاة خيرة الناس من ذوي الشرف والحلم، وقد ذكر ابن قتيبة في ذلك أن الرشيد: « أحضر رجلاً ليوليه القضاء فقال له: إني لا أحسن القضاء، ولا أنا فقيه، قال الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قل خطؤه، وأنت رجل تشاور في أمرك، ومن شاور كثر صوابه، وأما الفقه فسيضم إليك من تتفقه به، فولي فما وجدوا فيه مطعناً»[3].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٣١/٨.

(٢) ابن طباطبا، الفخري، ص١٩٣.

(٣) الإمامة والسياسة، ٢٩٨/٢.

وكان من سياسة الرشيد مع العامة؛ أن يتعرض لهم حيثما كان طالباً منهم النصيحة وعارضاً عليهم المساعدة، فقد رأى وهو في الطريق إلى الحج أحد المساكين، فسأله النصح فقال:

هب أن قد ملكت الأرض حراً ودان لك العباد فكان ماذاً
أليس غداً مصيرك جوف قبر ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا

قال الرشيد: أجدت أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالاً وجمالاً فعف في جماله، وواس في ماله، كتب في ديوان الله من الأبرار، فظن أنه يريد شيئاً، فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك، فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه - سبحانه- لا يعطيك وينساني، وها أنا قد عشت عمراً لم تجر علي رزقاً، انصرف لا حاجة لي في جرايتك، قال: هذه ألف دينار خذها. فقال: أرددها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عني فقد آذيتني، فانصرف عنه الرشيد، وقد تصاغرت عنده الدنيا[(١)].

ولم يكن الرشيد ممن يكتفي بسماع أخبار رعيته دون النظر إليها وتفقد أحوالها بنفسه، وهي عادة تشير إلى بلوغ الرشيد درجة عالية في تحمل المسئولية، حيث يلتقي استشعار المحاسبة الذاتية للنفس أمام الله - عز وجل- مع الرحمة التي أودعت في قلبه، حدث الأصمعي فقال: «كنت مع الرشيد في الحج، فمررنا بواد فإذا على شفيره امرأة حسناء بين يديها قصعة وهي تسأل منها، فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها، فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرحمها وبكى، وأمر مسروراً الخادم أن يملأ قصعتها ذهباً، فملأها حتى جعلت تفيض يميناً وشمالا»[(٢)].

وفي نطاق سياسته مع الرعية كان الرشيد حريصاً - ومنذ اللحظات الأولى لخلافته- على إزالة كل ما من شأنه تعكير صفاء تلك العلاقة، ومن ذلك عفوه عن المحكومين والمطاردين، ما عدا الزنادقة، وإعادته المنفيين في بغداد إلى ديارهم، ووضعه العشر الذي كان يؤخذ من أهل السواد بعد النصف، ثم قسمته لهم ذوي

---

(١) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ٣٠٠/٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٢٧/١٠.

القربي بالتساوي بين بني هاشم[١]، ساهم جميعهُ في فك التأزيم وإشاعة أجواء التفاؤل بين الرعية.

سياسته مع الولاة

ليس من شيء يدل على متانة العلاقة بين الرشيد والبرامكة قبل نكبتهم، مثل قوله ليحيى بن خالد حينما تقلد الخلافة: «يا أبت ... قد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، وافرض من رأيت، وأسقط من رأيت، فإني غير ناظر معك في شيء»[٢].

هذا التفويض الكامل ليحيى بن خالد البرمكي في التعيين والخلع؛ لم يعف الرشيد من تبعات المسئولية في عهده مع الولاة باعتباره الخليفة، كما أن عزل الولاة ووضعهم لم يكن ليتم دون أن يكون تحت نظره وسمعه، بل من المؤكد أن الرشيد كان يستخدم صلاحيته خليفةً في إمضاء ما يراه مناسباً، دون أن يترك لوزيره ممارسة عمله بموجب التقليد الآنف الذكر[٣].

على أن ثمة خطوط رئيسية لتلك السياسة لم يكن صانع التعيينات والعزل سواءً كان الخليفة ذاته أو مساعده البرمكي ليغفل عنها؛ كالدلالة على أهلية الوالي وصلاحيته للمنصب، حيث كان الالتزام بكثرة ما يرد إلى بيت المال من خراج، إلى جانب ضمان استقرار الولاية، عاملين حاسمين في اختيار الوالي وبقائه في منصبه، بالإضافة إلى تشعبات أخرى بقيت رهينة سياسة الخليفة وظروف عصره.

وهكذا التقت تلك الخطوط لتصب في مصلحتين أساسيتين للخلافة، كانتا دعامتين مهمتين من دعائم الحكم هما: المال والأمن. وبالنظر للأخبار الواردة في هذا الشأن نلمح محاولات عدة لإيجاد نوع من التوازن بين المطلبين، إلا أن الاصطفاف مع الثاني كان هو الخيار المفضل على الدوام[٤].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٣٤/٨-٢٣٦.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٧٧.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٢٨.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٣١٤/٨.

وضمن هذا الإطار ؛ كانت تلك سياسة هارون الرشيد مع ولاته منذ اللحظة الأولى لخلافته ، حيث أصدر قراره بعزل والي المدينة عمر بن عبد العزيز العمري[١] ، لما قيل عن استفزازه بعض الطالبيين في المدينة ، وما ترتب عليه من تمردهم وعصيانهم في خلافة أخيه الهادي[٢].

ومما يلفت النظر في تلك السياسة ؛ كثرة العزل والتولية ، حيث كانت على النحو التالي :

أولاً : أرمينية : ثمانية عشر والياً[٣].
ثانيا : مكة : ستة عشر والياً[٤].
ثالثا : البصرة : خمسة عشر والياً[٥].
رابعاً : خراسان : اثنا عشر والياً[٦].
خامساً : المدينة : عشرة ولاة[٧].
سادساً : السند : عشرة ولاة[٨].
سابعاً : الكوفة : تسعة ولاة[٩].
ثامناً : أفريقية : سبعة ولاة[١٠].
تاسعاً : اليمن : ستة ولاة[١١].

في حين حظيت بعض الأقاليم بنوع من الاستقرار ، مما أتاح لولاتها فترات أطول من الحكم كمصر والجزيرة مثلاً. ويبدو أن عوامل أخرى كان ينظر لها في تقييم الخليفة لولاته ، منها عدم ثقته في بعض الأحايين لاختيارات البرامكة للولايات ، كما فعل

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٣٣/٨.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ١٩٢/٨-١٩٣.
(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٥٦/٣-١٥٧.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٤٦/٨.
(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٤٦/٨-٣٤٧.
(٦) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٤٧/٨.
(٧) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٤٦/٨.
(٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٤١/٣.
(٩) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٤٦/٨.
(١٠) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٤٢/٣.
(١١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٤٣/٣-١٤٤.

في مصر وخراسان من عزله واليها المعين من قبل الفضل بن يحيى البرامكي[١]. ومنها استجابة الخليفة لشكاوي الأقاليم من ولاتها، كما هو الحاصل في اليمن، وإن كان قد تأبى بعض الشيء، بسبب ما أثاره أهلها من قلاقل[٢]، وكما هو الحاصل في أفريقية، حيث أجابهم لما أرادوا[٣]. على أن من بين أهم العوامل التي كانت كفيلة بإزاحة الوالي عن منصبه ما قد يتردد حول رغبته في خلع الخليفة واقتطاع الولاية عن الدولة، كما في حالة مصر[٤]، أو في حالة خراسان[٥].

وقد يبدو من الغريب حقاً - على كثرة ما جرى من عزل الولاة - أن الخليفة لم يكن يتتبعهم بأي إجراءات يفهم منها سخطه عليهم، أو مسائلته لهم، باستثناء واليه على خراسان علي بن عيسى، الذي اتهمه بالفسق وأكل أموال الناس بغير الحق، مما استلزم معه إخضاعه لخصومه ومصادرة أمواله لمصلحتهم[٦].

على أن الخليفة لم يكن لتفته ملاحظة تصرفات ولاته، الأمر الذي تكشفه مراسلاته معهم، حيث تنوعت موضوعاتها ما بين اهتمام بالأمن، كقوله لوالي خراسان: « داو جرحك لا يتسع »، واهتمام بالاقتصاد في رسالته لواليه على مصر: « احذر أن تخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف، فيأتيك مني ما لا قبل لك به، ومن الله أكثر منه »، واهتمام بالعدل في رسالته لواليه على فارس وأرمينية: « كن مني مثل ليلة البيات »، و « لا أم لك! تثقل بالذنب من لا ذنب له»[٧]!! ومن هنا يتضح أن الخليفة هارون الرشيد كان قادراً على ضبط ولاته ومحاسبتهم على التقصير، ويبدو أن الطابع العام الذي اتسمت به خلافته « كان يحج سنة ويغزو سنة»[٨]، قد انعكس أثره على صلاح ولاته وطمع رعيته في عدله.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٥٥/٨-٢٦١.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٤٣/٣-١٤٤.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٤٢/٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٥٢/٨.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ٣١٥/٨.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٢٦/٨-٣٢٨.

(٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢١٣/٤-٢١٤.

(٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٦/١٤.

المشاكل الداخلية

الخوارج

مر الخوارج بفترة من الركود قبل أن يعودوا لممارسة نشاطهم في العام ١٣٧هـ/٧٥٤م إبان فترة حكم أبي جعفر المنصور[١]، حيث تكاد تنحصر ثوراتهم منذ ذلك الحين وحتى خلافة هارون الرشيد في إقليم الجزيرة المتاخم للعراق من جهة الجنوب، والممتد شمالاً حتى حدود الروم، والذي يضم ضمن ما يحتويه من المدن الموصل والرقة وديار بكر، والتي تسكنها قبائل عربية من ربيعة ومضر[٢].

وتظهر علاقة هذا الإقليم مع حركة الخوارج منذ نشأة فرقة الصفرية[٣] التي قادها صالح بن مسرح، حيث حط رحاله في أرض الموصل والجزيرة؛ لكثرة أتباعه فيها من بني شيبان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م، ولما قتل صالح استخلف مكانه شبيب الشيباني، الذي كان وثيق الصلة بالنصاري لمكان أمه النصرانية[٤]. وإلى جانب الصفرية؛ عرف الإقليم استقرار عناصر من الخوارج الأباضية[٥] في مدينة الرقة[٦].

ولكثرة ما عاني العباسيون من أمر الخوارج؛ اضطروا أن يعينوا قائداً خاصاً يلي أمرهم، وهو «صاحب أمر الخوارج في الجزيرة[٧]»، لكن ذلك لم يساهم في القضاء على حركة الخوارج؛ بسبب ما كانوا يجدونه من مساعدة وقبول بين الأهالي، لما كان في صدورهم من تراكمات سلبية تجاه الحكم العباسي، أفرزتها المعاملة السيئة في عهد أبي العباس؛ من استباحة المدينة وقتل أهلها[٨].

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٨١/٧.

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال، مراجعة: محمد شفيق غربال، القاهرة ١٩٦١، ص ٧٧.

(٣) هي إحدي فرق الخوارج، وينتسبون إلى زياد بن أصفر، ومن عقائدهم: أنهم لايرون ارتكاب الكبيرة موجباً للشرك والكفر، إلاّ فيما إذا لم يرد فيه حدّ كترك الصلاة. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ١٣٧/١.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٨٢/٦.

(٥) وهي فرقة من الخوارج تنتسب لعبد الله بن أباض، من بني قيس الذي خرج زمن مروان بن محمد، ومن عقائدهم: أن مرتكب الكبيرة كافر بالنعمة، وليس كافراً بالملة. ولمزيد عنهم انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ١٥٦/١ وما بعدها.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨، ص١٦٥.

(٧) الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق: علي حبيبة، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٥٨.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ١٨٢/٥.

وهكذا كانت ثورات الخوارج في الجزيرة، تتابعية بين الحين والآخر، فكلما توافرت لهم الفرصة وجدوا السبيل للخروج على سلطة الدولة العباسية، ففي سنة ١٧١هـ/٧٨٧م ثار الخوارج في الموصل، وكان ذلك سبباً في عزل واليها[١]، وفي سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م ثاروا بالقرب من نصبين، وامتد سلطانهم حتى شمل آسد وأرزن ودارا وخلاط، فجبوا منها الأموال وهزموا عسكر الموصل، ومع أن جيش الخلافة تمكن من هزيمتهم في نهاية المطاف[٢]، إلا أن ذلك تم بعد أن كسرت هيبة الدولة، وأصبح من اليسير على أي خارجي أن يعيد الكرة طمعاً في النجاح، الأمر الذي يفسر حدة الصراع الذي قاده بعد ذلك أحد فرسان الموصل، ويدعي العطاف بن سفيان الأزدي سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م، حيث عجز وإلى الموصل عن مقاومته، ووجد من القبول بين الأهالي ما مكنه من البقاء عامين على هذا النحو!! وهو ما حمل الرشيد على السير بنفسه عازماً على الفتك بأهل الموصل، لولا خروج العطاف إلى أرمينية، وعودة أهلها إلى الطاعة[٣].

على أن أخطر الثورات التي أصابت الجزيرة وأنهكتها؛ كانت ثورة الوليد بن طريف الشاري سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م، إذ فتك بعامل الرشيد على نصيبين، وجعل مركزه فيها[٤]، ثم امتد سلطانه إلى أرمينية وأذربيجان. فأرسل إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني الذي اتبع معه سياسة التهدئة؛ أملاً في امتصاص حماسه وتفريغ طاقته حتى يسهل عليه مواجهته واجتثاث ثورته، لكن إلحاح الرشيد عليه في التعجيل بملاقاته قاده إلى مبارزة الوليد إذ تمكن من قتله، وهو ما أدي بدوره إلى انحلال أمره وتفرق الخوارج عنه[٥].

والواقع أن اضطراب الأمور على الرشيد في إقليم الجزيرة استمر حتى ما قبل عام وفاته، وذلك على شكل عدة دفعات من الثورات المتقطعة من سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م، إلى سنة ١٩٢هـ/٨٠٧م. لقد ورث الرشيد أوضاعاً بالغة الصعوبة في إقليم الجزيرة، كانت حصاد السياسات الخاطئة لأسلافه، ومع ذلك؛ فإن هذا الإقليم أظهر ميلاً للتصالح مع الدولة، مما أتاح له عودة الاستقرار والأمان.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٢٨١/٥.

(٢) الأزدي، تاريخ الموصل، ص٢٧٢-٢٧٥.

(٣) الأزدي، تاريخ الموصل، ٢٨٤-٢٨٨.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٥٦/٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٣٠٢/٥.

العلويون

لا تستقيم الأخبار الواردة عن ميل الرشيد للعلويين وإيثاره العافية معهم، مع تلك الأخبار التي تشكك في تدبيره لحوادث اغتيال تعرض لها بعضهم، لمجرد الظن برغبتهم في الخروج عليه والدعوة لأنفسهم!؟ وابتداء فلقد سعي الرشيد - منذ بدء خلافته - لتهدئة خواطر الطالبيين، بعدما أصابهم في واقعة فخ سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م. فأمن الهارب والمستخفي، وعفى عمن سجن منهم، ثم أكرمهم وسيرهم إلى المدينة[١]. وبلغ من إحسانه إليهم أن أخرج لهم الخمس[٢]، وأطلق سراح كل من له صلة بهم من رجالات الدولة، فكان رأس أولئك وزير المهدي يعقوب بن داود[٣]. على أن بذل الأمان للطالبين لم يحل دون خروج يحيى بن عبد الله الحسين وأخيه إدريس، حيث بويع الأول في بلاد الديلم، فيما تمكن الثاني من تأسيس دولة الأدارسة في بلاد المغرب الأقصي.

وكان لخروج يحيى سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م أثره البالغ على نفسية الرشيد، وذلك لبعد بلاد الديلم ومناعتها، إضافة إلى كثرة من التحق به من الناس، مما زاد في شوكته وشد في أزره، الأمر الذي رغب الرشيد في الملاينة والترفق وبذل الأمان ليحيى؛ إن هو عاد للطاعة، وألقي السلاح. وكان للمساعي التي بذلها القائد العباسي الفضل بن يحيى البرمكي أثرها في استجابة يحيى بن عبد الله، فقدم على الرشيد بعد أن كتب له أماناً بخطه، أشهد عليه الفقهاء والقضاة وبني هاشم ومشايخهم[٤]. لكن الرشيد بعد أن أكرمه وأحسن وفادته ارتاب في تصرفاته، فعهد به للفضل بن يحيى الذي بادر بإطلاقه دون معرفة الرشيد، حيث توجه إلى الحجاز، وكان لهذا التصرف أثره في زيادة مخاوف الرشيد، خاصة بعد أن دس إليه يحيى « يدعو إلى نفسه « فأمر بحمله إليه وسجنه حتى مات، غير أن بعض الروايات تشير إلى أنه عفا عنه، وكان يصله بالمال الكثير، إذ بلغ مقدار ما ناله منه أربعمائة ألف دينار، وعاش بعد ذلك شهراً واحداً، ثم مات رحمه الله»[٥].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٢٦٥/٥.

(٢) المقدسي، البدء ١٠١/٦

(٣) الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص ٢٣٠.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٤٢/٨ ومابعدها.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٧٣/١٠.

على أن الظروف التي أحاطت بالطالبيين كانت تغريهم بالخروج على سلطة العباسيين، إذ كانوا كثيراً ما يتلقون الوعود بالنصرة والتأييد، ولذا فما أن انتهى أمر يحيى حتى بلغ الرشيد أن الناس يبايعون موسى بن جعفر الصادق الملقب بالكاظم، ويحملون إليه الخمس من أموالهم، فأراد للرشيد أن يحتاط لنفسه، فأمر بحملِه من المدينة إلى البصرة، حيث سجن عند وإليها، ثم نقله إلى بغداد، فكانت خاتمة حياته في السجن سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م. وتختلف الروايات فيما بينها حول سبب الوفاة ومقتله، في الوقت الذي تتهم في يحيى بن خالد البرمكي بالضلوع المباشر فيما آل إليه مصير موسى الكاظم[١]، لكن رواية أخرى تذهب إلى أن الوفاة كانت طبيعية[٢].

ويبدو أن آخر الحوادث المؤلمة التي صاحبت علاقة الرشيد بالراغبين في الخروج عليه من الطالبيين، كانت تشير للدور الخطير الذي مارسه البرامكة ذوو الأصول الفارسية في إذكاء حدة الصراع الداخلي بين العباسيين والطالبيين على السلطة، فالنهاية التي آلت إليها حياة عبد الله بن الحسين الملقب بابن الأفطس؛ كانت أشبه بالحدث الذي لطخ سمعة الرشيد، إذ قتله جعفر بن يحيى البرمكي، ثم وضع رأسه في طبق، وبعثه بين عدة أطباق هدية للرشيد!! فلما رآه أعظم ذلك وغضب له غضباً عظيماً، وسأله عن سبب قتله، فتعلل بسبه وشتمه للرشيد[٣]!!؟.

كانت تراكمات حوادث مقتل الطالبيين واختفاء بعضهم في عهدالرشيد الصورة التي زعزعت نظرة الرعية لشخصية الخليفة، فقد كان من العسير أن لا تتحرك المشاعر لما أصاب الطالبيين من محن وابتلاءات؛ نظراً لقرابتهم من النبي - صلى الله عليه وسلم- وفي مقابل ذلك كان الرشيد مدركاً لعمق الحرج الذي وقعت فيه دولته أمام الرأي العام، الأمر الذي دفعه للقول: « بلغني أن العامة يظنون بأني أبغض علياً بن أبي طالب!؟ والله ما أحب أحداً حبي له «، ثم أردف مبرراً موقفه من الطالبيين « ولكن هؤلاء أشد الناس بغضاً لنا، وطعناً علينا، وسعياً في إفساد ملكنا، بعد أخذنا بثأرهم، ومساهمتنا إياهم ما حويناه، حتى إنهم لأميل لبني أمية منهم إلينا، فأما ولده لصلبه - أي علي رضى الله عنه - فهم سادة الأهل والسابقون إلى الفضل»[٤].

---

(١) الأصفهاني، مقتل الطالبين، ص٥٠١-٥٠٤.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٤٥/٣.

(٣) الأصفهاني، مقتل الطالبين، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١١٤.

البرامكة

من الحوادث الأكثر شهرة في التاريخ العباسي الحادثة التي أطلق عليها « نكبة البرامكة »، وذلك بسبب غموض الحادثة، وصعوبة الوصول لرأي واضح يزيل الالتباس فيها، فضلاً عن أن البرامكة كان لهم من الشأن والسلطان ما لم يكن لغيرهم في بلاط الخليفة هارون الرشيد، وهو ما زاد من ضخامة الحدث وغرابته لدى المؤرخين والعامة[١].

يعود أصل البرامكة لمدينة، بلخ حيث تشير رواية عند المسعودي[٢] إلى أن التسمية جاءت من اللقب الذي كان يطلق على كبير سدنة معبد النوبهار، ويختلف المؤرخون حول ديانة البرامكة قبل إسلامهم، فمنهم من يعتقد بأن بيت النوبهار كان معبداً للنار، ومنهم من يرى أنه كان معبداً للأصنام[٣]، ولا يخفى أن الأولى تشير إلى الأصل المجوسي، فيما تشير الثانية إلى الأصل البوذي.

كان أول اقتران بين البرامكة والعباسيين؛ عندما انضم خالد بن برمك للدعوة العباسية في طورها السري بخراسان فأصبح أحد الدعاة، وتدرج به الحال ليعهد إليه بقسمة الغنائم وتنظيم الخراج، مما أهله لتولي عدة مسئوليات، كان من بينها ديوان الخراج والجند للخليفة أبي العباس، وولاية فارس ثم الري وطبرستان للخليفة أبي جعفر المنصور، فيما عهد إليه الخليفة المهدي بالإشراف على تربية ابنه هارون منذ سنة ١٦١هـ/٧٧٧م.

وازدادت علاقة البرامكة بالخلافة زمن هارون الرشيد، إذ بحكم تربيته ونشأته في بيوتهم، واسترضاعه مع الفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد البرمكي، أصبح للبرامكة اليد الطولى في أمور الإدارة والسياسة والاقتصاد، وظهرت بذلك دولة البرامكة، كما

---

(١) كان البرامكة موضع خلاف بين المؤرخين، سواء في أصلهم، أو الأسباب التي دفعت الرشيد لنكبتهم، وللوقوف على تلك الآراء والأسباب انظر، البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى الخشاب، صادق نشأت، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٤٤١؛ عبد المنعمماجد، أضواء على البرامكة ونكبتهم، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٩٩- ١١٨؛ السيد محمد يوسف الهندي، بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب، مجلة كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠، ص ١٠٣ – ١٠٩؛

Bouvat، A., « Les Barmaecides d'après les historiens arabes et persans «, ***Revue du monde musulman*** 20، (1912), pp.1-131; Nadvi، S., « The origin of the Baramakids « , ***Islamic Culture*** 6, (1932),pp.19-28.

(٢) مروج الذهب، ٣/٣١٨.

(٣) حول هذا الاختلاف انظر، عبد المنعم ماجد، أضواء على البرامكة ونكبتهم، ص١٠٠.

يقول ابن طباطبا تعقيباً على العهد الذي أنفذه الخليفة هارون الرشيد ليحيى بن خالد البرامكي، بقوله: « يا أبت! أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، واسقط من رأيت، فإني غير ناظر معك في شيء»[(١)].

وقد بلغ من إدلال البرامكة على الرشيد أنه كان يقر لهم بما يعدون به الناس ولو كان من حقوقه الخاصة، فجعفر صاحب الرتبة العالية عند الرشيد يضمن للأمير العباسي عبد الملك بن صالح رضا الرشيد مع وصله بأربعة آلاف درهم من مال الخليفة، وتزويج ابنه بابنة الرشيد وولاية مصر، وهي حقوق لم يكد يسمع بها الرشيد في اليوم التالي حتى أنفذها!!.

لكن حال العلاقة بين الطرفين لم يدم على الوفاق، فبوادر المفارقة من جهة الرشيد كانت تنطوي على شعور بعدم الثقة واتهام بسوء النية، والدلائل تشير إلى أن الرشيد كان يتربص الإيقاع بالبرامكة منذ فترة ليست بالقصيرة، وقبل أن يبدأ الاتجاه المتصاعد نحو القطيعة في البروز؛ كان الرشيد قد اتخذ بعض التدابير الرامية لتقليص سلطة البرامكة وتحجيم دورهم، مقترناً ذلك مع وفاة والدته سنة ١٧٣هـ/٧٨٩م، التي كانت حامية لمصالح البرامكة في البلاط العباسي، حسبما تشير رواية الطبري في قول الرشيد للفضل بن الربيع: « .... إني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية، غير ما تمنعني أمي فأطيع أمرها، فخذ الخاتم من جعفر»[(٢)]. واستتبع ذلك نزع يد البرامكة من مناصب حساسة كالحجابة وحرس الخلافة، فيما ظهرت للعلن أولى الخلافات بين الرشيد والبرامكة في تعيينات الولاة على الأقاليم متمثلاً ذلك في خراسان، حيث جانب الرشيد رأي البرامكة، وهو أهم ويبدو أن أول ردة فعل من قبل البرامكة تجاه هذه الإجراءات كانت من نصيب الفضل بن يحيى، إذ تشير إحدي الروايات - دون أن تذكر السبب- إلى أن الرشيد سخط عليه سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م، ثم رضي عليه بعد شفاعة أمه، لكنه لم يرد إليه شيئاً من أعماله[(٣)].

ولعل أخطر ما قيل عن عدم رضا البرامكة على إجراءات الرشيد؛ هو اتهام موسى بن يحيى سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م أي قبل نكتبهم بعام بالعمل على مكاتبة أهل

(١) الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص ١٧٧.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٣٨/٨.

(٣) الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص١٧٨.

خراسان للوثوب بالخلافة، الأمر الذي سجن من أجله، ثم أطلق بعد ضمان والده يحيى وشفاعة أمه.

ومن الغريب أن خبراً كهذا - فيما لو صح- كان كفيلاً بالتعجيل بإيقاع العقوبة دون الانتظار لعام يقتل فيه جعفر دون أخيه موسى!!؟ وعلى أية حال؛ فمن الواضح أن الرشيد لم يكن متعجلاً في التخلص من البرامكة، وإن كانت النية مبيتة على ذلك، وهو ما تدلل عليه الروايات التي كانت تسرب عن ألسنة المقربين لدى الرشيد بعد حادثة النكبة، إذ يرد في إحداها قول الرشيد لأحد خلصائه: «.... إني أريد أن أوقع بآل برمك إيقاعاً ما أوقعه بأحد، وأجعلهم أحدوثة ونكالاً إلى آخر الأبد ...، ثم حال الحول وحال حول ثان، ثم حال ثالث، فلما كان رأس الرابع قتلهم»[١]. ويعضد هذه الرواية رواية أخرى تنسب لعامل الرشيد على المدينة، قال: «حدثني حسن الخادم، قال: أشهد بالله، لكنت مع الرشيد، وهو متعلق بأستار الكعبة، بحيث يمس ثوبي ثوبه ويدي يده، وهو يقول في مناجاته ربه: اللهم إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى، ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ست»[٢].

وإذن لم يكن الرشيد في عجلة من أمره، إما لأنه كان يجمع القرائن التي تدل على خيانة البرامكة واستحقاقهم العقاب، وإما لأنه كان يخشى انفلات الأمور من بين يديه، إن هو تعجل البطش بهم، وفي مطلق الأحوال؛ فإن الساعة التي أذن فيها الرشيد باقتلاع البرامكة أتت دون أن تحدث ضجيجاً يترافق مع الحدث، وفق مكانة البرامكة وعمق وجودهم في الحياة السياسية!!؟ وهو ما يشير إلى أن المجتمع كان متقبلاً لفكرة غياب البرامكة عن الساحة، يؤكد ذلك الطبري؛ حين روي أن: «الناس قالوا في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر في تغير حالهم»[٣]، كما يؤكده خبر عند الأصفهاني مفاده: أن إسحاق الموصلي دخل على الرشيد فسأله: «بماذا يتحدث الناس؟ قال: يتحدثون بأنك ستقبض على البرامكة، وتولي الفضل بن الربيع الوزارة..»[٤].

وأخيراً وقعت النازلة على نحو يرويه السندي بن شاهك صاحب شرطة الرشيد، فيقول: جاءني خطاب الرشيد يدعوني، فلما صرت إليه أخلى المكان وأرخى الستور،

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٤٩/٣.

(٢) المارودي، نصيحة الملوك، تحقيق: فؤاد عبد المنعم، الاسكندرية ١٩٨٨، ص٣٥٥.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٩٧/٨.

(٤) الاصفهاني، الأغاني، ١١٤/٥.

ثم قال: بعثت إليك في أمر لو علم به زر قميصي رميت به في الفرات....، امض من ساعتك هذه، وجد في سيرك حتى توافي مدينة السلام، فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك، ومرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة فإذا انقطعت الزجل، فصر إلى دور البرامكة، فوكل بكل باب من أبوابهم صاحب ربع، ومره أن يمنع من يدخل ويخرج حتى يأتيك أمري. قال السندي: فجئت أركض، حتى أتيت مدينة السلام، فجمعت أصحابي، وفعلت ما أمرني به. قال: فلم ألبث أن أقدم على هرثمة بن أعين، ومعه جعفر بن يحيى البرمكي على بغل، مضروب العنق، وإذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني أن أشطره إلى نصفين، وأن أصلبه على ثلاثة جسور!! ثم لم ألبث طويلاً حتى أمرني بإحراقه[1]!!.

وهكذا طويت صفحة البرامكة، لتظل الأسباب مثار جدل لا ينتهي، لم يزده عمقاً سوى السكوت الغامض للخليفة هارون الرشيد عن الخوض في الموضوع، لكن ذلك لم يمنع الناس بما جبلوا عليه من حب التعرف على الأخبار والنظر فيها، من البحث والتقصي بين الروايات عن حقيقة ما حصل، الأمر الذي أتاح قدراً كبيراً من الأسباب، نجمله على النحو التالي:

الانقلاب علي الدولة

لربما كانت هذه أخطر التهم التي وجهت للبرامكة، وأثارت الرشيد عليهم، وهي تهمة يصعب أن تكون بمعزل عن تأثيرات قرار الرشيد بتضييق سلطان البرامكة في دولته بعد سنوات من التفويض المطلق!! فلم يكن من اليسير على البرامكة أن يتقبلوا النزول عما هم فيه من جاه وسلطان، دون أن يكون لهم رد فعل يحافظون فيه على مكانتهم. وفي هذا السياق تبدو الروايات الواردة في هذا الشأن أقرب للحالة التي عاشها البرامكة وأكثر التصاقاً، وهي من الوفرة التي تثير الاستغراب، لكون الرشيد لم يتعجل البطش بهم!! ويمكن تعداد التهم على النحو التالي:

١- إقرار يحيى البرمكي بتقديم مائتي دينار ليحيى بن عبد الله العلوي حينما ثار على الدولة، وتبريره لذلك بتقوية شوكته ليسهل دحره وهزيمته!!؟.
٢- قيام يحيى بن خالد البرمكي، بمعاونة أحمد بن عيسى بن زيد العلوي، بمبلغ وقدره سبعين ألف دينار، رغم خروجه على الدولة ودعوته لإسقاطها.

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٩٧/٨-٢٩٨.

٣- تشكيل الفضل بن يحيى البرمكي جيشاً من أهل خراسان يبلغ تعداده ٥٠٠ ألف مقاتل، وانحلال أمر الجيش، وضرب قواعده في خراسان، بعد تعيين أحد منافسي البرامكة أميراً عليها.

٤- إطلاق جعفر بن يحيى البرمكي سراح يحيى بن عبد الله العلوي من السجن دون علم الرشيد، وقول الرشيد بعد ذلك: «قتلني الله بسيف المهدي على عمل الضلالة إن لم أقتلك»[١].

٥- قيام جعفر بن يحيى البرمكي بقتل سجينه عبد الله بن الحسن الملقب بالأفطس، وإرسال رأسه للرشيد مع جملة من الهدايا، الأمر الذي ساء الرشيد وأغضبه، وتسبب في توريطه أمام العلويين[٢].

٦- مكانة موسى بن يحيى البرمكي عند أهل خراسان، والسعي لإخراجهم منطاعة الرشيد[٣].

٧- اتهام البرامكة بالتآمر مع عبد الملك بن صالح العباسي بعد الإيقاع بهم، وتشدد الرشيد بعد ذلك في العفو عنهم أو الوثوق بهم[٤].

هذه الأسباب مجتمعة؛ تمثل خلاصة ما أشيع عن البرامكة فيما يتعلق بتردي علاقتهم مع الرشيد وانقلابهم عليه، وقد يبدو العمل الرابع سبباً في اختصاص جعفر بن يحيى بالقتل من بين البرامكة.

التفرد بالمال والاستبداد على الرشيد

خاض المؤرخون في عظم ما تحصل للبرامكة من الجاه والسلطان؛ حتى جعلوه سبباً في نكبتهم، وطريقاً لتبرير البطش بهم!! يقول ابن خلدون: «.... إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم، يقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٨٩/٨.
(٢) الأصفهاني، مقاتل الطلبيين، ص٣٢٨.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٩٣/٨.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٣٠/٨.

خالد خمسة وعشرون رئيساً، بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون الرشيد ولي عهد وخليفة، حتى شب في حجره ودرج من عشه، وغلب على أمره، وكان يدعوه يا أبت! فتوجه الإيثار من السلطان إليهم، وعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف ولاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء، وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني، ومدحوا ما لم يمدح به خليفتهم، وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى أسفوا البطانة، واحقدوا الخاصة وأغصوا أهل والولاية، فكشفت له وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم، ولا وزعتهم أواصر القرابة، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة، ولاستنكاف من الحجر والأنفة، وكان الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة»[١].

والواقع أن تغلغل البرامكة في مفاصل الدولة بلغ حداً لم يقف معه مانع، حتى تجاوزه لشؤون الرشيد وأهله، وإذا صح ما نقل في هذا الباب، فهو من الغرائب التي يستنكف حدوثها مع العامة، فكيف مع السلاطين والملوك!؟ حيث يفيد المسعودي: «... كانت زبيدة أم جعفر زوج الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد، ويمنعهن من خدمة الخدم، فشكت زبيدة إلى الرشيد، فقال: ليحيى بن خالد: يا أبتِ! ما بال أم جعفر تشكوك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أتهم أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك؟ فقال: لا والله، فقال: لا تقبل قولها!!! قال الرشيد: فلست أعاودك، فازداد يحيى لها منعاً، وعليها في ذلك غلظة، وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل، ويمضي بالمفاتيح إلى منزله، فبلغ ذلك

(١) المقدمة، ص ١٥-١٦.

من أم جعفر كل مبلغ، فدخلت ذات يوم على الرشيد فقالت: يا أمير المؤمنين، ما يحمل يحيى على ما لا يزال يفعله من منعه إياي من خدمي، ووضعه إياي في غير موضعي؟»!!»[١].

وبهذا الجرأة وأمثالها اشتط البرامكة في تصرفاتهم، حتى تجاوزوا بذلك حد الاستبداد والإسراف، يؤيد ذلك الرشيد بقوله: «استبد يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلا اسمها ....»[٢].

الكيد للإسلام وأهله

ظل أصل البرامكة وديانتهم قبل الإسلام موضع ريبة واتهام، ربما عززته بعض التصرفات التي كانت سبباً في نقمة الناس عليهم وكراهيتهم لهم. ولدينا رواية تبرز جانباً من الاتعاظ والسخط في صورة نصيحة وجهها أحد العلماء للرشيد، إذ يروي الطبري: «أن محمداً بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى أمور عبادك! أتراك تحتج بحجة يرضي بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع. فدعا الرشيد يحيى، وقد تقدم إليه خبر الرسالة، فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأي الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام، فأمر به فوضع في المطبق دهراً، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأحضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: تقول هذا! قال: نعم، وصنعت في رجلي الأكبال، وحلت بيني وبين العيال بلا ذنب أتيت ولا حدث أحدثت، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك! قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثم قال: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر أن يعطى مائة ألف درهم، فأحضرت، فقال: يا محمد، أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم، قد أنعمت علي، وأحسنت إلي، قال: انتقم الله ممن ظلمك، وأخذ الله لك بحقك ممن بعثني عليك. قال: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغير حالهم»[٣].

(١) مروج الذهب، ٣١١/٣.

(٢) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٩٠.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٨٨/٨.

ومع أنه لا توجد دلائل قطعية تؤكد وقوع البرامكة في الإلحاد أو الزندقة، إلا أن هذا التهمة ترددت بصورة جعلت من العسير الإعراض عنها عند تقييم النكبة، والأسباب التي أدت إليها. ومن بين ذلك تعليل أحدهم رغبة البرامكة في وضع مجامر داخل المساجد، بقوله: « .... ولم يمكنهم إظهار عبادة النيران، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين: ينبغي أن تجمر المساجد كلها، وأن تكون في كل مسجد مجمرة يوضع عليها الند « الطيب»، والعود في كل حال، فيرميهم بالزندقة والميل إلى مذاهب المجوس، وأنهم قد زينوا للرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة، يتبخر عليها العود أبداً، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة، وأن تصير بيت نار. وثمة ما يشير إلى أن رواج اتهام البرامكة بالزندقة؛ كان يعززه إقناعهم لبعض الفرس بالدخول في الإسلام؛ لتسهيل الاستعانة بهم في وظائف الدولة العليا، وقد حكى الجهشياري: « أن الفضل بن سهل نقل ليحيى بن خالد البرمكي كتاباً من الفارسية إلى العربية، فأعجب بفهمه وبجودة عبارته، فقال له يحيى: إني أراك ذكياً، وستبلغ مبلغاً رفيعاً، فأسلم حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا والإحسان إليك، وقال له يحيى: الآن، ودعا بسلام مولاه فقال له: خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى جعفر، وقل له يدخله على المأمون، حتى يسلم على يديه، ففعل وأسلم على يد المأمون، وهو الذي صار فيها بعد وزير المأمون، والذي لقب بذي الرياسيتين»[1].

ولقد أدى الشعر دوره في محاولة تثبيت تهمة الزندقة على البرامكة، فما ينسب للأصمعي قوله في البرامكة:

إذا ذكر الشرك في مجلس ... أنارت وجوه بنى برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا ... بالأحاديث عن مزدك

ومن ذلك قول أحدهم:

إن الفراغ دعانى ... إلى بناء المساجد
وإن رأى فيها كرأى ... يحيى بن خالد[2]

---

(١) الوزراء والكتاب، ص١٧٠.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار،ج١، القاهرة ١٩٩٦، ص٥١.

وهكذا تراوحت الأسباب؛ ليفضي بعضها أو كلها مجمعة إلى اقتناع الرشيد بفساد حال البرامكة وتغيرهم عليه، وهي القناعة ذاتها التي رافقته دون أن تأخذه الشفقة فيهم، حتى بعد أن نالهم الكرب والضيق والتغير الحال، يروى أن يحيى بن خالد البرمكي أرسل من سجنه للرشيد رسالة كتب فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم؛ قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت على الأثر، والله حكم عدل، وستقوم فتعلم». فرد عليه الرشيد: «الحكم الذي رضيت به في الآخرة لك، هو أعدي الخصوم عليك، وهو من لا ينقض حكمه، ولا يرد قضاؤه»[١].

سياستة الخارجية

مع البيزنطيين

تعود علاقة الرشيد بالروم إلى الفترة المبكرة من شبابه قبل الخلافة، فإن حرص والده المهدي على تأهيله وإعداده للولاية قاده ليكون على رأس حملة سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م، ضمت وجوه الدولة من القواد والأمراء. وكان لمحدودية المكاسب التي حازتها الدولة من تلك الحملة أثره في تجهيز أخرى أكثر عدة وأقوى عتاداً، توجه بها الرشيد سنة ١٦٥هـ/٨٠٢م إلى حدود الروم، وكسر شوكتهم وأرمهم طلب الصلح ودفع الجزية، وكان لذلك صداه في بغداد، حيث استقبل الجيش العائد باحتفالات عمت فيها البهجة والسرور[٢].

هذا ما نقلته المصادر عن مشاركات الرشيد في الجبهة البيزنطية قبل أن يلي أمر الخلافة، ولا شك أن حصيلة ذلك أفرزت شخصية ملمة بالمشاكل التي كانت تحيط بالدولة من خارجها، ومتجاوبة مع حركة الدفع الجهادي للأعداء. الأمر الذي ظهر أثره منذ اللحظة الأولى التي اعتلي فيها الرشيد سدة الحكم، إذ استفتح عهده بغزوة سريعة لبلاد الروم، ثم عاد منها إلى الحج، واتبع ذلك تنظيم الثغور، فعزلها عن تبعيتها الإدارية للمناطق التي حولها، وسماها العواصم لتكون إقليماً واحداً[٣].

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٢١/٥

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ١٥٢/٨؛ عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص٩٥.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٣٤/٨.

وكان الرشيد يدرك أن تعمير المناطق وتأهيلها سكانياً - خاصة تلك التي كانت تمثل رأس حربة في مواجهة الروم - يعد أمراً استراتيجياً وضرورة لا بد منها، ولذا سعى لتشجيع الناس على السكن والاستقرار في مدن الثغور، بعد أن جلب إليها وسائل العيش الكريم، وبذل فيها من العمارة، حتى أحيا مدنها مثل طرسوس وغيرها. ومع توالى الغزوات - التي أطلق عليها الصوائف لارتباطها بفصل الصيف - أمن للعباسيين أن يفتحوا مزيداً من الحصون، وأن يصلوا إلى العمق البيزنطي الأمر الذي اضطر معه الروم إلى الإذعان بطلب الصلح، فأجيبوا إلى ذلك شرط دفع الجزية وإطلاق الأسرى(١).

غير أن الأوضاع المتبدلة في الدولة البيزنطية، وعدم استقرار الحكم فيها؛ كان مؤثراً على العلاقة مابين الطرفين، إذ كثيراً ما كان البيزنطيون ينقضون الصلح ويلجأون لإعادة الكرة مرة أخرى، وكان أشهر من اعتلى عرش بيزنطة ذاك الحين القائد نقفور، الذي بعث رسالة إلى الرشيد يعلمه فيها بقطع الجزية، قائلاً: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب: أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فجعلت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، لكنه ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبل من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك. وإلا فالسيف بيننا وبينك» (٢).

بهذه الصيغة التي يتضح فيها أثر الصنعة العربية خوطب الرشيد باستخفاف وتحدي أصابه بالغضب، حتى لم يجرؤ جلساؤه معه على الكلام، فدعا بدواة فكتب على ظهر الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام». وهكذا حمل هذا الرد في طياته إعلان حرب لم يلبث معه الرشيد أن قاد جيشه متوجهاً به صوب الحدود البيزنطية، فدخل هرقلة وفتح الحصون التي حولها، ولم يتوقف حتى بلغت مقدمة جيشه أنقرة، عندئذ لاقي جيش الروم بقيادة نقفور، ودارت رحى المعركة التي أصيب فيها نقفور وانهزم جيشه، تاركاً أكثر من أربعين ألف قتيل. وكان ذلك كفيلاً بطلب الصلح من الروم والقبول بدفع الجزية، إلا أن نقفور استغل فترة دخول الشتاء وصعوبة الحركة فيه فعاود نقض الهدنة، مما ألجأ الرشيد

(١) ابن الأثير، الكامل، ٢٧٩/٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٣٣/٥.

للرجوع مرة أخرى حتى بلغ بلادهم فوطأها وفرض من الشروط ما شاء دون أن يرده الروم لما وصل إليه حالهم من الخزي والضعف[١].

ولم تدم فترة للهدنة طويلاً إذ عادت الأمور كما سابقها من النقض، لتتوالى حملات الرشيد طلية فترة حكمه، حتى موته سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م، إذا حصلت سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م بأكبر حملة ترأسها الرشيد، وقدر عددها بمائة وخمسة وثلاثين ألف سوى من انضم إليهم من المتطوعة، ومن الغريب أن حملة كهذه من حيث القوة اكتفت بفتح بعض الحصون، وتخريب البعض الآخر التي كان يستقوي بها الروم، ورضيت بتجديد الصلح مع دفع الجزية[٢]. مع أنه كان بالإمكان التعمق في الداخل البيزنطي، وتحقيق مكاسب أكبر من تلك بكثير، ولعل الرشيد كان يخشي من أن يقوم الروم بقطع خط الرجعة عليه في منطقة شاسعة كالأناضول. وعلى أية حال؛ فإن انتصارات الرشيد على البيزنطيين لم تكن لتقنعه بالتوقف عند هذا الحد، ففضلاً عن حملات الصوائف المتتابعة، التي استخدمت للتأمين والردع، فإنه كان يخطط لبناء قوة بحرية تضارع قوته البرية ليسيطر بها على البحر المتوسط، خاصة بعد أن هداه تفكيره لحفر قناة تربط بين البحرين الأحمر والمتوسط، لولا أن خوفه جعفر بن يحيى البرمكي، عاقبة ذلك بقوله: «أتريد أن يتخطف الروم الحجاج عند عرفات»!؟ لقد كان اهتمام الرشيد بجبهة الروم معبراً عن حبه للجهاد والغزو، الأمر الذي نلمح بعضاً من صوره في موقفه لما سمع أحد المحدثين وهو يروي حديث النبي - صلى الله عليه وسلم- : «وددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل»، فبكي حتى انتحب[٣]!! وتظهر صورة أخرى من ذلك الحب، في وضعه قلنسوة على رأسه كتب عليها «غاز حاج».

مع الهند

خلال عهد الرشيد بدأ الأسطول العباسي يسترد عافيته، ويحقق السيادة في مياه المحيط الهندي . ولاشك أن ذلك أمر بديهي مع سعي العباسيين للسيطرة على الطرق التجارية وحماية حدود الدولة؛ وظهر هذا التفوق العباسي في اختفاء هجمات القراصنة الهنود على السواحل العراقية، ولا أدل على هذا النجاح من قول ابن خياط

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٠٨/٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٤١/٥.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٧/١٤.

: « فوجه الرشيد يحيى بن سعد في ثلاثة عشر مركباً في بحر البصرة، حتى بلغ عمان ولم يلق كيداً»[١]. ويوضح النص السابق اختفاء القراصنة من الخليج العربي بعد أن كانوا يهددون سواحل البصرة، ويشيعون الفزع في الخليج. بجانب ذلك تعدي الأسطول مرحلة الدفاع عن شواطئ الدولة إلى الهجوم الفعال على معاقل القراصنة في الهند. وظهرت باكورة تلك الحملات عام ١٧٤هـ/٧٩٠م، حيث خرجت حملة كبيرة نحو تجمعات القراصنة في ساحل الهند الغربي، ورغم أنها لم تكن أولى الحملات العباسية ضد تلك المنطقة، فإنها كانت أضخمها وأبعدها تأثيراً، ثم تبعتها حملات أخرى ناجحة، وتمتلئ حوليات ابن خياط بأخبار تلك الحملات، وأعداد سفن القراصنة التي تم أسرها خلال تلك الفترة.

وخلال عهد الرشيد، استمرت العلاقات الودية بين الخلافة العباسية ومملكة البنغال، من خلال السفارة التي أرسلها دهارمابالا للرشيد مع عديد من الهدايا الفخمة، ورد الرشيد عليها بكثير من الهدايا [٢]، وتمثل تلك السفارة استمراراً للصلات الودية بين الطرفين للعوامل التي ذكرناها آنفاً.

ولاية العهد

الرشيد لم يكن بدعاً من بين الخلفاء الذين سبقوه في تقليد ولاية العهد، غير أنه زاد عليهم في جعل ولاية العهد لثلاثة من بنيه على التوالى وهم:

أولاً: محمد الأمين: ولد بعد أخيه المأمون بستة أشهر، وأمه هي زبيدة حفيدة أبي جعفر المنصور، ولاه أبوه ولاية العهد، وعمره خمس سنوات، وذلك سنة ١٧٥هـ/٧٩١م.

ثانياً: عبد الله المأمون: ولد ليلة استخلف الرشيد من جاريته مراجل الفارسية، عقد له والده ولاية العهد عقب أخيه الأمين، سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م، وعمره ثلاثة عشرة سنة.

ثالثاً: القاسم المؤتمن: عقد له والده بعد أخويه، سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م. ولكن موته المبكر حال بينه وبين الأمر.

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ٢/ ٤٨٠ - ٤٨٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك السفارة: انظر، ابن الزبير، تحقيق: محمد حميد الله، مراجعة صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٧٩، ص ٢٠ - ٢١؛ الغزولي، مطالع البدور ومنازل السرور، ج٢، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٥٥.

ويظهر أن عناية الرشيد بتأهيل أبنائه وتساويهم في الحظوظ، هو الذي شجعه على أن يرتب في حياته أمر الولاية لهم على ذلك النحو المتتابع، يروي الكسائي فيقول: «دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام، فقال: اقعد فلم أزل عنده حتى انصرف عامة من كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال لي: يا علي، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله؟ قلت: ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيها، فأمر بإحضارهما، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبي أفق يزينها هدوء ووقار، وقد غضا أبصارها، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس، فسلما على أبيهما بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء، فأمرهما بالدنو منه فدنوا، فصير محمداً عن يمينه، وعبد الله عن يساره، ثم أمرني أن استقراهما وأسألها ففعلت، فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسر بذلك الرشيد حتى تبنته فيه ....»[١].

لكن ولاية العهد التي أفرزت هذا النمط من الاختيار، جاءت تحت تأثير تطورات خطيرة، عبر عنها الرشيد في كتابه لعماله، بقوله: «.... وقطع طمع كل عدو مظهر العداوة، ومسر لها، وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الضالة المضلة من تكيد بكيد توقعه بينهما، وبدحس يدحس به لهما، وما يلتمس أعداء الله وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء إلى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدىنه ورعيته وأمة نبيه - محمد صلى الله عليه وسلم- ومناصحة لله ولجميع المسلمين، وذباً عن سلطان الله الذي قدره، وتوحد فيه للذي حمله إياه، والاجتهاد في كل ما فيه قربة إلى الله، وما ينال به رضوانه، والوسيلة عنده»[٢].

وفي الوقت الذي أحكم فيه الرشيد ولاية العهد بين أبنائه، كان قد اتخذ قراره بمعالجة جذرية لأسرة البرامكة، فبعد ذلك بعام - أي في سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م- زالت سلطة البرامكة ودالت دولتهم حتى لم يبق لهم أثر!! ليعيش بعدها الرشيد حتى العام ١٩٣هـ/٨٠٨م حيث وافته المنية وهو في طريقه إلى خراسان، فدفن في مدينة طوس - رحمه الله- وأسكنه فسيح جناته[٣].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٣٤٩/٣

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٨٦/٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٤٤/٨.

الفصل الخامس

خلافة الأمين

١٩٣ـ١٩٨هـ/٨٠٩ـ٨١٤م

شخصية الأمين

عاشت الخلافة العباسية خلال عهد هارون الرشيد واحدةً من أزهي عصورها، وحين وافاه الأجل ترك خلفه ملكاً عريضاً مترامي الأطراف، وحكماً ثابت الأركان لا يتزعزع. لكن موته كان فاتحة لحالة من الفوضي والاضطرابات التي عمت أرجاء الخلافة، وأدخلتها في نفق مظلم من الصراعات والحروب الداخلية، ضعضعت قواها، وسمحت لأعدائها في الداخل والخارج المتربصين بها بانتهاز هذه الفرصة لتحقيق مكاسب طالما منوا أنفسهم بها خلال الفترات السابقة.

تولي الأمين الخلافة العباسية عقب وفاة أبيه الرشيد عام ١٩٣هـ/٨٠٨م. وحكم فترة خمس سنوات ونيف، كان جُلها في صراع مع أخيه المأمون، هذا الصراع الذي انتهى بمقتله، وجعل المؤرخون يحملون عليه لما أوقعه بالخلافة من حروب، وما أُزهق بسببه من نفوس، وما أريقت من دماء، كان جديراً بها أن توجه إلى أعداء الخلافة المتربصين بها.

والأمين هو أبو عبد الله - وقيل أبو موسى، وقيل أبو العباس- محمد بن هارون الرشيد، وأمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، ولد في بغداد عام ١٧١هـ/٧٨٧م[١]. وقد وُصف الأمين بأنه: «أبيض، سبطاً، أنزع، صغير العينين، أقني جميلا، طويلاً، سميناً، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين ...»[٢]. كما وصف بأنه: «ذو قوة مفرطة، وبطش وشجاعة معروفة، وله فصاحة، وبلاغة، وأدب، و فضيلة». ومع ذلك وصف بأنه: «سيئ التدبير، كثير التبذير، ضعيف الرأي، أرعن، لايصلح للإمارة»[٣].

(١) مجهول، العيون والحدائق، ٣/٣٢٠.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٩/٢١٨.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٣٦.

وقد أسهبت المصادر في الحديث عن حبه لحياة اللهو والدعة، وإنفاقه أموال الخلافة في غير موضعها. فذكرت أنه بعد أن تولى الخلافة أرسل إلى جميع البلاد لطلب المُلهين، وخصص لهم الأموال، كما خصص كثيراً من أموال الخلافة لجلسائه وخصيانه، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ولعبه ولهوه، كذلك أمر ببناء خمس سفن على هيئة بعض الحيوانات، وأنفق عليها أموالاً عظيمة. كما ألمحت إلى أنه كانت له ميول ماجنة، حيث ذكر أن الأمين أكثر من الخصيان في قصره، وكان يجلس معهم ليله ونهاره، ويأكل ويشرب معهم، ويشركهم في أمره، في الوقت الذي كان يرفض فيه النساء الحرائر والإماء[١].

وقد يبدو في هذه الروايات بعض المبالغة أو التجني على الأمين، خاصة بعد خلعه من الخلافة، وتدخل ضمن الدعاية المأمونية لتبرير مافعله بأخيه الأمين؛ لذلك فنحن نتحفظ على هذه الروايات، ونأخذها بحذر.

الذي أرسل يخبره بوفاة الرشيد، كما أرسل له علامات الخلافة: الخاتم، والقضيب، والبردة. واستوعب الأمين الأمر بسرعة، وأعد للأمر عدته فانتقل من قصره إلى قصر الخلافة ليتولي الأمر رسمياً، ثم سعى لأن يؤلف قلوب من حوله، فصلى الجمعة، ثم صعد المنبر فنعي الرشيد وعزى نفسه والناس، ثم وعدهم خيراً وأمن الجميع. ثم اتجه بعد ذلك للجند، وكان يدرك حاجته إليهم لتأمين خلافته في تلك الفترة الحرجة، فأجزل لهم العطاء، ومنحهم راتب سنتين حتى يضمن ولائهم له[٢].

وقد أرسل لأخيه المأمون يطلب منه الثبات، ويأمره بحمل الناس ومن معه على تجديد عهد هارون الرشيد وأخذ البيعة لهم، فقال له: «وإياك أن يغلب عليك الجزع، فإنه يحبط الأجر، ويعقب الوزر. وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميتاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون! وخذ البيعة عمن قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ....»[٣].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٠٩/٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٤١٠/٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٥٩/٥.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٦٧/٨.

وكان هذا الهدوء الذي سار عليه انتقال السلطة يوحي بأن الأمور كانت على ما يرام، لكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة، فخلف هذا الهدوء كانت هناك نُذر رياح عاتية سوف تضرب جسد الخلافة العباسية، وتوقعها في صراع دموي بين الأخوين الأمين والمأمون.

والواقع أن بذور هذا الخلاف كان قد بذرها هارون الرشيد نفسه عام ١٧٥هـ/٧٩١م حين جعل ولاية العهد لابنه محمد الأمين، مع أنه كان صبياً لم يتجاوز الخامسة من عمره، وفضله على أخيه الأكبر المأمون، والذي جعل له ولاية العهد من بعد أخيه الأمين، ولكن بعد عدة سنوات عام ١٨٣هـ/٧٩٩م.

ولم يتعلم الرشيد الدرس جيداً، وغاب عن ناظريه ما حدث من صراعات في الأسرة العباسية جراء تعدد ولاة العهد، رغم أنه عاني من هذا الأمر بنفسه إبان خلافة أخيه الهادي. وتكرر الأمر من جديد، إذ طمع الأمين في الاستئثار بولاية العهد لابنه دون أخيه، وطفق يخطط للأمر، ويعد له عدته.

وقد تعددت آراء الباحثين في تفسير ما قام به الرشيد، فقد رأي بعضهم(١) أن التقسيم الإداري الذي قام به الرشيد بين أبنائه الثلاثة، ومنح المأمون الإشراف الإداري على ولايات المشرق كان سبباً في الصراع بين الأخوين، لأن الأمين اعتبره انتقاصاً من سلطاته، وأوغر صدره ضد أخيه. بينما رأي باحث آخر(٢) أن ما قام به الرشيد كان أمراً متوقعاً نتيجة ماعاناه من أخيه الهادي، لذلك حاول أن يكون انتقال السلطة من بعده سلمياً، لكنه فشل في هدفه.

في حين رأي آخر(٣) أن العهد الذي كتبه الرشيد بين أبنائه لم يكن غرضه تقسيم الخلافة بينهم، لكنه كان لتحديد ولاية العهد في المقام الأول، وأن ما خص به المأمون من ولايات كان لأداء دور دفاعي في حماية الخلافة في الناحية الشرقية، وهو الدور

(١) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص١٤٥.

(٢) انظر :

Bacharach، J.، “ Al-Amin’s Designated Successor: The Limitations of Numismatic Evidence “، ***Journal of the American Oriental Society***، Vol. 116، No.1. (Jan. - Mar.1996)، p.110.

(٣) انظر :

El-Hibri، T.، Harun al-Rashid and the Mecca Protocol of 802: A Plan for Division or Succession? ***International Journal of Middle East Studies***، Vol. 24، No. 3. (Aug. 1992)، pp. 461.

نفسه الذي وكل به ابنه المؤتمن أيضاً، ويرى أن الأخبار التي ظهرت وقت الصراع بحقد الأمين على ما خص به هارون الرشيد أخيه المأمون من ولايات المشرق، كان دعاية نفسية من قبل أنصار المأمون ليس أكثر، لكنها ليست حقيقة واقعة.

ورغم أن كثيراً من المصادر[١] تذكر أن الأمين كان عازماً على الوفاء بعهده واحترام رغبة أبيه، لكن الفضل بن الربيع، وعلي بن عيسى بن ماهان، هما اللذان زينا له الخروج على أخاه، وذلك خوفاً على مصيرهما إن تولي المأمون الخلافة. حيث ظلا يلحان عليه حتى اتخذ قراره بخلع أخيه عن ولاية العهد. لكن رغبة الأمين في هذا الأمر كانت واضحة، وظهرت في ضيقه من تولية المأمون للعهد، وما خصه به الرشيد من الأموال والولايات، ويظهر ذلك في قول ابن الأثير: «وكان سبب ذلك أن الرشيد لما سار نحو خراسان، وأخذ البيعة للمأمون على جميع من في عسكره من القواد وغيرهم، وأقر له بجميع ما معه من الأموال وغيرها، عظم على الأمين ذلك ...»[٢].

كما ظهرت نوايا الأمين في خلع بيعة أخيه، حين كتب الرشيد العهد وعلقه في الكعبة، وطلب منه جعفر البرمكي أن يحلف بعدم نقض البيعة، فأجابه لذلك وقال: «خذلني الله إن خذلته» ورددها ثلاث مرات. ولما خرج قال للفضل بن الربيع «يا أبا العباس، كنت أحلف وأنا أنوي الغدر»[٣].

ويظهر ذلك أيضاً في التخطيط الذي وضعه الأمين عشية موت الرشيد، فحين علم بأن أباه قد دخل مرحلة الاحتضار، أرسل أحد رجاله ويدعي بكر بن المعتمر بثلاثة كتب إلى المأمون، وأخيه صالح، والفضل بن الربيع. وكان كتاب المأمون يدعوه لأخذ البيعة كما سبق وذكرنا، أما كتاب صالح فيأمره فيه بالعودة بالجيش إلى بغداد، وكتاب الفضل يأمره بالعودة بالأموال وغيرها[٤]. وكان من المفترض أن يكون كتاباً واحداً لأخيه، بوصفه ولي عهده يطلب منه هذه الأمور كلها، لكن الأمين كما يبدو لم يكن واثقاً في نوايا أخيه، كما كان يخطط لإبعاده عن الجيوش والأموال.

ويبدو أن الرشيد نفسه كان يدرك أطماع ولده ومخططاته، فالرواية السابقة تذكر أن الأمين أوصى بكراً أن يكتم خبر الكتب حتى يموت الرشيد، فلما وصل بكر قبل

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٦٦/٣؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٣٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٥٩/٥.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ٥/١٠.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٦٦/٨-٣٦٧.

الوفاة وسأله الرشيد عن سبب قدومه ادعى بأنه حضر لينقل خبر الرشيد للأمين، لكن الرشيد لم يصدقه، وأمر بقيده وضربه حتى يفصح عن سبب قدومه، لكنه أصر علي موقفه. ويبدو من ذلك كما قلنا أن الرشيد كان يرتاب في نوايا الأمين ورجاله[١].

ويبدو فكر الأمين جلياً في حديثين أسر بهما إلى بعض المقربين منه، الأول: حين كان يتشاور مع أحد المقربين منه بشأن موقفه من أخيه، فقال له: « إن رأيٍ الرشيد كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره واستماله برقاه. فغرس لنا غرساً مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه ». والثاني: حين كان يحاور وزيره الفضل بن الربيع فقال له: « ويلك يا فضل، لا حياة مع بقاء عبد الله وتعرضه، ولا بد من خلعه» [٢].

وتوحي الدلائل السابقة - بما لا يدع مجالاً للشك - أن الأمين لم يكن حسن النية تجاه أخيه، وأنه كان عازماً على خلعه، وأن حاشيته حين زينت له هذا الأمر، وجد هوى في نفسه، إذ طوعت له نفسه بالفعل خلع أخيه.

حين وصلت كتب الأمين إلى طوس، وجد الجميع أنفسهم في مفترق طرق، فقد كانت تلك الكتب دعوة صريحة بالتخلي عن المأمون واللحاق بركب الأمين، وهنا تفجر الصراع من جديد بين الفريقين: العربي بزعامة الفضل بن الربيع، والفارسي بزعامة الفضل بن سهل، كل فريق منهم يسعي لتحقيق أفضل المكاسب، ولما كان من الصعب الوقوف على الحياد خلال الصراع بين الأخوين، لذا سارع كل فريق بالانضمام لأحدهما، فانضم الفضل بن الربيع إلى الأمين بحجة أن خلافته مضمونة، بعكس المأمون فقال: « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره ..»، وجمع رجاله وقرر الرحيل إلى بغداد، وباءت كل محاولات المأمون في إقناعهم بالعودة بالفشل[٣].

على الجانب الآخر؛ كان موقف المعسكر الفارسي بزعامة الفضل بن سهل مغاير تماماً؛ فقد وجدوا في هذا الخلاف فرصة سانحة ليحققوا أهدافهم، فأعلنوا دعمهم اللامحدود للمأمون، وطمأن الفضل بن سهل المأمون وهو يحاوره قائلاً: « وكيف بك وأنت نازل في أخوالك، وبيعتك في أعناقهم! كيف يكون اضطراب أهل بغداد! اصبر وأنا أضمن لك الخلافة ..»[٤].

(١) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٠/٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٦٧/٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٠/٥.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٧٢/٨.

وهكذا تحول الصراع بين الأخوين إلى صراع بين حزبين، كل حزب بما لديهم فرحون، وزين كل حزب منهم للأخوين خلع الآخر، والمضي قدماً نحو الاستئثار بالسلطة. والواقع أن الصراع بين الطرفين لم يدخل مرحلة الصدام العسكري دفعة واحدة، بل سبقته فترة من النزاع السلمي، لذلك يمكننا أن نقسم الصراع بين الأخوين إلى مرحلتين، الأولى: مرحلة النزاع الدبلوماسي، وهي التي بدأت منذ تولي الأمين الخلافة حتى عام ١٩٥هـ/٨١٠م. والمرحلة الثانية: وهي مرحلة الصدام العسكري، والتي انتهت بمقتل الأمين عام ١٩٨هـ/٨١٣م.

المرحلة الأولى

وكانت أشبه بالحرب الباردة، فكلا الطرفين يعلم نوايا الآخر لكنه لا يصرح بها، لذلك كانت العلاقات بينهما أشبه بعملية الكر والفر. ورغم أن الأمين كان قد قرر خلع أخيه من ولاية العهد فعلاً، إلا أنه لم يقم بذلك دفعة واحدة، بل سعى لأن يكون الأمر تدريجياً. ورغم ما بدا من الأمين من بوادر الغدر، إلا أن المأمون احتفظ بهدوئه، ولم يتعجل الصدام مع أخيه، فبدأ أولاً بتأمين جبهته فكرم الأمراء والقادة، ثم أسقط عن أهل خراسان ربع الخراج، فكان لهذا الأمر أثر طيب عليهم حتى قالوا : ابن اختنا، وابن عم رسول الله «. ثم حافظ على علاقته الودية بالأمين، فأرسل له الهدايا والرسائل التي تحمل الاحترام والتقدير[١].

ولم يلبث الأمين أن كشف عن مخططه، فقام بعزل أخيه المؤتمن عما كان ولاه أبوه، وجعله بجواره في بغداد، ثم أمر بالدعاء لإبنه موسى بالإمارة بعد الدعاء له والمأمون[٢]. وأدت هاتان الخطوتان من جانب الأمين إلى تغير في سياسة المأمون نحو أخيه، فقام بإسقاط اسمه من الطرز، كما قطع البريد عنه[٣].

ورغم هذا الرد القوي من المأمون تجاه خطوة الأمين، إلا أن الأخير واصل مخططه، وفكر أن يكتب إليه يطلب منه التنازل عن بعض مناطق خراسان، وأن يقوم الأمين بتعيين ولاة عليها. كما يطلب منه أن يقوم بتعيين عامل للبريد في خراسان من قِبله، لينقل إليه

(١) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٢/٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٤/١٠.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٧٥/٨.

الأخبار. لكن بعض مستشاري الأمين نصحوه بألا يفعل ذلك مباشرة، حتى لا يفطن المأمون لنواياه، وأن من الأفضل أن يستدعي المأمون إليه فيصبح من السهل عزله[(١)].

وبالفعل استجاب الأمين لنصح المقربين منه؛ فأرسل وفداً للمأمون يطلب منه أن يقدم ابنه موسى عليه، كما يطلب منه القدوم لبغداد نظراً لشوقه إليه. لكن المأمون رفض الأمر، كما اعتذر عن القدوم لبغداد؛ متعللاً بأن الرشيد أمره بلزوم الثغر لمحاربة أعدائه، وذلك بعد أن استشعر نية الأمين في الغدر به، وبعد أن استشار الفضل بن سهل الذي حذره من مخطط الأمين[(٢)]. وهنا عاد الأمين مرة أخرى إلى تفكيره الأول، وطلب من أخيه بعض مناطق خراسان، وقد أدرك المأمون أن أخيه يحاول أن ينتزع منه سلطاته تدريجياً، وقد استشار المأمون رجاله فرأى معظمهم إجابة الأمين إلى طلبه، لكن الفضل أشار عليه بالرفض، وشجعه على ذلك، فنزل المأمون على رأيه، وأرسل للأمين يرفض طلبه، وتعلل بأنه لو فعل ذلك لخالف وصية أبيهم التي أقسموا عليها[(٣)].

ويبدو أن أخباراً وصلت المأمون تفيد بأن الأمين يعتزم إرسال رجال يفسدون عليه أمره بنشر الشائعات وشراء الرجال بالأموال، فاحتاط المأمون للأمر، وخشي من محاولة الأمين التأثير النفسي على أهل خراسان، فأصدر أوامره بمنع أي غريب من التحرك بحرية في المنطقة، كما شدد الرقابة على الأبواب، وتم تفتيش كل من يدخل منها، وبالفعل وصل بعدها رجال من قبل الأمين لكن؛ لم يسمح لهم بالحديث مع أحد أو جمع أي أخبار عن المأمون ورجاله، فاتجهوا للمأمون حيث سلموا له رسالة تؤكد على مطالب الأمين السابقة، وترفض ما تعلل به المأمون[(٤)].

ويبدو أن صبر المأمون على أخيه أوشك على النفاذ، فأرسل له في هذه المرة رسالة تحذيرية، يخبره أنه لا يوجد ما يُلزمه بإجابة طلبه، ويحذره من أن هذا الإلحاح من جانبه قد يدفعه إلى الخروج عن طاعته، حيث كتب يقول: «بلغني كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأسأل عن وجهه، ولم يسأل ما يوجبه حق فتلزمني الحجة بترك إجابته، فلا تبعثني يا ابن أبي علي مخالفتك، وأنا مذعن بطاعتك»[(٥)].

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٥/١٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٤/٥.

(٣) الجهشياري، الوزراء، ص٢٢٢.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٧٩/٨.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٦/١٠.

ويبدو أن الأمين أدرك أخيراً أن التفاوض مع أخيه لن يجدي، وأنه لا مفر من التصادم، فأعلن عام ١٩٥هـ/٨١٠م خلع المأمون من ولاية العهد، وتعيين ابنه موسى بدلاً منه، وسماه الناطق بالحق، وضرب العملات باسمه[١]، ومنع ذكر المأمون والمؤتمن على المنابر، كما أرسل إلى الكعبة، فأحضر عهدي الرشيد منها ومزقهما. ثم تبع ذلك بأن أرسل للمأمون يأمره بالقدوم إليه في جميع القواد فرفض، كما كتب لقادة الجيش في خراسان يأمرهم بالحضور، فرفضوا وعللوا ذلك بأنه نقض العهود والمواثيق[٢].

المرحلة الثانية

انتهت فترة النزاع الدبلوماسي بين الأخوين بخلع المأمون، وانتقل الصراع لمرحلة الصدام العسكري، وكان الأمين هو البادئ بالهجوم، فأمر بتجهيز جيش كبير بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، ووجهه لقتال المأمون والقبض عليه[٣]. والواقع أن مصير هذا الجيش كان محكوماً عليه بالفشل منذ بدايته، بسبب وجود ابن ماهان على رأسه، فقد كان مكروهاً من أهل خراسان بسبب سيرته بينهم أيام الرشيد؛ لذلك كان وجوده على رأس الجيش المتوجه لخراسان استفزازاً لهم، حفزهم للاستماتة في قتاله.

ولكن؛ ما الذي دفع الأمين لهذا الاختيار السيئ في هذا التوقيت الصعب من عمر خلافته؟ تروي لنا المصادر سببين لهذا الاختيار؛ الأول: متعلق بابن ماهان نفسه، حيث تذكر أنه طمع في العودة لحكم خراسان، فأوحي للأمين بأن أهل خراسان راسلوه، وأنهم لن يسلموا بلادهم إلا له، وأن الأمين انصاع لرأيه وجعله على رأس جيشه[٤]. والسبب الثاني: متعلق بمعسكر المأمون، وتحديداً الفضل بن سهل، الذي نجح في بث أحد رجاله بين رجال الأمين، وجعل ينصحه بتولية ابن ماهان، وكان يهدف من ذلك إلى استثارة الخراسانيين في الدفاع عن المأمون لكراهيتهم لعيسى، ونجح تدبير الفضل باختيار الأمين لابن ماهان على طليعة جيشه[٥].

---

(١) انظر نموذجاً لهذه العملات في:

Bacharach، J.، " Al-Amin's Designated Successor: The Limitations of Numismatic Evidence "، ***Journal of the American Oriental Society***، Vol. 116، No. 1. (Jan. - Mar.، 1996)، pp. 108-113.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٦٦/٣.

(٣) مجهول، العيون والحدائق، ٤٥١/٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٣٩٠/٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٣٧١/٥.

وسواء كان الأمر من تدبير الفضل، أو نتيجة طمع ابن ماهان، فإن النتيجة كانت واحدة، فقد تحرك عيسى بجيشه مزهواً بقوته وعدد جيشه الذي فاق الأربعين ألفاً، ولم يلق بالاً لجيش المأمون الصغير الذي تولى قيادته طاهر بن الحسين، وكان الأخير قائداً محنكاً، فلما رأى مدى كثرة وقوة جيش ابن ماهان، حمل علي قلب جيش الأمين حتى تمكن من هزيمته وقتل عيسى بن ماهان[1]. وفور انتصار طاهر على جيش ابن ماهان أرسل إلى المأمون يبشره بذلك النصر قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم، كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس علي بن عيسى بين يدي، وخاتمه في أصبعي، وجنده مصرفون تحت أمري، والسلام»[2].

انتهت الجولة الأولى بين الأخوين بانتصار المأمون، وينبئ رد فعل كل منهما إزاء ما حدث على ما سينتهي إليه هذا الصراع، فعلى حين أسرع المأمون وأعلن خلع الأمين، وأرسل المدد لطاهر بن الحسين، وأطلق عليه لقب ذي اليمينين، كما تلقب بلقب الخلافة[3]. على الجانب الاخر؛ كان رد فعل الأمين في البداية غريباً فقد استقبل الخبر ببرود، وتشاغل عنه بصيد السمك مع غلام له، وكأن الأمر لايعنيه[4]. ثم أفاق الأمين من لهوه على خبر هزيمة جيشه، فأعد جيشاً جديداً بقيادة عبد الرحمن بن جبلة، وكلفه بالمسير إلى همدان، وقتال طاهر بن الحسين، وبالفعل تحرك عبد الرحمن واصطدم بجيش طاهر، وفشل في التغلب عليه، وحاول استعمال الحيلة فادعى طلب الأمان من طاهر، فلما أجابه الأخير إلى طلبه باغته وهاجم جيشه، لكن طاهر تمكن من تدارك الأمر وتصدى لهذا الهجوم المفاجئ، ونجح في قتل عبد الرحمن واستولي على منطقة حلوان[5]، وفشلت بذلك محاولتة الثانية.

وقد بدأت هذه الهزائم المتتالية للأمين، ولهوه وعدم جديته في مواجهة المأمون تزعج كبار رجال الأمين، وخاصة الفضل بن الربيع الذي ضاق ذرعاً بذلك حتى أنه قال عن الأمين: «لا يفكر في زوال نعمة، ولا يروي في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد ألهاه كاسه، وشغله قدحه، فهو يجرى في لهوه، والأيام توضع في هلاكه، قد شمر عبد الله له عن ساقه ...»[6]. وبرغم ضراوة الصراع بين الأخوين إلا أن الأمين

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٣٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٧٥/٥.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ١٢/١٠.

(٤) مجهول، العيون، ٣٢٥/٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٣٧٦/٥.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل، ٤١٨/٨.

رفض اقتراحاً عرضه أحد رجاله بالقبض على ولدى المأمون اللذين تركهما بقصره في بغداد، وجعلهما رهائن، فإما أن يستسلم المأمون أو يتم قتلهما، حيث أزعج هذا الاقتراح الأمين واعترض عليه بشدة(١).

انبرى الفضل هذه المرة للتجهيز للجولة الثالثة من الصراع، فأعد جيشاً كبيراً لقتال طاهر في حلوان، ويبدو أن الأخير وجد أن مواجهة هذا الجيش ربما تفقده جانباً كبيراً من قواته، لذلك قرر استعمال الحيلة في مواجهته، فأرسل بعض الجواسيس الذين اندسوا بين جيش الأمين، وأشاعوا أن الأخير أجزل العطاء لمن بقي في بغداد من الجنود، مما أثار حنقهم، وأدي في النهاية لوقوع الخلاف والفوضي بين جنود الجيش فعادوا يجرون أذيال الخيبة دون أن يقاتلوا طاهراً(٢).

أعطى هذا الانكسار الجديد لجيوش الأمين دفعة معنوية هائلة لطاهر بن الحسين، فانطلق يهاجم المدن الخاضعة لسلطان الأمين، فكانت تسقط بين يديه واحدة تلو الأخرى، فبعد سقوط حلون أعقبتها الاهواز، ثم اليمامة، والبحرين، وعمان، وصارت الدائرة تضيق على الأمين ورجاله. وزاد الطين بلة أن والي مكة والمدينة داود بن عيسى خلع طاعة الأمين واعترف بخلافة المأمون، وبرر ذلك بأن الأول لم يحترم العهود والمواثيق التي وضعها أبوه في الكعبة، وبالتإلى فإن طاعته غير واجبة. وكان دخول مكة والمدينة - بما لهما من مكانة دينية ونفسية مهمة في العالم الإسلامي- ضربة قوية للأمين، وانتصار معنوي هائل للمأمون(٣).

رغم ذلك لم ييأس الأمين، وحشد هذه المرة جيشاً كبيراً زاد على أربعمائة لواء ووجهه لقتال هرثمة بن أعين، لكن هذا الجيش لم يكن حظه أفضل ممن سبقه، فمني بهزيمة ساحقة. وقد أسقط في يد الأمين بعد هذا الفشل المتتالى، فقرر اللجوء للحيلة هذه المرة، فأرسل لجنود طاهر يعدهم بالمال، ونجحت حيلته واستجاب له عدد من جنود طاهر، وتركوا الجيش وانضموا للأمين، لكن طاهراً كان من الذكاء بحيث راسلهم وضاعف لهم العطاء، فانقلبوا على الأمين وفشلت خطته(٤).

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٣٨٢/٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٣/١٠.

(٣) مجهول، العيون، ٤٤٣/٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٣٩٠/٥-٣٩١.

وبينما كان الأمين يلملم شتات نفسه، إذ جاءته ضربة موجعة من داخل معسكره هذه المرة، حيث تمرد عليه أحد قواده ويدعى الحسين بن علي بن عيسى وقبض عليه، وأعلن خضوعه للمأمون واعترافه بخلافته عام ١٩٦هـ/٨١١م. لكن من حسن حظ الأمين أن هناك من تعاطف معه وتصدى للحسين وأعاد الأمين للخلافة، وعلى الرغم من أن الأمين عفا عن الحسين؛ نظراً للظروف الحرجة التي كانت يمر بها وحاجته إليه، إلا أن الأخير سرعان ما فر تاركاً الأمين يواجه مصيراً مجهولاً[١].

بعد ذلك؛ دخل الصراع بين الأخوين مرحلته الأخيرة والحاسمة، فقد انفض الجميع من حول الأمين، حتى الفضل بن الربيع الذي اختفى في جنح الظلام، وضاقت الأرض على الأمين بما رحبت، خاصة مع تقدم جيوش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين، وهرثمة بن أعين نحو بغداد، وضربهم حصاراً قوياً حول المدينة، حتى إنهم منعوا عنها السفن والتجار، فساءت أحوال الناس بها. وزاد الطين بلة أن الأمين لم يجد في خزانته من الأموال ما يدفعه للجنود ليحفزهم على القتال، فاضطر لبيع أمتعته، وصهر أواني الذهب والفضة لديه لسكها عملة[٢].

لكن الحصار اشتدت وطأته، فأشار بعض رجال الأمين عليه بالهروب ليلاً مع أهله وما تبقي من أمواله لبلاد الشام فينجو بنفسه، ثم يستعد من جديد لاستعادة عرشه، ومال الأمين لهذ الفكرة، لأنها كانت تناسب الوضع القائم، لكن الخبر تسرب لطاهر بن الحسين فخشي أن يهرب الأمين وتضيع بذلك عليه فرصة الظفر به إرضاء للمأمون، لذلك سارع بالضغط على بعض رجال الأمين لكي يقنعوه بالعدول عن تلك الفكرة، ونجحوا في ذلك[٣].

لم يعد أمام الأمين الآن سوى خيار التسليم خوفاً من مصير دموي قد يلحق به لو استمر في المقاومة، هكذا كان يظن! وكان عليه أن يختار لمن يسلم نفسه من قادة المأمون طاهر أم هرثمة؟ واختار الأخير لأنه كان مولي للعباسيين، ولأن الأمين كان قد رأى طاهراً في حلم سيئ له فتطير منه، لذا أرسل لهرثمة يعرض عليه تسليم نفسه مقابل تعهده بحمايته، فوافق هرثمة ومنحه الحماية وعهد بالتشفع له لدى المأمون[٤].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٤/١٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٩٣/٥.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٧٨/٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٥٠٤/٥؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٨٤/٠١.

وقد ذكر السيوطي أن الأمين كتب إلى طاهر يطلب منه الأمان لكن الأخير رفض منحه إياه، حيث يذكر أن الأمين كتب لطاهر يقول له: «من عبد الله محمد أمير المؤمنين إلى طاهر بن الحسين، سلام عليك، أما بعد، فإن الأمر قد خرج بيني وبين أخي إلى هتك الستور، وكشف الحرم، ولست آمن أن يطمع في هذا الأمر السحيق البعيد لشتات ألفتنا واختلاف كلمتنا، وقد رضيت أن تكتب لي أماناً لأخرج إلى أخي، فإن تفضل علي فأهل لذلك، وإن قتلني فمروة كسرت مروة، وصمصامة قطعت صمصامة، ولأن يفترسني السبع أحب إلى من أن ينبحني كلب»[١].

وأياً كان تصرف الأمين فقد أعلن طاهر رفضه له، خاصة وأنه كان يمني نفسه بالقبض عليه، والدخول به على المأمون حتى ينال الحظوة لديه، خاصة بعد المجهود الهائل الذي قام به في مواجهة جيوش الأمين، فلم يكن من السهل عليه أن يرضى بأن ينول غيره هذه الحظوة، لذا أعلن معارضته للأمر. وحاول هرثمة أن يجد حلاً وسطاً فأعلن أن الأمين سيخرج معه، أما علامات الخلافة كالبردة والقضيب والخاتم فسيستلمها طاهر ليسلمها للمأمون، فرضي طاهر بهذا الحل. لكن هناك من همس في أذنه بأن هرثمة يخدعه، وأن الأمين سيخرج ومعه علامات الخلافة مصاحباً لهرثمة، وهنا جن جنون طاهر وأمر رجاله بالتربص بالقصر الموجود فيه الأمين، ومنعه من الخروج بأي ثمن، بل دفع أحد مواليه لقتله[٢].

ورغم أن هرثمة نجح في الفرار بالأمين إلى سفينة في نهر دجلة، إلا أن رجال طاهر طاردوهم مما اضطر الأمين للفرار من السفينة، ثم لحقوا به، وعزموا على التخلص منه، ورفضوا كافة توسلاته، وذبحوه وأرسلوا رأسه إلى طاهر بن الحسين، فقام بوضعها على برج حتى يراها أهل بغداد ويعلموا بانتهاء الأمر، ثم أرسلها للمأمون بعد ذلك[٣]. وقد أرسل للمأمون رسالة يوضح فيها ما حدث، ويشير إلى أن قتل الأمين لم يكن مقصوداً، بل جاء نتيجة حرص رجال طاهر على ألا يفلت منهم، وبرر ما فعله برأس أخيه وعرضها على أهل بغداد؛ بأنه كان يرمي إلى أن تنهار مقاومة أتباع الأمين، ويقر الجميع بانتهاء خلافته، وتصير الأمور إلى صالح المأمون[٤].

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٤٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٤٦/١٠.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٣٨.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٩٢/٨.

وقد اختلفت المصادر في وصف رد فعل المأمون حين علم بقتل أخيه، فعلى حين تذكر بعض المصادر[١] أن المأمون سجد لله شكراً، نجد السيوطي يذكر أن المأمون اشتد عليه قتل أخيه، وكان يحب أن يرسل إليه حياً ليرى فيه رأيه[٢].

وبهذه النهاية القاسية للأمين عام ١٩٨هـ/٨١٣م، طويت صفحة دموية من تاريخ الخلافة العباسية لم تشهدها من قبل في الخلافات بين أفراد أسرتها. ولاشك أن شخصية الأمين نفسه، وحظه العاثر الذي أوقعه في حاشية فاسدة، وقادة لم يكونوا على نفس كفاءة رجال أخيه المأمون، بجانب تخلي وزيره الفضل بن الربيع عنه في أحرج أوقات أزمته، كل ذلك؛ كان سبباً فيما أصابه من هزائم متتالية، وانهيار في مواجهة أخيه.

على الجانب الآخر؛ كان وضع المأمون مختلفاً، فقد كان موفقاً لأبعد الحدود في حاشيته وقادة جيشه، فبجواره كان الفضل بن سهل، الذي تميز بالحكمة وحسن التدبير، فهو من أوصى المأمون بعدم الرجوع لبغداد، وطمأنه لوقوف الفرس بجواره حتى تؤول الخلافة إليه. كما زاد من قوة المأمون وجود اثنين من أفضل القادة العسكريين في هذا الوقت، وهما: طاهر بن الحسين، وهرثمة بن أعين، واللذان قادا جيوش المأمون ببراعة وحنكة شديدتين، وتمكنا من بسط سيطرة المأمون على ممتلكات أخيه تباعاً، كما هزما كل الجيوش التي أرسلها الأمين، حتى قضيا على معظم قوته، وسهلا للمأمون انتزاع الخلافة من أخيه.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤٠٥/٥؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٤٨/١٠.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٣٩.

الفصل السادس

خلافة المأمون

١٩٨ـ ٢١٨هـ/٨١٣ـ٨٣٣م

شخصية المأمون

لم تكن ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م، ليلة عادية من عمر الزمان، بل كانت ليلة قلما تتكرر في التاريخ، ليلة شهدت حدثاً فريداً من نوعه، جمع ثلاثة خلفاء بين موت وميلاد وولاية. فقد كانت تلك الليلة هي التي شهدت وفاة الخليفة الهادي، وتولي هارون الرشيد الخلافة، ثم الحدث الثالث وهو مولد عبد الله أبي العباس المأمون بن هارون الرشيد من أم ولد فارسية تدعى مراجل، وكانت جارية أهداها للرشيد قائده علي بن عيسى بن ماهان، وهو الذي سيصبح خليفة فيما بعد[1].

والحديث عن المأمون ليس بالأمر الهين، فقد كان أكثر خلفاء بني العباس إثارة للجدل، ما بين اتهامات تارة، ومديح تارة أخرى. فقد وصف بالدموية أحياناً، حين كان الموت يتخطف كل من يقف حجر عثرة في سبيل طريقه، بل ورأى بعضهم أنه طوعت له نفسه قتل أخيه، ورأى آخرون أنه ارتمي في أحضان الفرس في بداية حكمه، حين ترك بغداد، وولى وجهه شطر مدينة مرو، فانتبذ له فيها مكاناً شرقياً، لكن هذا وذاك لم يقدما دليلاً شافياً على هذه الاتهامات. كما وُصف بالعلم والحكمة والقوة، وهي صفات - وإن كان قد سبقه إليها أسلافه - إلا أنها تميزت برونق خاص مع اسمه، الذي لم يُجعل له بين الخلفاء من قبل سمياً.

وقد وُصف المأمون بأنه: «كان أبيض ربعة، حسن الوجه، تعلوه صفرة، وقد خطه الشيب، وكان طويل اللحية، أعين، ضيق الجبين، على خده شامة»[2]. وقد أفاضت المصادر التاريخية في مدحه وإحصاء صفاته، فيقول عنه ابن طباطبا: «كان

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٧٥.

(٢) الذهبي، سير أعلام، ٢٧٣/١٠.

المأمون من أفاضل خلفائهم وعلمائهم وحكمائهم»[١]، وهي شهادة لها قيمتها؛ لما عرف عن ابن طباطبا من عدائه للعباسيين بوجه عام. ووصفه الذهبي بأنه: «عالماً، فصيحاً، مفوهاً»[٢]. كما يذكر المسعودي بأنه: «كان حسن التدبير.. لا تخدعه الأماني ولا تجوز عليه الخدائع»[٣]. ومن خلال دراستنا لسيرة المأمون، نجد أنه كان خليقاً بهذه الصفات التي خلعتها عليه المصادر التاريخية. ويبدو أن صروف القدر كانت تعد شخصية مثل المأمون لهذه الفترة الحساسة من عمر الخلافة العباسية، والتي كانت حبلى بعديد من المشكلات على المستويين الداخلي والخارجي، واستطاع المأمون أن يتصدى لأغلبها ببراعة وحنكة شديدتين.

سياسته الداخلية

ينقسم عهد المأمون إلى فترتين متمايزتين، الفترة الأولى: منذ توليه الخلافة عام ١٩٨هـ/٨١٣م حتى عام ٢٠٤هـ/٨١٩م، وهي الفترة التي قضاها في مدينة مرو. وشهدت هذه الفترة غياب المأمون عن مباشرة شؤون الحكم بنفسه، وتركها لوزيره الفضل بن سهل، وهي الفترة التي كادت تعصف بحكمة. والفترة الثانية: من عام ٢٠٤هـ/٨١٩م حتى وفاته عام ٢١٨هـ/٨٣٣م، وهي التي قضاها في مدينة بغداد. وشهدت سيطرته على مقاليد الحكم وإدارة شؤون الخلافة الداخلية والخارجية بنفسه. ومن أهم ملامح أمور الدولة خلال عهد المأمون: علاقته بالفضل بن سهل، وكذلك تفويضه للطاهريين بحكم ولايات الخلافة الشرقية، ثم علاقته بالأغالبة، وعلاقته بالعلويين، ثم مشكلة خلق القرآن ودور المأمون فيها.

موقفه من الفضل بن سهل

قضى المأمون الشطر الأول من عهده في مدينة مرو حتى عام ٢٠٤هـ/٨١٩م، وخلال تلك الفترة أطلق المأمون يد وزيره الفضل بن سهل في إدارة شؤون الخلافة، كما فعل أبوه مع البرامكة، ولقبه بذي الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف معاً[٤]. وقد كتب المأمون للفضل بن سهل توقيعاً جاء في نهايته: «وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة

(١) الفخري، ص١٦١.
(٢) سير أعلام، ٢٧٥/١٠.
(٣) التنبيه والإشراف، ص٣٠٤.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤١/٤-٤٤.

من يقول في كل شئ فيسمع منه، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت أمرتك به من العمل لله ونبيه، والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها»[١].

ولم يكن الفضل على قدر الثقة التي أولاه إياها المأمون، بل سار على درب البرامكة فأستاثر بالنفوذ والسلطان، ونصب من أقاربه وأعوانه حكاماً وأعواناً؛ حتى يسهل له السيطرة على الأمور. ولم يكتف بذلك بل حاول أن يتخلص من أي غريم قد يفسد عليه أجواء هذه السيطرة، فنجح في إبعاد كل من هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين عن الخليفة، وكانا من القادة المقربين للمأمون، فأرسل الأول والياً على خراسان[٢]، وأرسل الثاني لقتال الثائر نصر بن شبث في الشام، وولي مكانه أخاه الحسن بن سهل[٣]. كما كان للفضل تأثيره الكبير في تفكير المأمون في اتخاذ ولي عهد له من العلويين، كما سنري فيما بعد[٤]. وحرص كل الحرص على بقاء المأمون في مرو، وكان يهدف من ذلك إلى إبقاء المأمون بعيداً عن بغداد، حتى يسهل السيطرة عليه.

ولم يكتف الفضل بسيطرته على شؤون الخلافة، بل سعى لحجب حقيقة الأوضاع في بغداد عن المأمون؛ حتى لا يترك مرو ويتجه إليها، فأخفى عنه رفض البغداديين لولي عهده العلوي، كما أخفى عنه تنصيب البغداديين لعمه إبراهيم بن المهدي خليفة بدلاً منه عام ٢٠٢هـ/٨١٧م[٥]. وزاد الطين بله أن استبداد الفضل بالأمر ذاع بين الناس حتى هان المأمون في أعينهم. ولا شك أن إخفاء أحداث بهذه الخطورة لم يكن أمراً حسن النية، لذلك عندما تسربت هذه الأخبار إلى المأمون أدرك حقيقة أمر الفضل، وأنه صار يمثل خطورة بالغة على حكمه.

وعمل المأمون بنصيحة المقربين منه، وقرر التوجه إلى بغداد[٦]، ويبدو أنه خطط للتخلص من الفضل الذي لقي حتفه على يد بعض رجال المأمون، الذين قتلوه وهو في الحمام، وبذلك تخلص من خطره[٧]. وسرعان ماتغيرت الأحوال في بغداد واستقرت أمور المأمون بعد وفاة ولي عهده، واستسلام عمه إبراهيم وتخليه عن الخلافة، فدانت له أمور الحكم من جديد.

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٣٠٦.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٢٧/٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٦٥/١٠.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ٤١٣/٥.
(٤) الذهبي، دول الاسلام، ص١١٣.
(٥) مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٦/٣.
(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ١٠٧/١٠.
(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٧٩/٣.

موقفه من الطاهريين

سار المأمون على نهج أبيه في نزعته اللامركزية، فخلال عام ٢٠٥هـ/٨٢٠م أصدر مرسوماً بتولية قائده طاهر بن الحسين على خراسان وولايات المشرق التابعة لها[١]. وأسس الأخير أسرة انضوت بخدماتها تحت لواء الدولة العباسية ما يزيد على نصف قرن ٢٠٥-٢٥٩هـ/ ٨٢٠-٨٧٢م[٢]. وكان طاهر قد أسهم بدور مهم في خدمة المأمون، فكان ساعده الأيمن إبان خلافه مع أخيه، وكان له التأثير الأكبر في إنهاء هذا النزاع لصالح المأمون، وتهيئة كرسي الخلافة له، لذلك لم يكن غريباً أن يطلق عليه المأمون لقب « ذي اليمينين»[٣].

وقد اختلفت الأراء حول الدافع الذي حمل المأمون على تلك الخطوة. فالطبري[٤] يورد لنا رواية نفهم منها أن الدافع كان دافعاً نفسياً، حيث يذكر أن المأمون كان يصاب بالحزن كلما رأى طاهر لأنه يذكره بقتل أخيه، وخشي طاهر عاقبة ذلك، فتوسط لدى وزير المأمون أحمد بن خالد لكي يبعده عن أنظار الخليفة، فاقترح الأخير على المأمون أن يولي طاهر ولايات المشرق، ضامناً له ولاءه وعدم تمرده، فوافق المأمون بعد تردد.

بينما يرى بعض المؤرخين المحدثين[٥] أن هذه الخطوة كانت مكافأة لطاهر على مساندته للمأمون خلال نزاعه مع الأمين والفترات اللاحقة، خاصة مع حاجة الجناح الشرقي من الدولة لسلطة قوية تحكمها في ظل الخلافة. وأن ذلك كان راجعاً للثقة الكبيرة التي حازها الطاهريون، والتي لم تهتز برغم محاولة التمرد من طاهر، ولا أدل على ذلك؛ من أن المأمون ظل يعتمد على البيت الطاهري رغم هذا التمرد. بينما يرى باحث آخر[٦] أن طاهراً سعى سعياً حثيثاً لتولي هذا المنصب نتيجة طموحه العريض، ولإدراكه أن خراسان هي أهم ولايات الخلافة العباسية.

(١) عن هذا المرسوم انظر، ابن طيفور، كتاب بغداد، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، بغداد ١٩٤٩، ص ٢٤؛ الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، بيروت (د.ت)، ص ١٦٧.

(٢) للوقوف على أصل هذه الأسرة، ودور الطاهريين في خدمة الدولة العباسية انظر، خواندمير، تاريخ روضة الصفا، الجزء الخاص بتاريخ الدول، الطاهرية، الصفارية، السامنية، آل بويه، ترجمة وتعليق أحمد الشاذلي، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٩؛

Kabi، M.، “ Les origins Tahirides dans da’wa، Abbaside “، pp.145 – 164.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٤٥٤/٥.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٧٧/٨-٥٧٩.

(٥) أبو سيف، المشرق الإسلامي، ص٩٤؛ أمينة البيطار، العصر العباسي، ص٢٨٠-٢٨١.

(٦) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي، ص١٦٨.

ونحن لا نستبعد أي رأي من تلك الآراء، بل نراها مجتمعة تفسر تلك الخطوة من جانب المأمون، فما من شكك أن قائداً بحجم طاهر ساند المأمون في أحلك فترات حياته، وكان له إسهامه في جلوسه على عرش الخلافة من جديد، لابد وأن يكون طموحه أكبر من المكوث بجوار الخليفة، وأن هذا الطموح تزامن مع رغبة المأمون في مكافأة طاهر على جهوده، وكذلك حماية الجناح الشرقي من الدولة من أية اخطار قد تتهدده، وربما أيضاً أنه كان من الناحية النفسية يفضل الابتعاد عن لقاء طاهر حتى ينسي ما حل بأخيه. كل هذه الأمور مجتمعة صنعت هذا الحدث، وهو تولي الطاهريون إدارة أمور المشرق.

تولي طاهر أمور المشرق، ويبدو أنه كان يتوجس خيفة من نوايا المأمون، خاصة في ظل الانتقاد المتواصل من الخليفة لسياسة طاهر في المشرق، فعزم على العصيان وأسقط اسم المأمون من الخطبة عام ٢٠٧هـ/٨٢٢م[١]. ولما صكت الأخبار مسامع المأمون استشاط غضباً، واستدعي وزيره يطالبه بالضمانات التي قدمها حال ترشيح طاهر وضمان عدم تمرده. وأسقط في يد الوزير وتحرج الموقف، لكن أنباء أخرى أعقبتها تفيد بموت طاهر فجأة، أنهت حالة الترقب والغليان في مقر الخلافة[٢]. وقد أثار الموت المفاجئ لطاهر فضول المؤرخين، فراحوا يبحثون له عن تفسير، ورجح بعضهم[٣] أن يكون طاهر قد اغتيل على يد المأمون أو وزيره، لكن دون أن يقدموا دليلاً على ذلك.

ورغم ما قام به طاهر من تمرد، إلا أن المأمون منح سلطاته لابنه طلحة[٤]، ربما ليدفع عن نفسه تهمة التخلص من طاهر، أو خوفاً من حدوث اضطرابات جديدة، خاصة وأن ابنه عبد الله كان يتولى أمور الجناح الغربي من الدولة، ويتولى قتال الخارجين على الخلافة في الشام، مما قد يؤثر على موقف الجيش العباسي هناك.

ويؤكد ذلك أن المأمون أخفى خبر وفاة طاهر عن ابنه عبد الله أثناء معاركه في الشام، وعلل ذلك بعدها في عدم رغبته في أن تؤثر تلك الاخبار على عزيمة عبد الله وجيشه، حيث قال له: «لم أستر عنك علمه إلا لأني خشيت أن تضعف وأنت في وجه حرب، فخفت عليك من الفكرة والتواني ...»[٥]

(١) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص٧٣.

(٢) الذهبي، دول الاسلام، ص١١٥.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٥/٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٤٦٩/٥.

(٥) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص ٧٣- ٧٤.

وظل طلحة يضطلع بشؤون المشرق حتى وفاته عام ٢١٣هـ/٨٢٨م، فولي المأمون مكانه أخيه عبد الله، وكان الأخير يحوز ثقة المأمون الذي ولاة قيادة جيوشه، كما ولاه أمور الولايات الغربية [١]، وكان لنجاحه في تلك المهمة أثرها في إسناد أمور المشرق له، وبذلك ظل حكم المشرق في أيدي الطاهريين حتى وفاة المأمون.

موقفه من الأغالبة

سار المأمون على درب أبيه بمواصلة الاعتراف بإمارة الأغالبة[٢]، والاحتفاظ بولائها الشكلي للعباسيين، مع استمرار دورها إمارة حاجزة ضد الأخطار القادمة من الغرب. وقد دفعه إلى ذلك عدة أمور هي :

أ- أنه لم يكن يملك من الوقت والجهد ما يؤهله لفتح جبهة جديدة، في ظل اتساع دائرة خصومه، وتعدد الجبهات التي يقاتل فيها داخلياً وخارجياً.

ب- استمرار الأغالبة في ولائهم للعباسيين، ورفضهم خلع طاعتهم حتى في ظل الأزمات التي عصفت بالخلافة، مثل: النزاع بين الأمين والمأمون، أو تولي إبراهيم بن المهدي الخلافة، وهو ما قدره لهم المأمون.

ج- أن الأغالبة كانوا عين الخلافة على الأوضاع في المغرب التي تنازعتها دويلات الخوارج والعلويين والشيعة، ومن ثم كانت الخلافة بحاجة لحليف موثوق به ليطلعها على حقيقة الأمور هناك، ويكفيها مؤونة التفكير في مواجهتهم، ويمنع تقدم طموحهم نحو الشرق.

وقد ساهمت هذه الاسباب مجتمعة في استمرار المأمون على سياسة أبيه بالاعتراف بتلك الإمارة، فما إن تولى الخلافة بعد مقتل الأمين حتى أقر عبد الله بن إبراهيم ١٩٦-٢٠١هـ/٨١١-٨١٦م على إفريقية، ثم أقر من بعده أخاه زيادة الله ٢١٠-٢٢٣هـ/٨٢٥-٨٣٧م[٣]، وبوجه عام كانت العلاقة ودية بين الطرفين، تحكمها المصالح المشتركة.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤٦٩/٥.

(٢) ينتسب الأغالبة إلى إبراهيم بن الأغلب، ولمزيد من التفاصيل عنهم انظر، الطبري، تاريخ الرسل، ٦٤٨/٤؛ محمود إسماعيل، الأغالبة، سياستهم الخارجية، القاهرة ٢٠٠٠؛

Abdulwahab, H., “ Un Tournant de l’histoire Aghlabite “, ***Revue Tunisienne***, (1937), pp.343 – 352.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٣٤/١٠.

موقفه من العلويين

أصابت علاقة المأمون بالعلويين كثيراً من معاصريه، ومن بعدهم من المؤرخين بالحيرة، حيث أدت علاقته الطيبة بهم وحرصه على مودتهم إلى إثارة عديد من التساؤلات حول طبيعة هذا السلوك، خاصة حين أقدم على خطوة غير مسبوقة باختيار ولي لعهده منهم، مخالفاً بذلك سيرة أسلافه من العباسيين الذين لم تخل علاقتهم بالعلويين من الشك والارتياب، بل والعداء الصارخ في كثير من الأحيان.

وقد لاحظ بعض المؤرخين في البداية هذا الميل للعلويين ورصدوه، فيذكر المسعودي أن المأمون: "كان يظهر التشيع"[١]، كما يذكر الذهبي أن المأمون: «أظهر التشيع، وأمر أن يقال خير الخلق بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - علي»[٢]. كما ظهر ذلك في الوصية التي أوصى بها أخاه المعتصم قبل وفاته: «وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محسنهم، وصِلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى»[٣]. وقد فسر المأمون هذا الود من جانبه نحو العلويين بقوله: «إنما فعلت ما فعلت؛ لأن أبا بكر لما ولي لم يول أحداً من بني هاشم شيئاً، ثم عمر، ثم عثمان كذلك، ثم ولي علي فولي عبد الله بن العباس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبداً مكة ...، وما ترك أحداً منهم حتى ولاه شيئاً، فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت»[٤].

ورغم هذا اللين والود من جانب المأمون نحو العلويين، إلا أن هذا لم يغير شيئاً من موقفهم نحو العباسيين، واستمرت ثوراتهم ضدهم خلال عهد المأمون أيضاً. ومن أهم هذه الثورات ثورة محمد بن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا، والتي اندلعت في الكوفة عام ١٩٩هـ/٨١٤م بمساعدة قائد جنده أبي السرايا الشيباني. وكان شعار هذه الثورة الدعوة للرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة. ونجحت هذه الثورة في مد نفوذ العلويين إلى البصرة وواسط والحجاز واليمن؛ حتى استفحل خطرها وصارت تهدد الخلافة العباسية بقوة[٥]. ورغم وفاة ابن طباطبا، استمر أبو

(١) مروج الذهب، ٣٢٨/٣.

(٢) دول الاسلام، ص١١٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٤٩/٨-٦٥٠.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٥.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٤١٨/٥.

السرايا في ثورته، ويبدو أنه شعر أن الأمور قد دانت له فقام بضرب الدراهم بالكوفة، وأرسل الولاة للأمصار الإسلامية ليحكموا باسمه، كما أرسل كسوة باسمه إلى الكعبة لتستبدل بكسوة بني العباس[١].

على الجانب الآخر، لم يكن وجود المأمون في مرو وبعده عن بغداد ليشغله عن مواجهة هذا الخطر الداهم، فوجه واليه على العراق الحسن بن سهل لمواجهة هذه الثورة، لكن الأخير فشل في التصدي للثورة في أول الأمر، مما جعل العلويون ينتقمون من العباسيين ومواليهم، فهاجموا دورهم ونهبوها وخربوها[٢]. لكن وفاة ابن طباطبا المفاجأة جعلت كثيراً من أهل الكوفة ينفضوا من حول أبي السرايا، كما زاد من سوء وضعه تولي أمره القائد هرثمة بن أعين، فطارده من مدينة إلى أخرى؛ حتى تمكن من الإيقاع به وقتله، والقضاء على ثورته عام ٢٠٠هـ/٨١٥م[٣].

ولم تنته بموت أبي السرايا ثورات العلويين، إذ إنها كانت فاتحة للثورات العلوية في عهد المأمون، ومشجعة لحركات أخرى ضد العباسيين خارج العراق. ومن هذه الحركات حركة محمد بن جعفر بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب الشهير بأبي جعفر الصادق، وكان يعيش في مكة، وكان شيخاً جليلاً محبوباً من الناس. وإبان ثورة أبي السرايا نجح أحد أتباعه - ويدعي ابن الأفطس - في السيطرة عليها وأوقف الخطبة فيها للمأمون. ولما قضى أبو السرايا نحبه خشي ابن الأفطس من بطش المأمون، فحاول أن يستغل أبا جعفر الصادق في جمع الناس من حوله ضد العباسيين، فزين للأخير أن يدعو لنفسه بالخلافة، وبعد إلحاح شديد من بن الأفطس قبل أبو جعفر تنصيب نفسه خليفة، بعد أن ظل لفترة طويلة معتزلاً السياسة وأمور الحكم. ويذكر ابن الجوزي أن الناس قد اجتمعوا عليه فقالوا: «قد نعلم حالك في الناس، فأبرز شخصك نبايع لك بالخلافة، فإنك إن فعلت ذلك لم يختلف عليك اثنان، فأبى عليهم، فلم يزل ابنه به وابن الأفطس، حتى غلباه على رأيه، فبايعوه بالخلافة، وحشروا إليه الناس من أهل مكة والمجاورين، فبايعوه»[٤].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٣٠/٨.

(٢) مجهول، العيون والحدائق، ٤٣٢/٣.

(٣) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص٣٤٩.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ٨٤/١٠.

لكن هذه الحركة لم يقدر لها أن تعيش طويلاً ، إذ لم تلبث أن فقدت مؤيديها نتيجة استئثار ابن الأفطس بالسلطة ، مع سوء سلوكه مما جعل الناس ينفرون منه ، وزاد في وضع الحركة حرجاً أن المأمون وجه واليه على اليمن إسحاق بن موسى لمواجهة هذا التمرد ، فهاجم مكة وهزم أبا جعفر وأنصاره ، ويبدو أن أبا جعفر قد آثر أن يجنح للسلم بعد أن لمس ضعف موقفه ، خاصة في ظل تهميش دوره في الحركة منذ البداية فطلب الأمان من المأمون ، الذي أجابه لرجائه في مقابل أن يعلن تخليه عن الخلافة ، ويتنازل عنها للمأمون ففعل[1] ، وصعد المنبر وألقي خطبة تبرأ فيها من بيعة الناس له وأقر للمأمون بالخلافة ، حيث قال : « أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب ، فإنه كان لعبد الله أمير المؤمنين في رقبتي بيعة بالسمع والطاعة ، طائعاً غير مكره ، وكنت أحد الشهود الذين شهدوا في الكعبة في الشرطين لهارون الرشيد على ابنيه : محمد المخلوع ، وعبد الله أمير المؤمنين. ألا وقد كانت فتنة غشيت عامة الأرض منا ومن غيرنا. وقد نمى إلي خبر أن عبد الله أمير المؤمنين كان قد توفي ؛ فدعاني ذلك إلى أن بايعوا لي بإمرة المؤمنين ، واستحللت قبول ذلك لما كان علي من العهود والمواثيق في بيعتي لعبد الله المأمون ، فبايعتموني - أو من فعل منكم - ألا وقد بلغني وصح عندي أنه حي. ألا وإني استغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة ، وقد خلعت نفسي من بيعتي التي بايعتموني عليها ، كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي ، وقد صرت كرجل من المسلمين فلا بيعة لي في رقابهم ، وقد رد الله الحق إلى الخليفة المأمون ..»[2].

ولم تكن هذه الحركة هي الوحيدة للعلويين بعد ثورة أبي السرايا ، بل كانت هناك ثورة أخرى في اليمن قام بها أحد العلويين ويدعي إبراهيم بن موسى جعفر العلوي ، الذي انتهز فرصة ثورة أبي السرايا واتجه من مكة - حيث يقيم- إلى اليمن وقرر أن يستقل بها عن الخلافة ، وهناك لم يلق مقاومة من قبل وإليها إسحاق بن موسى الذي أعرض عنه واتجه إلى مكة ، فبسط إبراهيم سلطته بسهولة على اليمن[3].

لم يهتبل إبراهيم العلوي تلك الفرصة في التوطيد لحكمه ، بل سلك مع أهل اليمن مسلكاً فظاً بسلب أموالهم وقتل كثيرىن منهم حتى لقبوه بلقب « إبراهيم الجزار» ، مما جعلهم ينفضون من حوله ففقد كثيراً من قوته. كما أن ما قام به من سلوك

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤٢٢/٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٤٠/٨.

(٣) مجهول، العيون والحدائق، ٤٢٤/٣.

شائن حين هاجم قوافل الحجاج ونهبها جعل إسحاق بن موسى يوجه إليه جيشاً كبيرا استطاع أن يقضي على رجاله، وانتهت بذلك حركته سريعاً عام ٢٠٠هـ/٨١٥م[١].

وبجانب هذه الثورات قامت بعض حركات التمرد الفردية من قبل بعض العلويين، لكنها لم تكن ذا أثر يذكر، وقضي عليها سريعاً من جانب المأمون. وكما يبدو من ثورات العلويين أنها لم تحقق نتائج ملحوظة في مواجهة العباسيين، ربما لافتقادها للتنظيم والسرية، وهما الأمران اللذان ساهما في نجاح الدعوة العباسية، يضاف لذلك افتقاد العلويين ومن تبعهم من قادتهم للفكر السياسي الذي يؤهلهم لتطوير النجاح العسكري في البداية إلى نجاح شعبي مواز له يحافظ على ما تم إنجازه من مكاسب في مواجهة العباسيين.

وبرغم كل هذه الثورات وحركات التمرد من جانب العلويين، إلا أن المأمون لم يغير من سياسته تجاه العلويين، واعتقد أنه لا تثريب عليهم برغم كل ذلك، ويبدو أنه كان مدفوعاً لذلك بميوله العلوية الواضحة. لكن الحدث الأكثر أهمية والذي أكد على ميله التام للعلويين، هو مبايعته بولاية العهد لعلي بن موسى الرضا سنة ٢٠١هـ/٨١٦م، فقد أرسل يستدعيه من المدينة المنورة، وعرض عليه الفضل بن سهل ولايه العهد، لكن علي امتنع في البداية فهدده المأمون على لسان الفضل بن سهل بقوله: «لا بد من قبولك ما أريد فإني لا أجد محيصا عنه. إن عمر بن الخطاب جعل الشوري في ستة أحدهم جدك، وشرط فيمن خالف أن تضرب عنقه». ويبدو أن هذا التهديد قد آتي ثماره، حيث أذعن على الرضا في النهاية للأمر وقبل بولاية العهد[٢]. وبعد ذلك أصدر المأمون الأوامر بطرح السواد - شعار العباسيين - وأمر بلبس الخضرة، فكان رجال الدولة «يختلفون إلى المأمون في كل يوم مسلمين ولباسهم الثياب الخضر، ولم يكن أحد يدخل عليه إلا في خضرة، ولبس ذلك أهل بغداد أجمعون، وكانوا يخرقون كل شيئ رأوه من السواد على أحد ...»[٣]. كما ضرب العملات العباسية باسمه. ولم يكتف بذلك، بل وزوجه ابنته، وزوج ابنته الأخرى لمحمد بن علي الرضا[٤].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤٢٢/٥.

(٢) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص٤٠٤.

(٣) ابن طيفور، تاريخ بغداد، ص١٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٤٣١/٥.

وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الخطوة من جانب المأمون، فعلى حين يراها الطبري أمراً طبيعياً فيقول: «إنه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه، وأنه سماه الرضا من آل محمد»[١]، ويثني ابن طباطا على رأي الطبري، وإن كان يشكك في نوايا المأمون، فيذكر أن المأمون: «فكر في حال الخلافة بعده، وأراد أن يجعلها في رجل يصلح لها لتبرأ ذمته - كذا زعم - وأنه وجد علياً الرضا أطيب رجال البيتين»[٢]. في حين رأي القفطي أن الأمر لا يعدو أن يكون لعبة سياسية ماكرة من المأمون، قصد بها التلاعب بالعلويين وشيعتهم في الوقت نفسه، فقد فطن إلى أن تخفي العلويين عن العامة زادهم تقديساً في نظرهم ونسجوا حولهم الخرافات، ورأي أن الحل يكمن في منح العلويين الأمان حتى يخرجوا للعامة فيجدوهم كغيرهم، فتقل مهابتهم عندهم وينصرفوا من حولهم، وأن الأمر لن يتحقق بمجرد منحهم الأمان، بل بتنصيب إمام منهم. فيذكر أن المأمون: «قد رأي آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب متخشين متخفين من خوف المنصور، ومن جاء بعده من بني العباس، ورأي العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء فظنوا بهم ما يظنونه بالأنبياء ..... فنظر في هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال: لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم، وظلم الظالم لسقطوا من أعينهم، ولانقلب شكرهم لهم ذماً، ثم قال: إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً، وإذا فالرأي أن نقدم أحدهم ويظهر لهم إماماً، فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة في الآدميين فيتحقق للعوام حالهم، وما هم عليه مما خفي بالاختفاء، فإذا تحقق ذلك رددت الأمر إلى حالته الأولى»[٣].

والواقع إن تفسير القفطي لما قام به المأمون يجنح كثيراً إلى المبالغة، فميل المأمون للعلويين أمر مسلم به، خاصة أنه كان على مذهب المعتزلة، المعروف عنه تقديره للعلويين. وإذا أضفنا لذلك تأثير البيئة الفارسية التي تربي في كنفها المأمون، مع وجود المأمون نفسه في خراسان معقل الفرس والمتعاطفين مع العلويين، بجانب تأثير وزيره الفضل بن سهل الذي زين له الفكرة. كل هذه الأمور مجتمعة؛ يمكنها أن تفسر سر إقدام المأمون على هذه الخطوة.

---

(١) تاريخ الرسل، ٥٥٤/٨.

(٢) الفخري، ص ١٦٢-١٦٣.

(٣) تاريخ الحكماء، بغداد ١٩٠٣، ص ١٤٩-١٥٠.

أما عن وقع هذه الخطوة على سكان بغداد والعباسيين أنفسهم فكان مريراً، فيذكر الطبري أن البغداديين جاهروا بالعصيان وقال بعضهم: «لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج عن هذا الأمر من ولد العباس. وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل»[(١)]. ويكمل ابن الأثير تفاصيل المشهد فيقول: «فكان لذلك سوء الأثر في أهل بغداد، وكذلك شعر العباسيون بأن الضربة موجهة للقضاء على خلافتهم، فشقوا عصا الطاعة، وهموا بخلع المأمون واختيار خليفة سواه، وعارض زعماء البيت العباسي ذلك، فلم تأت آخر جمعة من هذه السنة حتى دعا لإبراهيم بن المهدي - عم المأمون - على المنابر خليفة بدلاً من المأمون ...»[(٢)].

تحرج موقف المأمون بعد ذلك، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وعزم على ترك مرو والتحرك نحو بغداد ل، استعادة سيطرته على الخلافة من جديد. وشاءت الأقدار أن يقضي الرضا نحبه في الطريق، حين تناول بعض العنب المسموم[(٣)]، فازاح عن كاهل المأمون عبئاً كاد أن يعصف بأركان حكمه. ولم يسلم المأمون من اتهامات البعض له بدس السم لعلي الرضا للتخلص منه؛ حتى ينجو من تلك الأزمة، لكنها اتهامات ينقصها الدليل، وحسبنا في ذلك أن علياً الرضا نفسه رفض هذا الاتهام، إذ يذكر الاصفهاني أن المأمون دخل على علي الرضا وهو يعاني سكرات الموت وقال له: «أعزز علي يا أخي بأن أعيش ليومك، وقد كان في بقائك أمل، وأغلظ علي من ذلك وأشد أن الناس يقولون أني سقيتك سماً وأنا إلى الله من ذلك برئ. فقال له الرضا: صدقت يا أمير المؤمنين، أنت والله برئ ...»[(٤)]. كما أن حالة الحزن التي بدا عليها المأمون بعد وفاته، توحي بمدى تأثره بهذه الحادثة، إذ يذكر اليعقوبي أن المأمون في جنازة الرضا كان يقول: «إلى من أروح بعدك يا أبا الحسن، وأنه أقام عند قبره ثلاثة أيام يؤتي في كل يوم برغيف وملح فيأكله، ثم انصرف في اليوم الرابع[(٥)]. وهذه الشهادة من مؤرخين معروفين بميولهم الشيعية تبرئ ساحة المأمون من تلك الفعلة. أما عن لبسه الخضرة شعار العلويين، فإنه لما رأى إلحاح الخاصة والعامة عليه في خلعه، فاستجاب لهم في النهاية، وأمر بطرح الثياب الخضر وعودة السواد مرة أخرى[(٦)].

(١) تاريخ الرسل، ٥٥٥/٨.

(٢) الكامل، ٥/ ٤٣٢.

(٣) مجهول، العيون والحدائق، ٤٤٤/٣.

(٤) مقاتل الطالبين، ص٤٠٧، ٤٠٨.

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٣/ ١٨١.

(٦) ابن طيفور، تاريخ بغداد، ص١٢.

مشكلة خلق القرآن

كان المأمون من أكثر الخلفاء حباً للعلم، ويعد عهده من أزهى عصور الخلافة العباسية من الناحية العلمية. كما كان أكثرهم شغفاً بالتيارات الفكرية التي تتصارع في جنبات خلافته. لذلك اهتم بمذهب المعتزلة وأعتنقه، وكان لهذا الأمر آثاره البعيدة على المجتمع العباسي، حيث عصفت بالمجتمع عديد من القضايا الفكرية التي كان لها كبير الأثر على الولايات العباسية. ومن هذه القضايا قضية خلق القرآن؛ فقد أدي اعتناق المأمون للاعتزال إلى تبنيه رأيهم فيما يخص القرآن، والذي يقول بأن القرآن مخلوق محدث وليس بقديم[١].

وقد رأى المعتزلة أن القرآن الكريم وهو كلام الله - عز وجل - مخلوق له وليس بقديم، وأنه صفة غير قائمة بذاته كما هو الحال بالنسبة للنعمة، فهو - عز وجل - منعم باعتبار صدور النعمة منه، ونعمه عز وجل كلها حادثة ومخلوقة له - عز وجل - وكذلك كلامه - تعالى - وإن كان صدر منه ولكنه حادث ومخلوق له تبارك وتعالى، وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي: «وأما مذهبنا في ذلك فهو: أن القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث أنزله الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون علماً ودالاً على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام، واستوجب منا الحمد والتقديس ...»[٢].

وعلى ذلك؛ فإنهم يرون أن الكلام هو ما انتظم من الحروف المسموعة المتميزة المتواضع على استعمالها في المعاني، وقالوا: إن الإنسان احتاج إلى وضع طريق يُعرف به غيره ما في قلبه من فنون الحاجات، فاصطلحوا على جعل هذه الأصوات المقطعة بهذه التقطيعات المخصوصة معرفة لما في قلوبهم من الأحوال، أما الله - تعالى -: فإنه أراد شيئا أو كره شيئاً خلق هذه الأصوات المخصوصة في جسم من الأجسام لتدل هذه الأصوات على كونه تعالى مريداً لذلك الشيء المعين، وهذا هو المراد من كونه - تعالى - متكلماً، والمعتزلة لا يثبتون لله كلاماً بحرف أو بصوت لئلا يثبتوا لله جسماً[٣].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٤٨/١٠.

(٢) شرح الأصول الخمسة، القاهرة ١٩٦٥، ص٥٢٨.

(٣) فخر الدين الرازي، خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة، تحقيق: أحمد حجازي السقا، بيروت ١٤١٣هـ.

وقد اختلف الباحثون حول السبب الذي من أجله اتخذ المأمون هذه السياسة حيال قضية خلق القرآن، وتمحور خلافهم حول ثلاثة دوافع؛ أولها فكري، والثاني ديني، والثالث سياسي. فهناك من رأى أن الدافع الفكري كان هو المحرك الأول له، فرأى أن هدف المأمون كان نشر فكر المعتزلة(١). أما الدافع الديني المرتبط بالمذهب الشيعي فقد انقسم إلى رأيين، الأول(٢) منهما يرى أن هدفه كان تدعيم المذهب الشيعي، وأن هذا الموقف كان جزءاً من محاولته لإحياء دور الشيعة الإمامية. والرأي الثاني(٣) يرى أن موقف المأمون كان نابعاً من نظرتة الشيعية لسلطة الخليفة في اختيار المذهب الديني لرعيته.

أما الدافع الثالث وهو الدافع السياسي، فيرى أصحابه(٤) أن المأمون هدف من ذلك إلى تأكيد أن سلطة الخليفة هي الأعلى في الأمور، سواء في الأمور السياسية أو الدينية.

والمتأمل للآراء السابقة يجد أنها لا تقدم دليلاً مقنعاً على ما ذهب إليه المأمون، فهو لم يحاول نشر أفكار المعتزلة أو فرضها بالقوة باستثناء قضية فرض القرآن، وبالتالى فالرأي الأول لا يستقيم مع الواقع. أما الآراء الخاصة بتأثره بالمذهب الشيعي فينقصها الدقة، فلم يكن المأمون ليغامر بنشر المذهب الشيعي، خاصة بعدما حدث حين اختار الرضا ولياً لعهده. وكذلك فيما يخص الرأي الثالث فلم يكن بحاجة لأن يثبت سلطته السياسية أو الدينية؛ لأنها كانت حقيقة بديهية.

---

(١) عن هذا الرأي انظر:

Kennedy، H.، The prophet and the age of the caliphates: The Islamic Near East from the Sixth to the Eleventh Century، (London، 1986)،p.163.

(٢)عن هذا الرأي انظر:

Sourdel، D.، " La politique religieuse du caliphe ' abbaside al-Ma'mun"، ***Revue des etudes islamiques*** 30، (1962)، pp.43-44.

(٣)عن هذا الرأي انظر:

Lapidus، I.، " The separation of state and religion in the development of early Islamic society"، ***International Journal of middle East Studies*** 6، (1975)،pp.379-382.

(٤)عن هذا الرأي انظر:

Corne, P.، Hinds.,M., God's Caliph: Religious authority in the First Centuries of Islam, (Cambridge، 1986)، pp.94-96 ; Zaman., Religion and politics under the early ' Abbasids: The emergence of the proto-Sunni Elite, (Lieden، 1997),pp.107-108.

وأقرب الآراء – في تصورنا – لتفسير دافع المأمون في هذه القضية، هو الرأي الذي يرى أن المأمون كان اهتمامه الأول بسلطته الشخصية كخليفة، وأنه كان يرى في نفسه وريثاً للنبوة وحامياً للدين، وأنه اختار عمداً الجدال الديني في قضية خلق القرآن؛ لأنه كان يتماشي مع هذا المنطق، ولأنه كان سيسمح له بالسيطرة على من ينافسون سلطته الدينية[١].

وقد تمثلت خطورة اعتناق المأمون لمذهب خلق القرآن، في أنه فرض هذا الرأي على الخاصة والعامة، وعقد المناظرات لنشره، ومن رفض هذا الرأي كان يسجن أو يضيق عليه، مهما كانت مكانته سواء من العلماء أو كبار رجال الدولة. وقد رأي بعضهم[٢] أن المأمون خص باهتمامه في هذه القضية ثلاث فئات: وهم القضاة، والمحدثين، والفقهاء، وبمعني آخر؛ استهدف من يعملون في مجال الشريعة والتفسير؛ فخصهم بالمناظرات والسؤال. بينما رأى آخر[٣] أن طبقة المحدثين هي التي نالت الاهتمام الأكبر من جانب المأمون فيما يخص هذه القضية، يدل على ذلك أن من تعرضوا للاضطهاد من جانبه كان أغلبهم من المحدثين.

وقد انقسم علماء الدين والفقهاء في مواجهة المأمون إلى فريقين، الأول: وضم غالبية علماء العراق، وقد جنح للسلم ووافق المأمون على رأيه تجنباً لبطشه، والفريق الثاني: وكان الأقلية، ووقف للمأمون بالمرصاد، ورفض مجاراته في هذا الرأي، فكان جزاؤهم الحبس والتنكيل بهم.

وقد تمادي المأمون في فرض رأيه عام ٢١٨هـ/٨٣٣م، فرغم خروجه في هذا العام لقتال البيزنطيين، إلا أنه لم ينس قضية خلق القرآن، واستغل توقفه بمنطقة الرقة أثناء مسيرته للقتال، وأرسل لعامله على بغداد إسحاق بن إبراهيم رسالة مطولة، يبين له فيها رأيه في قضية خلق القرآن، ثم يأمره بجمع القضاة في بغداد وعرض هذا الكتاب

---

(١)عن هذا الرأي انظر:

Vanessa.,D.,Qur'anic rhetoric in the politics of al-Ma'mun's caliphate, Ph.D, diss. (University of Chicago) 2008, p.240-241.

(٢) عن هذا الرأي انظر:

Nawas، J.، " The Mihna of 218 AH/833 CE Revisited: An Empirical study"، ***Journal of American Oriental studies*** 116، (1996)، p.707.

(٣) عن هذا الرأي انظر:

Zaman، M., " The Caliphs، the 'Ulama' and the law: Defining the role and function of the early ' Abbside period' '.***Islamic Law and Society*** 4, (1997),pp.28-29.

عليهم، فمن وافقه فليطلق سراحه بعد أن يشهد الناس على ذلك، ومن عارضه فيلقي به في السجن(١). وقد حفظ لنا الطبري نص هذه الرسالة، ونورد هنا جزءاً منها يعبر عن فكر المأمون فيما يخص قضية خلق القرآن، فيقول: « ... وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ... في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله، وعمي عنه، .. لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكر والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله - تبارك وتعالى - وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه، ولقد قال الله - عزَ وجل - في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة وهدي : ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾(٢)، فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾(٣)، وقال - عز وجل - : ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾(٤)، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها، وتلا به متقدمها ...(٥).

وتوحي الرسالة السابقة بما كان يؤمن به المأمون، وقد أعقب كلامه عن خلق القرآن بأوامر صارمة بجمع القضاة وامتحانهم في القضية، وبالفعل جمع إسحاق القضاة، ولما سألهم نزلوا على رأي المأمون بأن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق سراحهم.

ويبدو أن المأمون لم يرض عن هذه النتيجة، أو ربما اقتنع بأنه لم يكن كافياً، فعاود الكرة لكنه أرسل هذه المرة إلى إسحاق يأمره بإرسال سبعة من كبار الفقهاء إليه ليمتحنهم بنفسه في الأمر، ومنهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي، ويحيى بن معين وغيرهم، وأطاع إسحاق الأمر فأرسل إليه هؤلاء الفقهاء، وامتحنهم المأمون بنفسه، فرضخوا لرأيه، وأقروا بخلق القرآن، فأرسلهم لبغداد، وأمر بعرضهم على المشايخ والفقهاء لإثبات قبولهم بالأمر(٦).

ولم يكتف المأمون بذلك، بل أرسل لإسحاق من جديد يأمره بجمع باقي الفقهاء وأن يستفتهم في أمر القرآن، وأن يطلعه على ما انتهى إليه أمرهم، فنزل معظمهم على رأي المأمون ما عدا أربعة منهم، على رأسهم الامام أحمد بن حنبل، الذي أصر على رفض رأي المعتزلة في القرآن، فأمر المأمون بحبسهم ووضع الأغلال في أقدامهم

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ١٧/١١.
(٢) سورة الزخرف، الآية رقم ٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية رقم ١.
(٤) سورة طه، الآية رقم ٩٩.
(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٣٢/٨.
(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ١٨/١١.

وأيديهم، وأن يرسلوا إليه في طرسوس، لكن موت المأمون حال بينهم وبينه فعادوا مرة أخرى إلى بغداد[١].

ويبدو لنا مما سبق؛ اصرار المأمون على رأيه، وحرصه على متابعة الأمر بنفسه بشكل تبدو فيه روح التعصب، حتى أنه أوصى أخيه المعتصم - وهو يوصيه بالخلافة من بعده - بالاستمرار على هديه في قضية خلق القرآن[٢]. وعلى الجانب الآخر؛ تباين موقف الفقهاء من هذه القضية، فعلى حين جنح أغلبهم للسلم خوفاً من بطش المأمون، خاصة مع رد فعله العنيف ضد معارضيه في رأيه، نجد أن هناك من رفض مجاراته ووقف ضده حتى النهاية، برغم ما قام به من إجراءات عنيفة ضدهم، وهو أمر يحسب لهم.

وبرغم ما يوحي به ذلك من تعصبه الفكري، إلا أن ذلك لم يكن هو دأبه في النواحي الفكرية الأخرى، حيث كان من المعروف عنه أنه كان يفسح صدره نقاشاً للعلماء في المناظرات التي كان يعقدها بقصره.

الثورات الداخلية

تولي المأمون الخلافة في فترة حبلى بكثير من المشاكل، خاصة بعد الصراع المرير الذي خاضه ضد أخيه الأمين، وقد امتدت هذه المشاكل لتشمل جناحي الخلافة في المشرق والمغرب، وكان أغلبها حركات تمرد سياسية واجتماعية ومذهبية، وكان عليه أن يتصدى لها بكل قوة، حتى يعيد للخلافة هيبتها، ويمكن لأركان حكمه، ومن أهم هذه الحركات:

حركة بابك الخرمي

تعد هذه الحركة واحدة من أهم الحركات الدينية والسياسية التي واجهتها الخلافة العباسية، ليس لمقدرة قائدها وحنكته فحسب، بل لأنها كانت حركة ذات طابع ديني وقومي فارسي، مما جعلها تجتذب كثيراً من الفرس، وتتوغل في جناح الخلافة الشرقي، وتصمد لسنوات طويلة في مواجهة الجيوش العباسية. وتنتسب هذه الحركة إلى رجل فارسي يدعي بابك، أما الخُرمية فهم طائفة مجوسية تدين بالعقيدة

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٤١/٨.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٤٧/٨.

المزدكية التي تؤمن بتناسخ الأرواح والحلول، وتدعوا لاستباحة الأموال والنساء وأنها مشاع بين الناس، وقد جذب حوله بذلك كثيراً من الأتباع[١].

وقد بدأت هذه الحركة في اذربيجان عام ٢٠١هـ/٨١٦م، ثم توسعت في المناطق المجاورة لها مستغلة حصانة موقعها وانشغال الخلافة العباسية عنها بمشاكلها الداخلية والخارجية، فقد كان المأمون مشغولا بمواجهة الثورات التي اندلعت ضده في مصر والشام، بجانب ثورات العلويين، وغارات البيزنطيين. يضاف لذلك؛ أن واليه على أذربيجان، حاتم بن هرثمة بن أعين، حينما علم بموت أبيه خلع عصا الطاعة وهادن بابك ولم يقاتله[٢].

ونظراً لانشغال المأمون بمواجهة هذه المشاكل، فإنه لم يحرك ساكناً تجاه هذه الحركة قبل عام ٢٠٤هـ/٨١٩م، حينما أرسل حملة بقيادة يحيى بن معاذ لمواجهة بابك وأتباعه، لكن الأخير فشل في القضاء على بابك؛ نتيجة حصانة موقعه وبأس أتباعه فعاد يجر أذيال الخيبة [٣]. ثم أعاد المأمون الكرة بإرسال حملات متتالية للتخلص من بابك، لكنها لقيت مصير سابقتها نفسه من الفشل الذريع.

ولاشك أن لنجاح بابك وحركته أسبابه، وقد حاول اليعقوبي أن يفسر ذلك فعزاه إلى حصانة موقع بابك فقال: «وكان أصحاب بابك أدري بمسالك الجبال، وأعرف بالخطط اللازمة لها؛ فكانوا يحصرون أعداءهم في المضايق وينقضون عليهم»[٤]. وهذا تفسير منطقي لنجاح بابك في صد هجمات العباسيين، لكن لابد أن نضيف لذلك أن الطابع القومي والديني الذي غلف هذه الحركة كان له فعل السحر في نفوس أتباعه، فقد نجح في إقناعهم أنها حرب للفرس ضد العرب الذين سلبوهم أرضهم ومجدهم القديم، بجانب التأثير الديني الذي جعلهم يحاربون دفاعاً عن عقيدتهم، مما زادهم قوة وصلابة في مواجهة جيوش العباسيين.

وظل المأمون حتى آخر أيامه يحاول القضاء على هذه الحركة التي استفحل خطرها لكنه فشل في ذلك، ورغم ذلك فإنه لم يستسلم حتى أنه أوصى أخاه المعتصم حين وافته المنية بمواصلة قتالهم حتى القضاء عليهم، فقال له: «فالخرمية فاغزهم

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص٢٩٥؛ ابن النديم، الفهرست، ص٢٧٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٤٣٢/٥؛ ابن الجوزي، المنتظم، ١٠٠/١٠.

(٣) الذهبي، دول الاسلام، ص١١٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ١٨٩/٣.

ذا حزامة وصرامة وجلد، وأكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة؛ فإن طالت مدتهم، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه، راجياً ثواب الله عليه ...»(١).

ثورة الزط

تعد هذه الثورة من أخطر الثورات التي واجهت المأمون، وقد قامت بها عناصر من الهنود تسمي الزط(٢). وكانت هذه العناصر قد استقرت في بداية العصر العباسي مع أهلهم ومواشيهم الهندية في جنوب العراق، وتحديداً في بطائح البصرة. وكان هذا الاستقرار راجعا لهجرات لهذه العناصر لتأزم الظروف الاقتصادية في بيئتهم الأم(٣). وكان استقرارهم في بطائح البصرة مرجعه تشابه تلك البيئة الجديدة مع بيئتهم الأم في السند، وهي بطائح نهر مهران، التي كانوا يعيشون بها على صيد الأسماك، وتربية الجاموس في البراري. كما كان اتجاههم لتلك المنطقة تحديداً راجعاً لوجود عناصر منهم تم توطينها في تلك المنطقة بمعرفة الدولة الأموية خلال العقد الأخير من القرن الأول الهجرى/السابع الميلادي، بعد أن تم أسرهم في المعارك التي خاضها المسلمون لفتح السند(٤).

وكان عنصر الزط دائمي التمرد في السند، ويبدو أنهم حملوا تلك العادات في موطنهم الجديد خلال العصر العباسي، بجانب أنهم عاشوا ظروفا اقتصادية واجتماعية قاسية، دفعتهم للعمل في قطع الطرق على التجارة القادمة من البصرة لبغداد، كما جذبوا إليهم العناصر الساخطة من الموالي والعبيد، وعاشوا حياة اللصوصية. وقد استغلوا الصراع الذي دار بين الأمين والمأمون، وقاموا بقطع الطريق بين بغداد والبصرة، وأدى ذلك بالطبع لتهديد هذا الطريق التجاري الحيوي، وجعل القوافل التجارية تتجنب المسير فيه، مما أثر على الأوضاع الاقتصادية في العراق بوجه عام(٥).

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٨/ ٦٤٩.

(٢) واسمهم الأصلي هو (الجت)، وتطلق المصادر الإسلامية عليهم اسم الزط، وهم الزنوج من الهنود، ولمزيد من التفاصيل عنهم انظر، البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٦٦-٤٦٩.
Elliot، H. & Doson، J.، The History of I ndia as Told by its Own Historians، The Muhammadan Period، vol.I، (Frankfurt،1997)، pp.507-508 ; 519-530 .

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٠٧ .

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٦٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٤٥٥/٥.

لذلك شرع المأمون بعد أن دانت الأمور له في تجريد الحملات عليهم بداية من عام ٢٠٥هـ/٨٢٠م، لكنه لم يتمكن من القضاء على خطورتهم[١]. وتبدو الصعوبة التي واجهها المأمون في مواجهة الزط، فيما قاله نصر بن شبث أثناء خروجه على المأمون: «لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت رجليه - يعني الزط - فكيف يقوى على حلبة العرب»[٢]. وبرغم المبالغة الواضحة في مقولة بن شبث، إذ كانت أعداد الزط تفوق ذلك بكثير، فإنها تنم - بلا شك - عن القلاقل التي سببها هؤلاء للخلافة العباسية.

الثورات في مصر

كانت مصر مسرحاً لعديد من الثورات ضد الحكم العباسي، خلال عهد المأمون، وسوف نتناول هنا أهم هذه الثورات، ومنها:

ثورة الأندلسيين

كانت مصر قد خرجت عن سيطرة العباسيين خلال عهد المأمون، واستغل العرب بها الأحداث التي صاحبت الخلاف بين الأمين والمأمون، بجانب ضيق المصريين من الحكم العباسي نتيجة الضرائب الفادحة التي فرضها الولاة عليهم، وحاولوا الاستقلال بها، فنجح أحدهم ويدعى «السري بن الحكم» في حكم صعيد مصر، والأخر ويدعى «عبد العزيز الجروي» في حكم الوجه البحري[٣].

وزاد الطين بلة أن عدداً كبيراً من الأندلسيين، الذين فروا من الأندلس بعد ثورة الربض في عهد الخليفة الأموي الحكم بن هشام ١٩٧-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م؛ اتجهوا إلى الإسكندرية وأقاموا على ساحل البحر، وكان عددهم زهاء ثلاثة آلاف رجل. وكان هؤلاء من سكان حي الربض في قرطبة، وقد ثاروا ضد الحكم نتيجة رفضهم لسلوكه مع أهل قرطبة. وقد واجه الحكم هذه الثورة بعنف شديد، جعل أهل قرطبة يطلبون منه العفو، لكنه ربط منحهم العفو بمغادرة من شارك منهم في الثورة خارج الأندلس، فخرج بعضهم نحو المغرب، وانطلق آخرون نحو مصر عام ٢٠٢هـ/٨١٧م[٤]. وفي البداية لم يظهر الأندلسيون العداء نحو أهل الإسكندرية، لكن خلافاً نشب مع

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ١٤٢/١٠.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٩٩/٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٦١٠/٨-٦١١.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٤١٣/٥-٤١٤.

بعض الأهالي جعلهم يستغلون الأمر، واستولوا على المدينة وبسطوا عليها سيطرتهم. وبذلك انقسمت مصر إلى ثلاثة أقسام منفصلة[١].

ولم يقف المأمون مكتوف الأيدي وهو يرى مصر توشك أن تضيع من بين يديه، لذلك وجه جيشاً كبيراً إلى مصر، ولم يجد الجيش صعوبة في مواجهة عبد العزيز الجروي الذي أعلن خضوعه للمأمون واستسلم للجيش العباسي، لكن السري بن الحكم قاوم بشدة، وفشل الجيش العباسي في إخضاعه أو إخضاع الأندلسيين[٢].

وأدرك المأمون أن الأمر يستلزم قائداً قوياً كي يتمكن من إعادة الأمور في مصر للسيطرة العباسية، فكان عليه انتظار عبد الله بن طاهر حتى ينتهي من مهمته في مواجهة نصر بن شبث في بلاد الشام، قبل أن يوجهه للقضاء على المتمردين في مصر. وبالفعل توجه عبد الله بن طاهر إلى مصر عام ٢١٠هـ/٨٢٥م، وبدأ بحصار السري حتى استسلم وطلب الأمان. ثم انتقل بعدها للإسكندرية حيث حاصر الأندلسيين حصاراً شديداً، حتى استسلموا له عام ٢١٢هـ/٨٢٧م، ورفض بقاءهم في مصر فرحلوا إلى جزيرة كريت واستقروا هناك[٣].

ثورة الأقباط

كان الخراج في مصر من المشكلات المستعصية، التي كانت تسبب كثيراً من الثورات وحركات التمرد في مصر من جانب العرب والأقباط، حيث دأب معظم ولاة مصر وعمال خراجها على المغالاة في جمعها، والتشدد في ذلك، ومن ذلك ما يقوله المقريزي عن أحد عمال الخراج في مصر عام ٢١٣هـ/٨٢٨م: «ظلم الناس، وزاد عليهم في خراجهم، فانتفض أهل أسفل الأرض وعسكروا»[٤].

وقد تعددت الثورات التي نشبت في مصر خلال عهد المأمون بسبب ذلك، ومن أهم هذه الثورات وأبعدها تأثيراً ثورة البشمور - أو البشرود - شمال مصر عام ٢١٦هـ/٨٣١م. وقد عرف أهل البشمور بغلظة طباعهم وميلهم للتمرد والثورة، وقد شجعهم على ذلك طبيعة المنطقة التي كانوا يعيشون فيها، حيث كانوا يسكنون المنطقة

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٦١٣/٨.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٧/٣.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٦١٣/٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٢١٧/١٠.

(٤) الخطط، ٩٩/٢-١٠٠.

الرملية على ساحل الدلتا بين فرعي دمياط ورشيد، وهي منطقة تكثر بها المستنقعات والأوحال التي تعيق حركة الجند[١].

ولم يتمكن والي مصر من مجابهة هذه الثورة، فأرسل يستغيث بالمأمون، الذي أرسل بدوره قائده الأفشين الذي عجز عن إنهاء هذا التمرد بالقوة، فحاول أن يستخدم الوسائل السلمية، فضغط على بطريرك الأقباط في مصر، وكان يدعى يوساب حتى جعله يرسل منشوراً لأقباط البشمور يطلب منهم إنهاء هذا التمرد والخضوع لسلطة الوالي، لكن البشموريين لم يلقوا بالاً لمنشور بطركهم، واستمروا في ثورتهم، مما جعل الأفشين يبعث للمأمون يخبره بخطورة الوضع، وهنا قرر الأخير أن يقدم بنفسه إلى مصر ليضع حداً لهذه الفوضى[٢].

وكان على المأمون القدوم إلى مصر حتى يعيد الأمور إلى سيرتها الأولى[٣]، ويبدو أنه اطلع على مجريات الأمور، فبدأ أمره بلوم واليه على مصر؛ لتسببه في هذه الأحداث قائلاً: «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد»[٤].

وحاول المأمون أن يجنح للسلم في البداية، فحاول استخدام التأثير الديني على البشموريين بالاستعانة ببطاركتهم، ولم يكتف هذه المرة ببطريرك مصر، بل استعان ببطريرك إنطاكية ويدعي ديونوسيوس، فأرسلا للمتمردين منشوراً يدعونهما للتسليم مع وعد بالعفو العام عنهم، لكن هذا المنشور لم يزدهم إلا استكبارا، واستمروا في ثورتهم. وهنا أدرك المأمون أن القوة هي الخيار الوحيد لحل تلك الأزمة، فحمل عليهم حملة شديدة وهزمهم، ولم يكتف بذلك بل حرق مساكنهم وهدم كنائسهم جزاءً وفاقاً لرفضهم الانصياع لطاعته، وما سببوه من فوضي وتخريب[٥].

---

(١) سيدة الكاشف، مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة ١٩٩٤، ص٢٣٧.

(٢) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت ١٩٠٨، ص ١٩٠-١٩١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٤٩٨/٥.

(٤) الكندي، الولاة، ص١٩٢.

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٩٢/٣؛ المقريزي، الخطط، ٩٩/٢.

ثورة نصر بن شبث

كان الجفاء هو الشعور الذي أصاب أهل الشام تجاه العباسيين منذ أن اتخذوا من العراق قبلتهم، وولوا وجوههم شطرها، وزاد من هذا الجفاء ميل العباسيين للعنصر الفارسي على حساب العرب، مما أوغر صدورهم، وصارت الشام مسرحاً لعديد من الثورات ضد الحكم العباسي، كان أشهرها خلال عصر المأمون ثورة نصر بن شبث.

وكان بن شبث في بادئ أمره يعمل والياً للخليفة الأمين، ثم انقلب عليه، ثم واصل تمرده في عهد المأمون مدعياً أنه يثور للعرب ضد انحياز المأمون للفرس. وقد نجح نصر في جذب كثير من الأنصار وبسط سيطرته على أجزاء كثيرة من الشام[١]. وقد أدرك المأمون خطورته فكلف قائده طاهر بقتاله، لكن الأخير فشل في القضاء عليه. ويلمح ابن الأثير إلى أن طاهراً تقاعس في مواجهة نصر نتيجة عدم مكافأة المأمون له على جهوده في العراق فيقول: «والظاهر أن طاهراً بن الحسين لم يكن جاداً في حرب نصر بن شبث، لأنه رأى نفسه جرد مما فتحه في العراق وغيره، ولم يتمتع بشيء مما جناه»[٢].

وعقب وصول المأمون لبغداد استدعى طاهراً، وولى مكانه ابنه عبد الله في قتال بن شبث، وكان عبد الله أكثر جدية من والده في هذه المهم، فحاصر ابن شبث حتى أجبره على طلب الصلح، ووافق المأمون على منح نصر الأمان حتى يتخلص من خطره، وانتهت بذلك ثورته عام ٢١٠هـ/٨٢٥م، بعد خمس سنوات من القتال ضد العباسيين[٣].

سياسته الخارجية

تمتعت الخلافة العباسية زمن المأمون بعلاقات خارجية واسعة شرقاً وغرباً، ساعدها على ذلك مساحتها المترامية الأطراف، وقد اختلفت السياسة الخارجية للمأمون بحسب طبيعة كل جار له، فجمعت مابين الود والعداء، وحكمتها المصالح المشتركة والظروف الداخلية للخلافة وجيرانها. ومن أهم الكيانات السياسية التي ارتبطت بها الخلافة العباسية زمن المأمون بعلاقات خارجية:

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٢٧/٨.

(٢) الكامل، ٤١٣/٥.

(٣) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص٧٦.

مع البيزنطيين

ورث المأمون عن أبيه وأسلافه تركة ثقيلة في مواجهة البيزنطيين، ورغم أن الظروف السياسية في بداية عهده، وصراعه الدموي مع أخيه الأمين كانت كافيه لإغراء البيزنطيين لاغتنام الفرصة ومهاجمة الثغور العباسية، إلا أن الأقدار كانت رحيمة بالمأمون، فألقت الإمبراطورية البيزنطية في بحور عميقة من الخلافات شغلتها عن التفرغ لجارها اللدود.

وقد بدأ المأمون علاقته بالبيزنطيين بالمواجهة غير المباشرة، فلم تكن ظروفه خلال سني حكمه الأولى تسمح بغير ذلك، في ظل معاركه التي دخلها ضد أعدائه في الداخل، ورغم انغماسه حتى أذنيه في مواجهة تلك الأخطار التي أحدقت بكرسي حكمه، إلا أنها لم تصرفه عن الاهتمام بعدوه الذي يقبع على حدوده باسطاً ذراعيه بالوصيد، يتأهب للانقضاض عليه في أية لحظة. لذلك حاول المأمون أن يستغل الخلافات الداخلية والثورات التي اندلعت ضد الدولة البيزنطية، من أجل الكيد للبيزنطيين وتحقيق بعض المكاسب على حسابهم، دون الدخول في مواجهة مباشرة، ومن ذلك مساعدته للثائر توماس الصقلي، الذي تمرد على الإمبراطور البيزنطي وحاول الاستيلاء على العرش في الفترة ٢٠٥-٢٠٧هـ/ ٨٢٠-٨٢٢م.

وقد راسل المأمون توماس ووعده بتقديم المساعدة العسكرية له من أجل الوصول للعرش البيزنطي، في مقابل ولائه للعباسيين وأدائه الجزية لهم[١]. وحتى يضمن له شرعية حكمه أمر بطريرك أنطاكية التابع له أن يتوجه كإمبراطور، لأنه كان من الصعب أن يحصل على هذا التتويج من بطريرك القسطنطينية. وقد رأي أحد المؤرخين المحدثين أن هذا التتويج قصد به المأمون أمراً أسره في نفسه وهو تأكيد تبعية توماس له، بعد أن يتوجه بطريرك أنطاكية التابع للمأمون، وفي هذا اعتراف ضمني من توماس بخضوعه لسلطة الخليفة العباسي[٢]. لكن أحلام المأمون سرعان ما تحطمت على صخرة الواقع بعد فشل توماس، حيث سيق إلى الإمبراطور البيزنطي الذي أمر بإعدامه.

لكن المأمون سرعان ما عدل عن هذه السياسة، واتجه للمواجهة المباشرة مع البيزنطيين، ربما بعد استتباب أمور الخلافة نوعاً ما، كذلك بعدما تواترت إليه الأخبار

---

(١) حسن أحمد محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة (ب.ت)، ص١٧٣.

(٢) عن هذا الرأي انظر :

Burey، B.، History of Eastern Roman Empire، (London، 1912)، p.89.

بإيـواء الإمبراطـور البيزنطـي ثيوفيـل ٢١٤-٢٢٨هـ/٨٢٩-٨٤٢م بعـض الخارجـين علـى المأمون من جهة، ومساعدته لبابك الخرمي من جهة أخرى، وذلك انتقاماً من المأمون لموقفه من ثورة توماس الصقلي. يضاف لذلك أن أحد اللاجئين البيزنطيين، ويدعي مانويل وصل إلى بغداد وعرض خدماته على المأمون، لمساعدته ضد الإمبراطور البيزنطي في مقابل منحه حكم بعض المناطق[١].

كانت الأسباب السابقة كافية لتقوي من عزيمة المأمون فعزم على المسير نحو ثغور بلاد الشام، وبدأ أولى حملاته عام ٢١٥هـ/٨٣٠م مصطحباً معه ابنه العباس واللاجئ البيزنطي مانويل، وقد قسم المأمون قواته قسمين، فجعل قسماً تحت قيادته، والقسم الآخر تحت قيادة ابنه العباس بصحبة مانويل[٢]. وقد كان مسرح عمليات المأمون منطقة قبادوقية، حيث نجح في اقتحام كثير من الحصون البيزنطية فيها، أما العباس فنجح في ضم بعض الحصون في منطقة ملطيةً وترك عليها مانويل وفقاً للاتفاق المبرم بينهما، لكن الأخير سرعان ما أعلن خضوعه للإمبراطور البيزنطي؛ مما جعل المأمون يهاجمه ففر هارباً[٣]، واكتفى المأمون بما حققه من انتصارات، وقفل عائداً إلى بغداد لكي يواصل مواجهة ثورة بابك الخرمي.

وقد استغل ثيوفيل عودة المأمون وانشغاله بحرب بابك، وحاول أن يسترد ما فتحه المأمون من حصون، فهاجم تلك الحصون واسترد بعضها، ولم يكتف بذلك بل هاجم بعض الثغور الإسلامية، واستولى على بعضها. وقد أثارت حملة ثيوفيل المأمون، فعزم على الخروج في حملة ثانية عام ٢١٦هـ/٨٣١م، ويبدو أن الحملة كانت من الضخامة بحيث أثارت قلق الإمبراطور البيزنطي، الذي كان قد تورط في مشاكل داخليه جعلته يخشى الدخول في مواجهة جديدة مع المسلمين، فجنح للسلم وأرسل للمأمون يطلب الصلح والهدنة لمدة خمس سنوات، مقابل أن يسلمه بعض الأسرى ومائة ألف دينار[٤]، لكن الأخير أعرض عنه ونأى بجانبه وقرر المضي في حملته قدماً، فهاجم المناطق التي استولى عليها البيزنطيون، كما استطاع أن يستولي على عدد كبير

(١) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص ١٤٤.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٢٣/٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٢٦٥/١٠-٢٦٦.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٩٢/٣.

(٤) مجهول، العيون والحدائق، ٣٧٥/٣.

من الحصون البيزنطية زاد عددها على العشرين، لكنه سرعان ما اكتفى بذلك وقفل عائداً نحو الشام ليواجه الثورة التي نشبت في مصر[١].

ولم يكد المأمون يفرغ من أمر مصر حتى عاود الكرة بحملة ثالثة في العام التاإى ٢١٧هـ/٨٣٢م، وحققت هذه الحملة انتصارات كبيرة، واستولت على حصن اللؤلؤة، وهو أهم الحصون البيزنطية. وأمام هذه الانتصارات القوية جدد ثيوفيل رغبته في عقد معاهدة سلام مع المأمون، وأرسل له رسالة طويلة جمعت بين اللين والشدة ترغبه في السلام مع البيزنطيين[٢]. لكن المأمون صم أذنيه أمام دعواته، ليس من أجل لهجة الرسالة التي أغضبته فقط، ولكن لأن حلم دخول القسطنطينية كان لا يزال يداعب خياله، لكن القدر لم يمهله لتحقيق ذلك، حيث توفي عام ٢١٨هـ/٨٣٣م[٣].

مع الفرنجة

كانت علاقة العباسيين مع الفرنجة يلفها الغموض - كما سبق وذكرنا - إذ نفتقد أية إشارات عنها في المصادر العربية، وبالتالى فإن معلوماتنا عنها يشوبها الحذر. وخلال عهد المأمون، تشير المصادر الغربية إلى استمرار العلاقات الودية بين مملكة الفرنجة والعباسيين، وهو ما تمثل في السفارة التي أرسلها لويس التقي خليفة شارلمان إلى المأمون عام ٢١٦هـ/٨٣١م[٤]. ولم توضح لنا المصادر تفاصيل أو الغرض من هذه الزيارة، لكن وفق التصور العام للعلاقة بين العباسيين والفرنجة، فإنها كانت استكمالاً للعلاقات الودية بين الطرفين.

مع الهند

خلال عهد المأمون استمرت العلاقات الودية الرسمية بين الخلافة العباسية ومملكة البنغال، وهي العلاقات التي بدأت منذ عهد سلفه المهدي، إذ قام حاكم البنغال بإرسال رسالة مطولة مع هدية فخمة إلى المأمون، ومن حسن الحظ أن بعض

(١) ابن طيفور، تاريخ بغداد، ص١٤٥.

(٢) راجع نص الرسالة عند الطبري، تاريخ الرسل، ٦٢٩/٨-٦٣٠.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٩٦/٣.

(٤) ارشيبالد لويس، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة : أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٥٥، ص١٩٨.

المصادر التاريخية قد حفظت لنا نص تلك الرسالة، ورد المأمون عليها[١]. وتبدأ الرسالة بافتخار دهمي حاكم البنغال بنفسه، ثم يتبعها بإطراء للمأمون وبيان شرفه، ثم يوضح بعد ذلك سبب تلك الرسالة، وهو ما تنامى إليه من حب المأمون للعلم، وتوافق تلك الصفة مع ميول دهمي، لذلك أرسل مع الرسالة واحداً من أهم كتب الهند، بجانب بعض الهدايا الثمينة الأخرى. وتفصح لغة الرسالة عن مدى تقدير دهمي للمأمون، وحرصه على استمرار الصلات الودية بين الطرفين. وعلى الجانب الآخر؛ رد المأمون عليه برسالة أعرب فيها عن سروره من رسالة دهمي، كما أرسل له كتاباً عربياً مع بعض الهدايا الثمينة.

ومن السهل علينا تحديد هوية الحاكم الذي تطلق عليه المصادر اسم دهمي، وقد رأى أحد الباحثين[٢] أن دهمي هو الملك دهارمابالا، وأن تاريخ الرسالة يعود لعام ١٩٨هـ/٨١٣م، وأنه أرسل تلك الرسالة فور اعتلائه عرش المملكة. لكن الجزء الثاني من افتراضه يهدم هذا الافتراض من أساسه، لأن دهارمابالا توفي عام ١٩٤هـ/٨٠٩م، وبالتالي لا يمكن أن يكون قد أرسل تلك الرسالة. والواقع أن المصادر التاريخية لم تقصد هنا بدهمي اسم الحاكم، وإنما اللقب العام الذي كان يطلق على حكام تلك المملكة. ويؤكد ذلك أن هذا الاسم تكرر في عديد من المصادر بأشكال مختلفة، وفترات زمنية مختلفة، إذ ذكره كل من ابن خرداذبه (ت ٢٣٢هـ/٨٤٦م)، وابن الفقيه (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م)[٣]، وغيرهم. أما الحاكم المقصود هنا فهو ديفابالا ابن دهارمابالا.

وفي الإطار نفسه يتحدث ابن الزبير عن هدية أحد ملوك الهند للحسن بن سهل[٤]، بمناسبة زواج ابنته بوران من المأمون عام ٢١٠هـ/٨٢٥م[٥]، ومن الواضح هنا

(١) عن نص هاتين الرسالتين انظر، ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٢١ - ٣٢؛ ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق: عباس العزاوي، القاهرة، ١٩٤٦، ص٥٠- ٥٢؛ الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ٢٥٧ - ٢٦٠.

(٢) عن هذا الرأي انظر،

Dunlop، M.، " A diplomatic Exchange between al – Mamun and Indian King "، in Medieval and Middle Eastern Studies in Honor of Aziz Suryal Atiya، (London1972،)، pp. 133 – 143 .

(٣) المسالك والممالك،، نشر دي غويه، ليدن ١٨٨٩، ص ٦٥؛ مختصر تاريخ البلدان، نشر دي غوية، ليدن ١٨٨٥م، ص ١٥.

(٤) هو أبو محمد بن الحسن بن سهل عبد الله السرخسي، وقد تولي الوزارة للمأمون بعد أخيه الفضل انظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٢٠/٢ .

(٥) انظر، ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٣٢، وعن بوران انظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٨٧/١.

أن هذا الملك هو ديفابالا أيضاً، نظراً للصلات الطيبة التي تربطه بالمأمون، وهو يقصد من ذلك بالطبع مجاملة الحسن بوصفه وزير المأمون وصهره، في إطار العلاقات الطيبة بين الجانبين.

وفاته

حكم المأمون لفترة طويلة قاربت على العقدين من الزمان، شهدت الخلافة العباسية خلالها واحدة من أزهي عصورها، لكن القدر لم يكن رحيماً بالمأمون، فكتب له نهاية لم يتوقعها، ربما كانت جزاء وفاقاً لبعض ما اقترفته يداه. ولدينا روايتان تذكران الحادثة التي تتعلق بموته، والروايتان تختلفان في التفاصيل، لكنهما يتفقان في موته بحمى غريبة. والرواية الأولى: تذكر أنه كان يجلس على شاطئ نهر في يوم بارد الحرارة مع أخيه المعتصم ورجل ثالث، ثم أرسل في طلب بعض الرطب، فلما أكلوا منه أصيبوا جميعا بالحمى، وكان تأثير الأخيرة شديداً على المأمون فلم يشف منها، وكان فيها نهايته[(١)]. أما الرواية الثانية: فتذكر أنه بينما كان يجلس على شاطئ نهر رأى سمكة كبيرة، فأمر بجائزة لمن يأتي بها، ونجح أحد رجاله في الظفر بها، ولما دنا من المأمون ليريه إياها قفزت في الماء، ونضحت هذه القفزة كمية كبيرة من الماء، فابتل معظم جسد الخليفة، وأصيب بالحمي من ساعته، وفشل الأطباء في علاجه[(٢)].

وهكذا قدر لهذه الصفحة من تاريخ الخلافة العباسية أن تطوى، صفحة امتلأت بكثير من الحوادث الجسام التي ضربت جسد الخلافة، وتصدي لها المأمون ببراعة وحنكة شديدتين، فاستحق أن يسطر اسمه في سجل العظماء من الحكام على مر التاريخ الإسلامي.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٤٦/٨-٦٤٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٦/٦.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٤٧/٤-٤٨.

الفصل السابع

خلافة المعتصم بالله

٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م

شخصية المعتصم

هو المعتصم بالله أبو إسحاق محمد - وقيل أحمد - بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أمه أم ولد تدعي ماردة، من مولدات الكوفة لكنها تركية الأصل، وكانت أحظى النساء عند الرشيد، وماتت قبل أن يتولي ابنها الخلافة[١]. وقد وصف بأنه: «أبيض اللون مشرباً بحمرة، أصهب اللحية، حسن الجسم مربوعاً، طويل اللحية، شجاعاً شديد البدن»[٢].

كذلك اشتهر المعتصم بين خلفاء بني العباس بأنه الخليفة الْمُثمن، حيث ولد سنة ثمانين ومائة، وهو ثامن الخلفاء، والثامن من ولد عباس، وملك سنة ثماني عشرة، وفتوحاته المشهورة ثمانية، وله من الولد ثمانية بنين، وثمانِ بنات، ومات وعمره ثمانية وأربعون سنة، وخلافته ثمانِ سنين وثمانية أشهر[٣]. يضاف لذلك أنه أول من أضاف الخلافة إلى اسم الله - عز وجل - وأول خليفة تتوج، حيث وضع على رأسه تاجاً مرصعاً بالجواهر[٤].

وأفرطت المصادر في الحديث عن قوته وشجاعته بدرجة ربما وصلت حد المبالغة، لكنها توحي بلا شك بمدى ما تمتع به من المعتصم من بأس وصرامة، مكنته من القضاء على عديد من المشكلات التي لم يستطع أخوه المأمون حسمها. فذُكر أنه: «لم تجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعها بباب المعتصم، ولا ظفر ملك كظفره، أسر

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٩٣؛ الذهبي، سير أعلام، ٢٩٠/١٠.

(٢) القلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار فراج، بيروت ٢٠٠٦، ص١٠٥؛ المسعودي، التنبيه، ص٣٠٦.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦٥؛ الكتبي، الوافي بالوفيات، ١٤٠/٥.

(٤) العمراني، الإنباء، ص١٠٤.

بابك ملك أذربيجان، والمازيار ملك طبرستان، وباطس ملك عمورية والأفشين ملك أشروسنة، وصار إلى بابه ملك فرغانة، وملك اسيشاب، وملك طخارستان، وملك أصبهان، وملك الصغد، وملك كابل[١].

ومما روي عن مدى قوته، أنه كان يقتني أسداً ضخماً في مجلسه، ويشده بسلسلة قوية، فتمكن الأسد ذات مرة من الإفلات منها، وهاجم المعتصم الذي ضربه بعمود من حديد فقتله وكسرت يد المعتصم من عظم الضربة، فلما جبرها المجبر وجدها معوجة، فطلب منه المعتصم أن يعدلها، فأعتذر المجبر، لأن ذلك معناه أن يكسرها ثانية، فكسرها المعتصم مرة أخرى وهدده بضرب عنقه إن لم يجبرها ففعل[٢].

على الجانب الآخر؛ تفرد المعتصم عن باقي الخلفاء العباسيين بحالة غريبة، ألا وهي أنه كان أمياً، وقد يبدو هذا غريباً حينما يكون ابناً للرشيد الذي حرص على تعليم أولاده وتأديبهم، وأخاً لخليفة عالمٍ مثل المأمون. أما عن سبب ذلك، فقد روت بعض المصادر: «أن الرشيد سمعه يوماً وقد خرجت جنازة بعض خدم القصر وهو يقول: وددت والله لو كنت مثلٍ هذا الميت، وأستريح من كد التعليم! فقال الرشيد: والله لا حملت على ولدى شيئاً يتمني من أجلِه الموت!»[٣]. كما ذكرت أن المعتصم ورد إليه كتاب من بعض أعماله جاء فيه: وأمطرنا حتى كثر الكلأ والمرعى، فقال المعتصم لكاتبه: وما الكلأ؟ قال: لا علم لي! فقال المعتصم: لا حول ولا قوة إلا بالله، خليفة أمي وكاتب عامي ضاع الناس بيننا[٤].

توليه الحكم

خلف المعتصم أخيه المأمون، وتجمع أغلب المصادر على أن المأمون سبق وأوصى له بالخلافة من بعده؛ وقد ذكر بعضها[٥] أنه أوصى له بالخلافة دون أبنائه لرؤيا رآها من النبي - صلى الله عليه وسلم- وإن كان لدينا رواية واحدة للدينوري[٦] تذكر أن

(١) البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٤٣/٣.

(٢) ابن أيبك الداوداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٥، الدرة السنية في أخبار الدولة العباسية، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٣٧.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٧/١١؛ البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٤٣/٣؛ العمراني، الإنباء، ص١٠٦.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٩٤/٥-٩٥.

(٥) الأزدي، الدول المنقطعة، ص٣٤٩.

(٦) الأخبار الطوال، ص٣٧٨.

المأمون أوصى بالخلافة من بعده لابنه العباس، وأن المعتصم خلعه عنها، لكنها رواية ضعيفة لأنها لا تتفق وشواهد الأمور، كذلك لأنه انفرد بها دون سائر المصادر المعروفة التي أرخت لتلك الفترة. ولم تتم مراسم انتقال الخلافة للمعتصم بهدوء، فقد ثار الجند ضد تولي المعتصم وطالبوا بتولي العباس بن المأمون الخلافة، وكاد الأمر أن يتطور إلى الأسوأ لولا أن العباس تدارك الأمر وأعلن أمام الجميع مبايعته لعمه بالخلافة، فهدأت الأمور وتولى المعتصم الخلافة رسمياً في رجب سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م[١]. ومن الغريب أن هارون الرشيد برغم حبه للمعتصم قد استبعده من الخلافة، لكن الأقدار شاءت أن تسوق الخلافة إليه[٢].

ولكن يبدو أن نفس العباس لم تطب لهذه البيعة، وكان يضمر التمرد على المعتصم، لكنه أسرها في نفسه ولم يبدها، لكنه سرعان ما قرر أن ينقلب على المعتصم، وبدأ بمحاولة استمالة بعض قادة الجيش العباسي، ونجح في ذلك، ثم دبر مؤامرة عام ٢٢٣هـ/٨٣٧م بمساعدة القائد عجيف بن عنبسة الذي شجعه على الخروج على المعتصم، نتيجة محاباة الأخير لقادته الأتراك وإهمال شأنه[٣]، وكانت المؤامرة تقضي بالتخلص من المعتصم وقادته المقربين أمثال أشناس والأفشين، وقد حاول عجيف إقناع العباس باستغلال خروج المعتصم لغزو الروم والتخلص منه في الطريق، لكن الأخير أبى ذلك وفضل الانتظار لحين إيابه. لكن المؤامرة انكشفت ووصل الخبر للمعتصم، فقبض على العباس وأتباعه وزج بهم إلى السجن، وظل العباس حبيس السجن حتى مات[٤].

سياسته الداخلية

موقفه من العلويين

كان المأمون قد أوصى أخيه المعتصم بالعلويين قبل وفاته حين قال له: « وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فأحسن

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٦٧/٨.
(٢) الأزدي، الدول المنقطعة، ص٣٥٣.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ٤٦/٦.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ٨٤/١١.

صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محسنهم ..... »[١]. وقد سار المعتصم على نهج أخيه في حسن السيرة معهم، ومن ذلك ما ذكره ابن الأثير: أن أحدهم شكا لأحد المقربين من المعتصم من ضيق أصابه من العلويين، وطلب منه أن يرفع الأمر للمعتصم، فكان جوابه: « أما رأيت المأمون ورفقه بهم وعفوه عنهم وميله إليهم؟ قلت: بلى، فهذا أمير المؤمنين والله على مثل ذلك أو فوقه، ولا أقدر أذكرهم عنده بقبيح»[٢].

وكان من أشهر العلويين الذين عاصروا المعتصم، محمد بن علي الرضا، ويبدو أن العلاقة بينهما كانت طيبة، فقد انتقل للعيش ببغداد مع زوجته أم الفضل ابنة المأمون، ولم تشر المصادر لوجود أي تطلعات من جانبه للخلافة أو حركة تمرد، لذلك عاش في هدوء حتى توفي عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م، فأرسل المعتصم ابنه الواثق للصلاة عليه، ودفنه بجوار أجداده[٣].

حركة محمد بن القاسم

ولم تكن علاقة المعتصم بالعلويين ودية بشكل دائم، بل شابها بعض التوتر في بعض الأحيان، ذلك أن بعض العلويين واصلوا خروجهم على الخلافة العباسية خلال عهده، ومن أشهر هؤلاء محمد بن القاسم العلوي، الذي استجاب لدعوة بعض الخراسانيين حين بايعوه بالخلافة، وأعلن خروجه على المعتصم، وانتقل إلى خراسان، حيث عاش بين مؤيديه. وقد وجه إليه المعتصم قائده عبد الله بن طاهر فتمكن من هزيمته بسهولة، ففر ابن القاسم واختبأ ببعض قرى خراسان، لكن أحد أتباعه وشى به، فقبض عليه عبد الله، وأرسله للمعتصم الذي أمر بحبسه، وقد اشتد عليه في البداية فحبسه في غرفة ضيقة، ثم سرعان ما وسع له سجنه، لكن ابن القاسم تمكن من الفرار من محبسه واختفى بعدها[٤].

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٤٩/٨-٦٥٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ١٧/٦.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ٦٢/١١.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٩٨/٣.

موقفه من الأتراك

تميز عهد المعتصم ببزوغ نجم عنصر جديد على الساحة العسكرية، وهم الأتراك الذين توسع في الاعتماد عليهم، وخصهم باهتمامه، فجعل منهم أغلب قادة جيشه والمقربين منه(١).

ولم يكن المعتصم أول من أعتمد على الأتراك، كما لم يكن عهده هو أول ظهور رسمي لهم على الساحة، إذ يرجع تواجدهم في الدولة الإسلامية إلى العصر الأموي، حين اعتمد عليهم الأمويون في الجيش، خاصة في الجيوش التي تقاتل فيبلاد ماوراء النهر، لدرايتهم بطبيعة المنطقة وسكانها. لكن ظل هذا التواجد محدوداً و غير ملموس(٢).

واستمر هذا التواجد محدوداً في العصر العباسي، وقد اعتمد عليهم المأمون في جيوشه، خاصة بعد أن فقد الثقة في العنصرين العربي والفارسي، نتيجة ميل العرب لأخيه الأمين، والأطماع التي أظهرها الفرس في السلطة من خلال تجربة الرشيد مع البرامكة، وتجربته هو مع آل سهل. وقد بدأ اتصاله بهم حين أرسل جيوشه لبلاد ما وراء النهر لإخضاعها، ودعوة ملوكها للاسلام، وكان يحتفي بمن يقدم عليه من تلك المناطق(٣). كما كان بعضهم يرسل الأتراك إليه جزءاً من خراج خراسان، حيث كان عبد الله بن طاهر يرسل سنوياً إلى الخلافة ألفي غلام تركي جزءاً من خراج خراسان(٤). ورغم ذلك كان اعتماده عليهم بشكل محدود دون توسع.

وسار المعتصم على هدي سلفه في الاعتماد على الأتراك ولكن بشكل أكثر اتساعاً، حيث بذل جهده في جمعهم، سواء عن طريق الشراء رقيقاً أو ترغيبهم في القدوم من أوطانهم للعمل في جيشه مرتزقة، وكان مصدر هؤلاء بلاد ما وراء النهر، خاصة مناطق: أشروسنة، والصغد، والشاش، وفرغانة(٥).

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٩/٤.

(٢) حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٣١٧.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٠٦.

(٤) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص٣٧.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٠٦.

وكان اعتماده بشكل كبير على هذا العنصر الجديد، ربما لنظرة المأمون نفسها للعرب والفرس وعدم ثقته فيهم، بجانب ما عرف عنهم من القوة والشجاعة، يضاف لذلك أنه ربما كان يميل إليهم بحكم انتمائه للجنس نفسه، نظراً لكون أمه تركية الأصل[١].

وفيما يخص اعتماد المعتصم على الترك في بناء جيشه لدينا رأيان؛ الرأي الأول:[٢] يرى أنه اعتمد على الأتراك اعتماداً كليا، بينما يرى الرأي الآخر:[٣] أن المعتصم حين أراد بناء جيش جديد لم يعتمد على الأتراك وحدهم وأهمل بقية العناصر، بل اعتمد على عناصر أخرى مثل المغاربة الذين قدموا من المغرب ومصر، وكذلك العرب أيضاً، كما أن مصطلح الترك الذي أطلقته بعض المصادر على جنود المعتصم غير دقيق، لأن أغلب هذه المصادر اعتادت أن تطلق على كل من يجلب من المناطق الشرقية لفظة ترك، في حين أن بعضاً منهم ربما لايكون من العرق التركي.

ونحن نميل للرأي الثاني، فلم يكن جُل جيش المعتصم من الترك، بل شمل عناصر أخرى من العرب والمغاربة. يدل على ذلك ماورد في بعض المصادر التاريخية، فقد ذكر المسعودي[٤] أن جيش المعتصم كان به عرب من القيسية واليمنية. كما ذكر ابن الأثير أنه أثناء محاكمة قائد المعتصم الأفشين، كان من جملة الاتهامات التي وجهت له دعوته لحاكم طبرستان للخروج على المعتصم، وطمأنته بأن جيش المعتصم المكون من العرب والترك والمغاربة يمكن التصدي لهم «فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ومعي الفرسان وأهل النجدة، فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب، والمغاربة، والأتراك..»[٥]. وفي ذات السياق يذكر الطبري[٦] أن الأفشين - وكان أهم قادة المعتصم - وصف الأتراك في حديثه بأنهم: «أولاد الشياطين»، وأن القضاء عليهم أمر سهل، مما يدل على أنه ليس منهم، وإلا ما كان عليه أن يصف بني جلدته بهذه الصفات.

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦٥.

(٢) عن هذا الرأي انظر: السيد عبد العزيز سالم، العصر العباسي الأول، ص٩٣.

(٣) عن هذا الرأي انظر:

Ismail، O.، "Mu'tasim and the Turks"، ***Bulletin of the School of Oriental and African Studies***، University of London، Vol. 29، No. 1.، (1966)، p.15.

(٤) مروج الذهب، ١١٨/٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٦٣/٦.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل، ١٠٩/٩

وقد أقدم المعتصم على خطوة غير مسبوقة، حين أدرج الأتراك في ديوان العطاء، وبالمقابل أسقط من الديوان العرب والفرس، خاصة بعدما بدر منهم في مؤامرة العباس بن المأمون[١]. وبلغ من اهتمامه بهم وحرصه على نقاء سلالتهم، أنه اشترى لهم جواري أتراكاً وزوجهم بهن، ومنعهم من التزاوج من عنصر آخر، وحرص على أن تكون للجوارى أرزاق ثابتة، وسجل أسماءهن في الدواوين[٢].

وعلى الرغم من أن الأتراك نجحوا في تحقيق كثير من الانتصارات على أعداء المعتصم، مثل حركة بابك الخرمي وغيرها، بجانب دورهم المهم في الحروب ضد البيزنطيين، فإن المعتصم لم يكن راضياً عن دورهم، خاصة القادة منهم، وظهر ذلك في الحديث الذي أسر به لأحد المقربين له وهو إسحاق بن إبراهيم، حيث قال له: «نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا، واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم ...، وأنا اصطنعت الأفشين فقد رأيت ما صار أمره، وأشناس ففشل، وإيتاخ فلا شيء، ووصيفاً فلا معني له» وقد ألمح إسحاق للمعتصم أن سبب ذلك هو سوء اختياره لهذا العنصر، فقال له: «يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول، فاستعملها، فأنجبت فروعاً، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً، فلم تنجب، إذ لا أصول لها»[٣].

بناء سامراء

كان من أهم أعمال المعتصم بناء مدينة سامراء، وهجرته إليها هو وحاشيته وكبار رجال دولته، واتخاذها حاضرة جديدة للخلافة العباسية عام ٢٢١هـ/٨٣٦م[٤]. وقد تعددت الآراء بشأن الدافع وراء هذه الخطوة من جانب المعتصم، خاصة وأن بغداد منذ أن بناها أبو جعفر المنصور، صارت الحاضرة الرسمية لكل الخلفاء العباسيين من بعده.

ويذكر ياقوت الحموي[٥] أن المعتصم لم يحب بغداد لأنها لم تكن تلائم مزاجه النفسي، بينما يذكر ابن الأثير[٦] أن السبب في ذلك هو تخوف المعتصم من تمرد العناصر

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦٥.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص٢٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٧٢/٦.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦٦.

(٥) معجم البلدان، ج١، طهران ١٩٦٥، ص٦٩١.

(٦) الكامل، ٢١/٦.

غير التركية من الجند عليه، وعلى فرق الجند من الأتراك، فرأى أن وجوده ببغداد سوف يجعله بين فكي الرحى، لذا فضل أن يكون في مكان آخر كي يتمكن من صد أي محاولة للتمرد.

بينما يذكر ابن طباطبا[1] أن سبب ذلك؛ أنه حين استكثر من الأتراك، وكانوا قوماً تغلب عليهم البداوة، أثاروا الفوضى في بغداد، وأزعجوا أهلها، وأثناء مرور موكب المعتصم يوماً بشوارع بغداد، شكا له أحد الشيوخ هذا الأمر، وأبلغه بأن أهل بغداد سيدعون عليه إذا لم يوقف هذا العبث منهم، فخشي المعتصم عاقبة ذلك، وقرر بناء المدينة، ونقل الأتراك إليها.

ويرى بعضهم[2] أن المعتصم لم يكن يرى في بغداد المدينة التي أقامها جده المنصور لحماية العباسيين، خاصة بعد أن أجبر أهلها المأمون على العودة لها وترك مدينة مرو، وما حدث للأمين فيها.

وتبدو لهذه الآراء وجاهتها، فهي جميعاً تبدو مقبولة في تفسير سلوك المعتصم وتوجهه لتغيير حاضرته، فلاشك أن بغداد بعد ما مر بها من أحداث وتدمير إبان الصراع بين الأمين والمأمون قد فقدت كثيراً من بريقها، وبدت غير أمينة على حاكميها بعد أن قضى الأمين بها نحبه بطريقة مأساوية. وإذا أضفنا لذلك تميز بغداد بالتشاط الثقافي والعلمي، وافتقار المعتصم لهذا الأمر؛ أدركنا المغزى النفسي لما قام به. وجاء ضيق عامة بغداد من جنده الجدد ليحمسه على أن يخطو هذه الخطوة المهمة في حكمه. يضاف لذلك أن بعض شعراء بغداد هجا المعتصم هجاءً لاذعاً؛ بسبب وجود الأتراك في بغداد وتسلطهم؛ مما سبب الضيق للمعتصم وكان من هذا الشعر:

ملوك بنى العباس في الكتب سبعة ... ولم يأتنا في ثامن منهم الكتب
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم ... وصيف وأشناس وقد عظم الخطب[3]

---

(١) الفخري، ص١٧٠.

(٢) عن هذا الرأي انظر:

Ismail، O.، " The Founding of a New Capital: Samarra "، ***Bulletin of the School of Oriental and African Studies*** *University of London*، Vol. 31، No. 1. (1968)، pp. 1-3.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦٦.

وقد استشار المعتصم بعض المقربين منه حول الموقع الذي يصلح لبناء المدينة الجديدة، فاقترح عليه بعضهم أن يقيمها على أطلال مدينة تسمي القاطول، كان قد بدأ الرشيد في بنائها لكي يستجم فيها لكنه لم يتم بناءها[١]، فوافق على ذلك وقرر أن يكون مكان المدينة الجديدة بجوار المدينة القديمة، على بعد يزيد مائة كيلو متر إلى الشمال من بغداد، وبدأ البناء فيها عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م، وأحضر لها الصناع وأهل المهن من سائر الأمصار[٢]، فاستقدم «من كل بلد من يعمل عملاً من الأعمال، أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغرس وهندسة المياه ووزنه واستنباطه، والعلم بمواضعه من الأرض، وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر، وحمل من الكوفة من يعمل الأدهان ومن سائر البلدان أهل كل مهنة وصناعة»[٣]. وقد أسكن جنوده الأتراك في أماكن مميزة من المدينة، بعيداً عن الأسواق والزحام، وبعيداً عن العناصر الأخرى، حتى لا يختلطوا بهم[٤].

وقد رأي بعضهم[٥] أن الانتقال لسامراء كان بداية لضعف الخلفاء وتسلط الأتراك، لأنه جعل الخليفة بعيداً عن دعم رعيته في بغداد، وأصبح أسير قواته، يتحكمون فيه كيفما شاؤا. ونحن لسنا مع هذا الرأي، فدعم البغداديين للأمين على سبيل المثال؛ لم ينقذه من الوقوع في قبضة جيوش المأمون، فالكلمة الأعلى تكون للجند عادة وليس للعامة، ولكن الواقع أن الأمر كان يرجع لشخصية الخليفة نفسه وقوتها، والمعتصم نفسه برغم انتقاله لسامراء كانت له اليد العليا والسيطرة على الأتراك، كما أن عصور سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية فيما بعد؛ شهدت فترات من وقوف الخلفاء بشدة في مواجهتهم وكسر شوكتهم حين تكون شخصية هؤلاء الخلفاء قوية، كما حدث مثلا مع الموفق طلحة.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٢٢/٦.

(٢) أمينة البيطار، تاريخ العصر العباسي، ص٢٢٥.

(٣) اليعقوبي، البلدان، ص٣١.

(٤) اليعقوبي، البلدان، ص٢٦.

(٥) انظر:

Ismail، O.، “Mu’tasim and the Turks”، p.23.

موقفه من مشكلة خلق القرآن

كان المأمون قد أوصى أخيه المعتصم، وهو يوصيه بالخلافة من بعده بالاستمرار على هديه في اعتناق مذهب الاعتزال وقضية خلق القرآن[١]. ولم يخيب المعتصم رجاء أخيه، فجعل قاضي قضاته من المعتزلة[٢]، كما استمر في الأخذ برأيه في هذه القضية، وإن اختلف الأمر هذه المرة، لأن المعتصم لم يفعل ذلك عن اقتناع، فهو كما سبق وعلمنا، لم يكن محباً للعلم أو الفلسفة، وقضية مثل هذه كانت - ولا شك - أكبر من قدراته العقلية، لكنه ربما نظر لها على أنها تنفيذ لوصية أخيه، أو محاولة للضرب بيد من حديد على من يعارض ما تعتنقه الخلافة. لذلك كانت ردود فعله أشد قسوة من المأمون حيال من رفض القول بأن القرآن مخلوق.

ويبدو أن قضية خلق القرآن في عهده لم تشغل فقط بال الفقهاء والمسلمين، بل شغلت فكر أهل الذمة، فعرفوها وفهموا ما ترمي إليه، وكان لها تأثيرها على سير عملية التقاضي، حيث يذكر ابن الجوزي أنه «اختصم رجلان أمام القاضي، أحدهما مسلم والآخر يهودي، فوقعت اليمين على المسلم، فقال له القاضي: قل والذي لا إله إلا هو، فقال اليهودي: حلفه بالخالق لا بالمخلوق، لأن لا إله إلا هو في القرآن، وأنتم تزعمون أنه مخلوق»[٣].

وخلال عهده استمر بعض الفقهاء على رأيهم برفض مسألة خلق القرآن، ومن أشهرهم أحمد بن حنبل، وكان المعتصم في بداية أمره معجباً بابن حنبل، وحين أحضره إلى بلاطه وسمع منه كلامه أعجب به هو ومن حضر من حاشيته، وذكر أنه لم يقل أحد من صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إن القرآن مخلوق. وهنا انبري له ابن أبي دؤاد، وكان من المقربين للمعتصم، والمتعصبين لمذهب الاعتزال، فأخذ يجادل ابن حنبل، ومن ذلك قوله: «أتقول إن الله خالق كل شيء أم لا؟ فقال الإمام أحمد: بلي الله خالق كل شيء، قال له: القرآن شيء أم لا شيء؟ قال الإمام أحمد: القرآن أمر الله، وقد فرق الله تعالى بين خلقه وأمره، فقال - عز وجل -: «له الخلق والأمر ....» فأعجب المعتصم به وأثنى عليه[٤].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٤٧/٨.

(٢) العمراني، الإنباء، ص١٠٥.

(٣) البغدادي، تاريخ بغداد، ١٥٩/١١.

(٤) العمراني، الإنباء، ص١٠٥.

لكن سرعان ما نجح ابنٍ أبي داؤد في الإيقاع بين المعتصم وابن حنبل، فانقلب عليه، ونال منه عقاباً شديداً، وأمر بجلده بالسياط، وعن ذلك يقول ابن الجوزي نقلاً عن أحد شهود الحدث: «سمعت ضجة، فقلت: ما هذا؟ قالوا: أحمد بن حنبل يمتحن، فدخلت فلما ضرب سوطاً، قال بسم الله، فلما ضرب الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضرب الثالث قال: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، فضرب تسعاً وعشرين سوطاً ...»[١].

وقد شهد المعتصم بنفسه وقائع جلد ابن حنبل، ولما رآه قد غشي عليه نتيجة جلده، وأنه ظل متمسكاً برأيه أمر بإطلاق سراحه، ويقال أنه ندم على ما فعله به[٢].

ولم يكن ابن حنبل وحده من قاوم هذا التوجه من قبل المعتصم، حيث ذكرت بعض المصادر أن في مدينة الكوفة وحدها كان هناك أكثر من سبعمائة فقيه يرفضون القول بخلق القرآن[٣].

وقد أثار ما حدث لابن حنبل حفيظة بعض الفقهاء؛ فحاولوا مساندته ومواجهة المعتصم، ومن هؤلاء الفقيه عاصم بن علي الذي ما إن علم بضرب ابن حنبل حتى قال: «ألا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل فنكلمه؟»، فلما عزم التوجه إلى المعتصم جاءه كتاب من ابنتيه تقولان فيه: «يا أبانا، إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل وضربه بالسوط على أن يقول القرآن مخلوق، فاتق الله ولا تجبه إن سألك، فوالله لئن يأتينا نعيك أحب إلينا من أن يأتينا أنك قلت القرآن مخلوق». ويبدو أن رسالة ابنتيه قد أوهنت عزمه، فتراجع عن مواجهة المعتصم[٤].

ورغم أن بعض الفقهاء وافقوا المعتصم على رأيه، وأقروا بأن القرآن مخلوق، إلا أن أغلبهم أقر بذلك خوفاً منه ودون اقتناع، حتى أن بعضهم عد ما قام به على أنه نوع من الكفر، فقد ذكر البغدادي: «أن أحد الفقهاء قيل له بعد أن جرى امتحانه في قضية خلق القرآن: ما فعلتم؟ قال: كفرنا ورجعنا»[٥].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٤٣/١١.
(٢) ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٥/٢.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ٤٧/١١.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ٦٩/١١.
(٥) البغدادي، تاريخ بغداد، ٨٦/٩.

وفي نهاية عهد المعتصم نلمح نوعاً من المقاومة العنيفة من بعض فئات المجتمع للفقهاء والقضاة الذين قالوا بخلق القرآن، فيذكر ابن الجوزي[١] أن بعض العامة ثاروا عام ٢٢٧هـ/٨٤١م ضد أحد القضاة لأنه كتب على مسجد له أن القرآن مخلوق، وقاموا بإزالة هذه الكتابة، ثم هجموا على منزل القاضي ونهبوه ثم أحرقوه بعد أن فر منه.

وهكذا استمرت القضية معلقة خلال عهد المعتصم، فبرغم قسوته لم ينجح في فرضها على الفقهاء، وظلت هناك معارضة قوية منهم لهذا التوجه، ولم تفلح شدة المعتصم في فرض رأي المأمون على الساحة الفكرية في المجتمع العباسي.

الثورات الداخلية

ورث المعتصم عن سلفه المأمون تركة ثقيلة من الثورات المستعصية، بعضها ظهر في عهد المأمون، ولم يتمكن من القضاء عليها، والآخر كان نتيجة طبيعية لتوليه الخلافة وتحمله أعباءها، لذا قدر للمعتصم أن يحمل تلك المسئولية، وقد أثبت جدارته في مواجهة أغلب هذه الثورات:

حركة بابك الخرمي

ظل المأمون حتى آخر أيامه يحاول القضاء على هذه الحركة التي استفحل خطرها لكنه فشل في ذلك، لذا حرص على أن يوصي أخيه المعتصم حين وافته المنية بمواصلة قتاله حتى القضاء عليه[٢]. ولم يكن المعتصم أقل اهتماماً بالقضاء على هذا التمرد منأخيه، لذا فقد حرص منذ أن تولي الخلافة على أن يخطط للقضاء على هذا الخطر الذي يهدد الخلافة. وكان المعتصم فطناً، لذلك قرر أن يجعل على طليعة الجيوش التي أرسلها لقتاله عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م قائده الأفشين[٣]، وهو الذي عرف عنه دهاؤه وقوته. ولم يبخل المعتصم على هذه الحرب بالمال أو العتاد حتى قيل إن مقدار ما أنفقه المعتصم في حرب بابك فاق الخمسمائة وقر من الدراهم[٤]. كما حرص المعتصم على

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ١١٨/١١.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٨/ ٦٤٩.

(٣) انظر:

Wright، E.، " Babak of Badhadh and al – Afshin during the Years A.D 816 – 841. Symbols of Iranian Persistence against Islamic Penetration in North Iran "، *Muslim World*، 38 (1948)، pp.43f.

(٤) مجهول، العيون والحدائق، ٤٧٣/٣.

تحفيز قائده الأفشين، فأمر له بكل يوم يحارب فيه بعشرة آلاف درهم، واليوم الذي لا يحارب فيه خمسة آلاف، كما منحه حين خروجه لقتال بابك مليون درهم[١].

وظهر من اهتمامه بحملة الأفشين وتتبع أخبارها، أنه رتب لأن يظل في تواصل معها دون إبطاء، وسعي لتذليل كل العقبات حتى يتم ذلك، فأمر أن يوضع على رأس كل فرسخ أحد رجال البريد ومعه فرسه، وذلك على طول الطريق من مدينة سامراء حتى معسكر جيش الأفشين، وذلك حتى يتم نقل الأخبار بسرعة ودون إبطاء، وكان لهذا التنظيم أثره في نجاح الاتصال بين الطرفين وسرعته، حتى إن الرسائل كانت تصل بين الطرفين خلال أربعة أيام فقط[٢].

ولم يبق بعد كل هذه الاستعدادات من جانب المعتصم إلا أن يقوم الجيش بتنفيذ هذه المهمة بنجاح، وكان الأفشين عند حسن ظن سيده به، فلم يتبع الطرق التقليدية في مواجهة بابك بعد أن أثبتت عدم جدواها، خاصة في ظل تحصن بابك في مناطق جبلية وعرة وكثرة أتباعه، لذلك قرر استخدام الدهاء والحيلة، فبدأ في تصيد رجال بابك، وأقنعهم بالمال لكي يعملوا جواسيس له، حتى ينقلوا له أخباره[٣].

كما استخدم أيضاً الحيلة، فحين أرسل له المعتصم مدداً ضخماً من المال والرجال، ووصل الخبر لبابك طمع في المال وقرر مهاجمة هذا المدد، نقل الجواسيس للأفشين خبر بابك، فقرر أن يوقع به، فأمر بأن يتم احتجاز المال، ويتقدم الرجال فقط، فلما وجد بابك ذلك قرر الرجوع لكن الأفشين كان ينتظره في حشد كبير، فهزم بابك وجيشه، لكنه تمكن من الفرار[٤].

وفي عام ٢٢٢هـ/٨٣٧م أرسل المعتصم للأفشين مدداً جديداً وأموالاً ضخمة قدرت بثلاثين مليوناً من الدراهم، من أجل نفقات الجيش، ويبدو أن المعتصم كان يريد الإسراع في القضاء على بابك، وألا يترك للأفشين عذراً في ذلك، سواء بقلة المال أو الرجال. ورغم ذلك؛ لم يتعجل الأفشين خطواته، لإدراكه أنه لا يحارب خصماً سهلاً خاصة وأنه دخل معه في مناوشات وكر وفر، لم يكن فيها بابك بالخصم الهين.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٥٣/١١.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٢/٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٢٠/٦.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤/٩.

لكن الأوضاع سرعان ما دفعته لسرعة التحرك، ليس لتعجل الخليفة فقط، ولكن لأن قسم كبير من جيشه -وهم المتطوعة- أنكروا عليه هذا البطء في التعامل مع الموقف، حتى إن أحدهم ذكر أنه رأى الرسول - صلى الله عليه وسلم - في المنام وقال له: قل للأفشين إن حاربت هذا وجددت في أمره، وإلا أمرت الجبال أن ترجمك بالحجارة. وقد ضاق الأفشين من هذا التسرع واتهام المتطوعة له بالتخاذل، ورد على من ردد قصة المنام بقوله: الله يعلم نيتي وما أريد بهذا الخلق، وإن الله لو أمر الجبال برجم أحد لرجم هذا الكافر فكفانا مؤنته. لكنه أمام الإلحاح المتزايد من قبل هؤلاء المتطوعة - خاصة مع حماستهم الدينية - قرر المضي قدماً في خطته، فتقدم بهدوء نحو مدينة البذ، وكانت المعقل الرئيسي لبابك، وقام بحصارها[(١)].

ويبدو أن بابك قد شعر أثناء حصار الأفشين له أنه لن يتمكن من الصمود طويلاً، فحاول أن يخفف عنه الضغط بوسيلة أخرى، فأرسل لحليفه الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل يخبره بأن المعتصم جهز جيشاً لغزو بلاده، وأن عليه أن يستغل انشغال جزء من جيش المعتصم بالقتال معه، ويتحرك للهجوم على الأراضي الإسلامية. وكان بابك يهدف من ذلك إلى فتح جبهة جديدة على جيوش المعتصم عله يفك الحصار عنه أو يسحب جزءاً من قواته ليرسلها على الجبهة البيزنطية. وبالفعل تحرك الإمبراطور البيزنطي ومعه عدد كبير من رجال بابك الذين كانوا يعيشون في الجبال، وأغار على بعض الحصون الإسلامية مثل زبطرة وملطية وخربها وقتل أهلها وسبي نساءها[(٢)].

واصل الأفشين حصاره للمدينة، لكن الحصار طال أمده، فأصاب جنده بالضجر مرة أخرى، حتى شكوا له ذلك، فقرر عندها الهجوم على المدينة ونجح بالفعل في اقتحامها وهزيمة بابك. وقد طلب بابك في البداية الأمان في مقابل الخروج من المدنية مع أسرته فأجابه الأفشين إلى ذلك، لكنه سرعان ما تراجع عن ذلك ونجح في الفرار بعدها إلى أرمينية[(٣)].

لم يتوان الأفشين عن مطاردة بابك، فأرسل لملوك أرمينية وبطارقتها يخبرهم بهروب بابك إلى بلادهم، ويطلب منهم أن يجدوا في البحث عنه ويسلموه إليه. وقد وصل خبر بابك إلى أحد البطارقة ويدعي سهل بن سنباط، فعلم مكانه واحتال عليه

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٣١/٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٨/١١.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٤/١١.

حتى أدخله في قلعته، ثم أرسل للأفشين يخبره بوجود بابك عنده. وقد وعده الأفشين بمكافأة ضخمة في حال تسليمه إليه، والواقع أن سهل لم يفكر في تسليمه بدافع المال، لأن بابك كان لديه من المال ما يفوق أموال الأفشين، لكن كان دافعه الأهم التخلص من بابك الذي عاث فساداً في المنطقة، وطال عبثه أرمينية نفسها، فكان التخلص منه رغبة مشتركة من الجميع.

لكن التخلص من شخص بحجم ودهاء بابك لم يكن أمراً سهلاً، لذا دبر سهل بالتعاون مع الأفشين خطة للإيقاع به، فطلب منه سهل أن يخرج يوماً للصيد في بعض الغابات، وهناك كان ينتظره رجال الأفشين، فقبضوا عليه، وتم إرساله إلى سامراء على وجه السرعة، حيث كان ينتظره مصير قاس جزاءً لما اقترفته يداه، حيث أمر المعتصم بقطع أطرافه ثم ضرب عنقه، وقضي بذلك أخيراً على هذه الحركة التي أجهدت الخلافة كثيراً(١).

ثورة الزط

كان من بين الثورات التي لم يضع المأمون حداً لها ثورة الزط، لذلك أخذ المعتصم على عاتقه مهمة التخلص منهم، واختار لذلك واحداً من أمهر قواده، وهو عجيف بن عنبسة، وأرسله عام ٢١٨هـ/٨٣٣م لقتالهم، وكان الأخير من الدهاء بحيث إنه لم يتخذ الشكل التقليدي في المواجهة معهم، بل سعى في البداية لجمع كل المعلومات عنهم، فعرف أنه يستخدمون الأنهار الصغيرة في تحركاتهم، فقام بسد هذه الأنهار، حتى يمنع تحركاتهم، فحاصرهم وكسر بذلك شوكتهم، ثم هاجمهم وتمكن من هزيمتهم وأسر عدد كبير منهم. وقد بعث عجيف الأسرى إلى المعتصم، ثم واصل حصارهم ما يزيد عن خمسة عشر شهراً حتى طلبوا منه الأمان، فأسرهم وحملهم في السفن حتى دخل إلى بغداد(٢). وقد أراد المعتصم أن يجعل دخولهم بغداد حدثاً مشهوداً، فأمر أن يدخلوا في سفنهم وهم ينفخون في أبواق كانوا يحملونها مروراً على المعتصم وهو في سفينة له، وتركهم في السفن طيلة ثلاثة أيام، ثم نفاهم الخليفة بعد ذلك إلى منطقة عين زربة ببلاد الشام، حيث كانت نهايتهم على أيدي البيزنطيين(٣).

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٤٨/٩.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٤٢/١١.

(٣) مجهول، العيون والحدائق، ٤٧٢/٣.

ولم يكتف المعتصم بالقضاء على هذا العنصر في العراق فقط، بل وجه وإليه على السند عمران بن موسى البرمكي عام ٢٢١هـ/٨٣٥م، ليقوم بتقليم أظافر هذا العنصر في موطنه الأصلي هناك. واستهل عمران عهده بحملة شاملة ضد الزط، حيث قتل عدداً كبيراً منهم، ثم دعا من تبقي منهم، وختم أيديهم وجمع منهم الجزية، ثم تبع ذلك بإجراء قد يبدو غريباً، إذ أمر كل فرد منهم أن يصطحب كلباً معه عند خروجه من بيته[١]. وختم الأيدي وجمع الجزية إجراء عادي بالنسبة لأهل الذمة، لكن الأجراء الثاني بدا غريباً هنا. وقد ذهب بعض الباحثين[٢] إلى أن الغرض من ذلك كان التخلص من الكلاب الضالة أو العكس، أي تشجيع تربية الكلاب؛ لكنها تفسيرات تبدو ساذجة، ويمكننا أن نجد تفسيراً مقبولاً لذلك لدى أحد المصادر، الذي يذكر أن محمداً بن القاسم حين فتح السند استفسر عن وضع الزط في عهد ما قبل الفتح، وعندما علم أنهم عنصر وضيع دائم التمرد، وأنه كان يُفرض عليهم الإجراء السابق نوعاً من التحقير لهم، قرر ابن القاسم أن يظلوا على هذا الوضع المذل[٣]. إذن كان سلوك عمران إحياء لتقليد سابق ضد عنصر ذي أصول تاريخية في التمرد.

حركة المازيار بن قارن

كان من خصائص سياسة العباسيين الإدارية إبقاء بعض الحكام المحليين في المناطق المفتوحة على ولاياتهم، طالما دخلوا في الإسلام، ورضوا بالطاعة للعباسيين، وإلى هؤلاء ينتمي المازيار الذي ينحدر من سلالة حكام ولاية طبرستان، ولما أسلم ولاه المأمون عليها، واستمر في حكمه خلال عهد المعتصم[٤].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٣٢ .

(٢) عن هذا الرأي انظر،

Elliot، History of India، p.449; Reinaud، Mémoire géographique historique et scientifique sur l'Inde (Frankfurt، 1993)، p.200.

(٣) الكوفي، فتحنامه سند، ترجمة بلوش، دمشق ١٩٩١، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٨٠/٩.

وقد بدأ المازيار يفكر في التمرد على الخلافة بسبب أنه كان يتيه بنفسه، فكان يترفع عن حمل الخراج لعبد الله بن طاهر، الذي قلده المأمون ولايات المشرق ومن بينها طبرستان، ويصر على أن يحملها للمعتصم مباشرة، ربما لأنه كان يرى أنه ليس أقل من عبد الله بن طاهر، مما أدي لوجود حالة من العداء بينهما، حملت المازيار على التفكير في خلع طاعة العباسيين[١].

ثم تطور الأمر بعد أن راسله الأفشين، وطلب منه أن يتعاونا سوياً لإعادة أمجاد آبائهم، والقضاء على نفوذ العباسيين في المناطق الشرقية، وقد رسم له الأفشين خطة لذلك، تضمنت أن يعلن المازيار عصيانه، وحينها سيقوم المعتصم باختيار الأفشين لقتاله، فيخرج لقتاله مع جيوش المعتصم، ثم يدبرون الأمر للقضاء على هذا الجيش، ثم الانفراد بحكم طبرستان، وبلاد ما وراء النهر[٢].

ويبدو أن هذا الامر لقي هوى في نفس المازيار فوافقه عليه، وبالفعل خلع طاعة المعتصم، ورفض إرسال الخراج إليه. واتخذ من التدابير الإدارية والعسكرية ما يؤمنه ضد رد فعل العباسيين، بجانب اطمئنانه إلى الخطة التي رسمها له الأفشين، ووعده بالقضاء على جيوش العباسيين[٣].

لكن الرياح أتت بما لا تشتهيه سفن الأفشين والمازيار، فقد وقعت بعض المراسلات بين الأفشين والمازيار في يد عبد الله بن طاهر، الذي أرسلها بدوره للمعتصم، لذلك استبعد الأفشين من قيادة الجيش، وكلف عبد الله بن طاهر بالقضاء على المازيار، وقد نجح عبد الله في استمالة ابن عم المازيار، وكان يدعى قوهيار، ووعده بحكم طبرستان، فرضي الأخير وانقلب على المازيار وشارك في مؤامرة أدت للقبض على المازيار وتسليمه للمعتصم[٤]. وقد واجهه المعتصم بخيانته ومراسلاته مع الأفشين، ثم أمر بضربه حتى مات، وتم صلبه على أبواب بغداد بجوار جثة بابك، وبذلك انتهت هذه الحركة سريعاً[٥].

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٣/٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٩٩/١١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٥٠/٦-٥٢.

(٤) مجهول، العيون والحدائق، ص٥٠٨.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ١٠٠/٩.

تمرد الأفشين

كان الأفشين من أهم رجال المعتصم، وواحد من قادة جيشة الرئيسيين، وقد احتل مكانة مهمة لدى المعتصم، خاصة بعد دوره الفعال في القضاء على بابك الخرمي، وكذلك دوره في الجهاد ضد البيزنطيين، فلا عجب أن خلع عليه المعتصم كثيراً من الأموال، وأغدق عليه بكثيرٍ من الهدايا، وجعله من المقربين منه[١].

ورغم تلك المكانة لدى المعتصم، فإن الأفشين لم يحفظ هذا الجميل، وكان يخطط للهروب من البلاط العباسي والاستقلال ببلاد ماوراء النهر. وقد بدأ أمره ينكشف حين كان يحرص على إرسال كل ما يأتيه من أموال وهدايا مع رجاله إلى مدينة أشروسنة ببلاد ما وراء النهر، وقد نما خبر ذلك إلى عبد الله بن طاهر، فقرر التربص بالأفشين، ونجح في القبض على بعض رجاله، وهم يحملون الأموال، واستولي عليها مما أغضب الأفشين، وأشعل نار العداء بينهما[٢].

ثم بدأ الأفشين يتوسع في مخططه، فراسل المازيار يدعوه للتحالف معه للخروج من قبضة العباسيين، وللمرة الثانية كان عبد الله بن طاهر متربصاً به، فحصل على بعض رسائل الأفشين للمازيار وسلمها للمعتصم، ليفضح بها مخططات الأفشين وخيانته لسيده[٣].

وحين علم الأفشين بافتضاح أمره خطط للهروب في السر إلى بلاد ماوراء النهر، فلما فشل خطط لدعوة المعتصم وكبار قادة الجيش إلى مأدبة بقصره، ووضع السم لهم فيتخلص منهم، ويسهل هروبه، لكن أحد خدم الأفشين وشي به لدى المعتصم، فقبض عليه وألقي في السجن[٤].

وقد أصابت مؤامرة الأفشين المعتصم بالصدمة، حتى أنه بكي حينما علم أن الأفشين خطط لقتله رغم مكانته عنده فكان يقول: «رجل أنفقت عليه ألف ألف دينار، ووهبت له مثلها، يرىد قتلي»[٥]. لذلك عقد محاكمة للأفشين وجيء فيها بالمازيار، وتمت المواجهة بينهما حول الخطة التي دبرها الأفشين، فأنكر الأخير ما جاء بالرسائل، لكن المازيار اعترف بها. ولم تكن تهمة التآمر ضد الخلافة هي تهمة الأفشين

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٩٩/١١.

(٢) مجهول، العيون والحدائق، ٥١٧/٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٦١/٦.

(٤) مجهول، العيون والحدائق، ٥١٨/٣.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٩٩/١١.

الوحيدة، بل وجهت له تهمة الميل للمجوسية وكراهية الإسلام، وقد رتب المعتصم له دلائل الاتهام، فأحضر رجلان من أهل السغد ببلاد ماوراء النهر، عذبهما الأفشين لأنهما هدما معبداً للمجوسية، وأقاما مكانه مسجداً. كما أحضر كتاباً عن العقيدة المجوسية وجد بقصر الأفشين، كما أحضروا أحد رجاله وشهد أن أهل أشروسنة يخاطبونه مع لقب: «إله الآلهة من عبده فلان بن فلان ...»[١].

وقد دافع الأفشين عن نفسه، فذكر أنه عذب الرجلين لأنه كان يترك للناس حريتهم الدينية بناء على معاهدة مع ملك السغد، وهدم المعبد خالف هذا العهد. أما الكتاب فذكر أنه يأخذ منه آداب أجداده، وينبذ ما فيه من كفر، أما عن مخاطبة أهل أشروسنه له بهذا اللقب الخارج عن الإسلام، فبرره بأنه عادة أهل هذه البلاد، وخشى إن غيرها أن تسقط مهابته في أعينهم. وبالطبع لم يقتنع المعتصم بتلك المبررات، وبدا للجميع أنه لن يفلته، خاصة أن التهمة الأولى كانت كافية للتخلص منه دون محاكمة، لكن يبدو أن المعتصم حرص عليها لمكانته في الدولة وفي الجيش[٢].

وقد أمر المعتصم بحبسه، وقد حاول الأفشين أن يستعطفه لكن محاولاته ذهب أدراج الرياح، وقد مات في سجنه بعد أن أكل من طبق فاكهة أرسله له المعتصم، ويبدو أنه كان مسموماً، ثم صلب بعد ذلك على أبواب بغداد، ثم أحرقت جثته[٣].

سياسته الخارجية

سار المعتصم في سياسته الخارجية على نهج أسلافه، فظل يناصب البيزنطين العداء، ويجتهد في محاربتهم، وإن لم يحقق تطوراً كبيراً عمن سبقه، فيما يخص التوغل في الأراضي البيزنطية. كما كانت هناك إشارات عن علاقته بالهند، في حين لم توجد إشارات عن علاقة له بمملكة الفرنجة كأسلافه.

مع البيزنطيين

استغل الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل إنشغال المعتصم بمواجهة حركة بابك الخرمي وقرر مهاجمة الحصون الإسلامية، شجعه على ذلك ما أمده به بابك من رجاله لكي يواجه المعتصم، ويفتح بذلك على الجيوش العباسية جبهة جديدة، ربما تؤدي

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ١٠٥/٩-١٠٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٦٣/٦-٦٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٦٦/٦.

لتخفيف حصارها له. وقد تحرك ثيوفيل شرقاً ليؤمن اتصاله مع أتباع بابك في أرمينية و أذربيجان، واستولي في طريقه على مدينة زبطرة مسقط رأس والدة المعتصم، وكان عنيفاً مع سكانها، فقتل الرجال منهم بعد أن سملهم وشوههم بالحديد المحمي، وأسر النساء والأطفال، كما هاجم ملطية وسميساط وأحرقها[١].

وما إن صكت تلك الأخبار أسماع المعتصم حتى استشاط غضباً، وعزم على الانتقام من البيزنطيين بحملة ضخمة لم يسمع عنها من قبل. ويرتبط تحرك المعتصم للانتقام من البيزنطيين؛ قصة أوردتها بعض المصادر عن امرأة هاشمية وقعت في الأسر فاستغاثت بالمعتصم بقولها: وامعتصماه!، فلما بلغ المعتصم الأمر قال: لبيك لبيك، ودعا للخروج لنصرة المرأة[٢]. وقد قام ثيوفيل بحبس المرأة وسخر منها، وطلب منها ساخراً أن تنتظر أن يأتي المعتصم ويخلصها من يده[٣].

وبغض النظر عن صحة الرواية من عدمها، فلم تكن هي بالطبع المحرك الوحيد للمعتصم، بل كانت هناك كثير من الدوافع، لعل أهمها التحالف الذي وقع بين ثيوفيل وبابك من ناحية، والاعتداء على الثغور الإسلامية بوحشية من ناحية أخرى، ناهيك عن أن مواجهة البيزنطيين كانت من أبجديات السياسية الخارجية للعباسيين منذ بداية دولتهم.

عزم المعتصم على مواجهة ثيوفيل، لكنه أرجأ هذه الخطوة لحين الانتهاء من حرب بابك؛ حتى لا يشتت جهود جيوشه، فلما انتهى من القضاء على الأخير بدأ في الاستعداد لحملته، وجمع مستشاريه وطلب منهم أن يحددوا له أهم مدينة في الإمبراطورية البيزنطية لكي يقصدها في حملته؛ إمعاناً في الانتقام من ثيوفيل، فأخبروه بأنها مدينة عمورية، مسقط رأس الإمبراطور البيزنطي، والتي تفوق في أهميتها العاصمة البيزنطية نفسها[٤].

استعد المعتصم للخروج لقتال البيزنطيين، فخرج في عام ٢٢٣هـ/٨٣٧م على رأس جيش ضخم العدد والعتاد، وصفته المصادر بأنه: «تجهز جهازاً لم يتجهزه خليفة من قبل من السلاح والعدد والآلة...»، وجعل على قيادته أبرز قادته مثل: الأفشين، وأشناس،

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٩/١١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٤٠/٦

(٣) العمراني، الإنباء، ص١٠٦.

(٤) ابن طباطبا، الفخري، ص١٦٩.

ووصيف ، وجعل وجهة الجيش الأولى مدينة أنقرة ، وأمر الجيش بالتحرك في ثلاثة محاور ، كل محور بقيادة أحد القادة ، وتلتقي جميعها عند هذه المدينة ، على أن يكون هو خلفهم[١] .

وقد نمت أخبار جيش المعتصم إلى ثيوفيل فاستعد لمواجهته ، وترك عاصمته القسطنطينية ، وتقدم باتجاه جيش المعتصم ، وكانت خطته تقوم على مفاجأة الجيش الإسلامي وهو في طريقه لأنقره ، وأخذه على حين غرة. وقد علم ثيوفيل بخطة الجيش الإسلامي فقسم قواته لقسمين ، قسم تولي قيادته وانطلق لمحاربة الأفشين ، في حين ترك القسم الثاني ليفاجئ جيش المعتصم وينقض عليه ، لكن من سوء حظه أن وقع بعض رجاله في قبضة الجيوش الإسلامية فانكشفت خطته للمعتصم الذي بادر بارسال تحذيرات للأفشين وأشناس بالتوقف حتى يصدر إليهم أوامره من جديد[٢] .

ورغم أن تعليمات المعتصم لم تصل للأفشين ؛ إلا أنه تمكن من صد هجوم الإمبراطور البيزنطي ، بل ونجح في تحقيق الانتصار عليه وأجبره على الإنسحاب ، وحاول ثيوفيل أن يعيد الكرة لكن الأنباء التي تواترت إليه باستيلاء جيش المعتصم على أنقرة أضعفت عزيمته ، وأثنته عن الاستمرار في المواجهة ، فقرر التفاوض مع المعتصم[٣] .

وقد أرسل ثيوفيل وفداً إلى المعتصم يعرض عليه الصلح ، ويعتذر عما حدث في زبطرة ، ويبرره بأن قادته خالفوا تعليماته ، وأنها لم تكن أوامره ، ويتعهد بإعادة بناء ما خربته جيوشه ، ويرد من أسرهم من أهلها ، بجانب مجموعة من الأسرى المسلمين في سجونه ، ويرسل كل من قام بأي تجاوزات في المدينة من القادة والبطارقة. ورغم هذا العرض السخي من جانب ثيوفيل ، إلا أن رغبة المعتصم في الانتقام كانت أقوي فاستخف بالعرض ورفضه[٤] .

تقدم المعتصم بعدما دمر مدينة أنقرة باتجاه عمورية ، وضرب حصاراً شديداً حولها ، وضرب أسوارها بالمناجيق ، لكنها ظلت صامدة لشدة تحصينها ، وبدا الأمر في حاجة إلى مساعدة خارجية ، وبالفعل جاءت المساعدة للمعتصم وجيوشه ، حيث وفد على المعتصم رجل من أهل عمورية ، كان تم أسره وتنصر وعاش في المدينة ، فأرشده على موضع ضعيف من سور المدينة يمكنه اقتحامها منه[٥] .

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤٠/٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ٥٩/٩.

(٣) مجهول، العيون والحدائق، ٤٨٧/٣.

(٤) اليعقوبي، تاريخه، ٢١٠/٣.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٨٢/١١.

وبالفعل قام الجيش العباسي بالتركيز على الجزء الضعيف من السور وضربه بالمناجيق، ثم زادت الأمور انفراجاً، حيث أرسل حاكم المدينة رسولين للإمبراطور البيزنطي طلباً للمدد، فوقعا في أيدي المعتصم فأكرمهما وخلع عليهما، فلما رأيا تلك المعاملة الطيبة منه أسلما، وقد عمد المعتصم؛ لأن يرى قادة عمورية هذا الأمر ليعرفوا أن رسالتهم وقعت في يده، وأنه لا فائدة من المقاومة[١].

ثم واصل المعتصم ضغطه على هذا الموضع حتى كاد يسقط، وكان قادة المدينة قد قسموا حماية سور المدينة بينهم، ولما رأي القائد البيزنطي المكلف بحماية الجزء الضعيف سوء موقفه طلب المساعدة من باقي القادة في المدينة لكنهم تكاسلوا، ففضل أن يستسلم طلباً للسلامة، فأمر جنده بعدم القتال، واتجه للمعتصم يعرض الصلح والاستسلام، واستغلت جيوش المعتصم توقف المقاتله البيزنطيين عن الدفاع عن السور واقتحموه، ومن بعده المدينة بعد أسبوعين من الحصار في رمضان عام ٢٢٣هـ/٨٣٧م، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها قدر بثلاثين ألفاً وأسروا مثلهم، ثم أمر المعتصم بحرق المدينة، وهدم أسوارها انتقاماً مما فعله ثيوفيل بالمسلمين[٢]. وتروي المصادر أن المعتصم عثر في سجون المدينة على الهاشمية التي استغاثت به، فلما رآها قال لها: «لبيك يابنت العم أجبت دعوتك»[٣].

ولم يمكث المعتصم في عمورية طويلاً وسرعان ما قفل عائداً، بسبب هجمات الأسطول البيزنطي على بعض الثغور الشامية من ناحية، والتي كان الغرض منها تخفيف ضغط المعتصم على عمورية[٤]. وبسبب ما بلغه من مؤامرة ابن أخيه العباس من ناحية أخرى.

ورغم أن محاولة المعتصم كانت جريئة، ومثلت أول توغل عباسي في الأراضي البيزنطية بشكل واضح، إلا أنها لا تعد تطوراً في التوسع العباسي في الممتلكات البيزنطية، لأن المعتصم اكتفى بالانتقام من عمورية فقط، ولم يواصل توغله في الأراضي البيزنطية. ولم يحاول إعادة الكرة من جديد، بل يبدو أن المشكلات الداخلية لدى الجانبين؛ ساعدت على توقيع هدنة بين الطرفين عام ٢٢٧هـ/٨٤١م.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٣/٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٤٥/٦.

(٣) العمراني، الإنباء، ص١٠٦.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ٦٩/٩.

مع الهند

لم تصلنا خلال عهد المعتصم دلالات رسمية على وجود علاقات ودية مع بعض الممالك الهندية، كما حدث في عهود أسلافه، ولم تصلنا أية مراسلات ودية على المستوي الرسمي. وإن كان لدينا نص لدى بزرك بن شهريار[١]، ربما حمل إشارة إلى وجود علاقات رسمية، والنص يروي قصة بحار عربي مسلم انتهك قدسية أحد التماثيل الهندية المقدسة في إحدي مدن مملكة الراشتراكوت، ويصور رفض حاكم المدينة القصاص الفوري منه؛ نزولاً على رغبة الجماهير الثائرة بقوله: " إنه من العرب وبيننا وبينهم شروط "، وتوحي العبارة السابقة بوجود معاهدة أو اتفاق رسمي على أقل تقدير، جعل هذا الحاكم لا يسرع في قتل البحار.

وقبل أن نطوي صفحة العلاقات العباسية الهندية خلال عهد المعتصم، يجدر بنا أن نقف عند ما ذكره البلاذري[٢] بشأن ما قام به الوالي العباسي على السند موسى البرمكي من " أسر باله ملك الشرقي وقتله ". والشرقي هنا كلمة غامضة تحتمل أكثر من تأويل، فقد تكون إشارة إلى أكثر من مملكة من ممالك الهند مثل: مملكة البنغال، أو مملكة قنوج، أو مملكة الشالوكياس Chalukyas. والإشارة الأولى تبدو ضعيفة؛ نظراً للصلات الطيبة بين العباسيين وتلك المملكة، كما أن تلك الفترة تعاصر الملك ديفابالا الذي ارتبط بعلاقات ودية مع المأمون، كما لم يثبت أن ديفابالا قد قتل على يد المسلمين، ورغم أنه لم تصلنا أخبار عن اتصالات له مع المعتصم، إلا أن ذلك لا يعني وجود شوائب في تلك العلاقات، خاصة أن هذه العلاقات ستتصل فيما بعد في عهد المتوكل.

أما الإشارة الثانية لمملكة قنوج فتبدو ضعيفة هي الأخرى، فالملك المعاصر للأحداث هو بهوجا Bhoja[٣]، والذي عاش فترة كبيرة بعد تلك الأحداث مما ينفي مقولة البلاذري. والرأي الأرجح هنا أن البلاذري كان يقصد أحد ملوك أسرة الشالوكياس، الذين ناطحوا الممالك الهندية، ووضعوا لأنفسهم موطئ قدم في المناطق الشرقية بعض الأحيان[٤].

---

(١) عجائب الهند بره وبحره، ص١٤٣.

(٢) فتوح البلدان، ص ٤٣٢ .

(٣) ويعد المؤسس الحقيقي لإمبراطورية البراتهاريين ولمزيد من التفاصيل عنه انظر،

Chandra، Medieval India، pp.9 – 10.

(٤) لمزيد عن هذه الأسرة انظر،

Mahajan، Ancient India، (New Delhi، 1970)، pp.80 – 82.

وفاته

لم يُسم المعتصم ولياً لعهده لفترة طويلة، ثم اختار قبل وفاته ابنه هارون الواثق ولياً لعهده[١]. وقد احتجم في أحد الأيام وأصيب بالحمي بعدها، وكان هذا هو مرض موته فلم يبرأ منه[٢]، وقد توفي عام ٢٢٧هـ/٨٤١م، بعد أن حكم فترة قصيرة لم تتجاوز الثماني سنوات بكثير، فمات عن ثمانية وأربعين عاماً، ودفن في مدينة سامراء[٣]. وبذلك انتهت حياة واحد من أهم الخلفاء العباسيين، وأبعدهم أثراً، خاصة في التاريخ العسكري ومواجهة أعداء الخلافة.

(١) العمراني، الإنباء، ص١٠٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٧٠/٦.

(٣) مجهول، العيون والحدائق، ص٥٢٧.

الفصل الثامن

خلافة الواثق بالله

٢٢٧ - ٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٦م

شخصية الواثق

هو أبو جعفر هارون بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، أمه رومية الأصل تسمي قراطيس[١]. وقد وُصف الواثق بأنه: «كان أبيض، تعلوه صفرة، مشرباً بحمرة، حسن اللحية، جميلاً ربعة، حسن الجسم، في عينيه اليمنى نكتة بياض»[٢].

وقد أفاضت المصادر في مدح الواثق، فقال عنه ابن طباطبا: «كان من أفاضل خلفائهم، وكان فاضلاً، لبيباً، فطناً، فصيحاً، شاعراً»[٣]. وقال عنه العمراني: «كان شاعراً، أديباً، كريماً، حليماً، حافظاً لأشعار العرب»[٤]. وقال عنه السيوطي: «ما كان في الخلفاء أحد أحلم من الواثق، ولا أصبر على أذى ولا خلاف منه»[٥].

وكان مولعاً بعمه المأمون، فاقتفي أثره، وتشبه به، حتى أطلق عليه لقب المأمون الصغير، ومرجع ذلك أن المأمون كان يحبه فتعهده بالرعاية حتى إنه قال لأبيه المعتصم: «يا أبا إسحاق لاتؤدب هارون فإني أرضي أدبه «، وكان يعلمه الأدب والخط ويقرئه القرآن بنفسه»[٦].

كما عرف عنه تواضعه الجم، وحفظه للجميل، حتى إن مؤدبه هارون بن زياد دخل عليه يوماً، فأكرمه للغاية، فتعجب من بمجلسه، وسألوه عنه ولمَ خصه بهذا الكرم، فأجابهم بأنه: «أول من فتق لساني بذكر الله، وأدناني من رحمة الله - عز وجل -»[٧].

(١) الداوداري، كنز الدرر، ص٢٢٢.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ١١٩/١١؛ الأزدي، أخبار الدول، ص٣٥٤؛ القلقشندي، مآثر الانافة، ص١٠٨.

(٣) الفخري، ص١٧٣.

(٤) الإنباء، ص١١١.

(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٢.

(٦) العمراني، الانباء، ص١١١.

(٧) البغدادي، تاريخ بغداد، ١٧/١٥.

سياسته الداخلية

بويع للواثق في صبيحة اليوم الذي مات فيه أبوه، في ربيع الأول من عام ٢٢٧هـ/٨٤١م، وكان عمره تسعاً وعشرين سنة[١]. والغريب أن الخبر حين وصل إسحاق بن إبراهيم ببغداد - وكان يوم جمعة - كتم الأمر، بل ودعى للمعتصم في الصلاة، لكنه في الصباح جمع القادة وكبار رجال الدولة وقرأ عليهم نعي المعتصم، وطلب منهم المبايعة للواثق فبايعوا[٢].

موقفه من العلويين

سار الواثق على نهج المأمون في كثير من سياساته، ومن أهمها موقفه من العلويين، فقد أجمعت المصادر[٣] على أنه اتخذ جانب اللين معهم، فلم يضطهدهم أو يتعرض لهم بسوء، وبلغ من حسن معاملته لهم أن وصفه بعضهم بقوله: «ما أحسن أحد إلى آل أبي طالب من خلفاء بني العباس، ما أحسن إليهم الواثق»[٤]. بل وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم بالأموال والعطايا، حتى وصفهم بعضهم في عهده بقوله: «ما مات وفيهم فقير»[٥].

موقفه من قضية خلق القرآن

سار الواثق على درب أبيه في اعتناق الاعتزال، والقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى في الآخرة، فقام بامتحان الناس في تلك القضية، وكتب إلى القضاة في الولايات العباسية؛ لكي يقوموا بالأمر نفسه، الولايات العباسية؛ لكي يقوموا بالأمر نفسه، وألا يجيزوا شهادة من يخالف ذلك[٦].

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٢.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ١١/١١٩-١٢٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٦/٩٢؛ ابن طباطبا، الفخري، ص١٧٣.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ١١/١٢٠.

(٥) البغدادي، تاريخ بغداد، ١٥/١٩.

(٦) اليعقوبي، تاريخه، ص٢٠٧.

بل وقرب إليه أيضاً القاضي أحمد بن أبي داؤد المعتزلي المتشدد، الذي فاق تأثيره على الواثق تأثيره على أبيه المعتصم، فجعله يسلك مسلكاً أكثر تشدداً وعنفاً مع من يرفضون القول بخلق القرآن، حتى إنه كان يقتلهم بيده أحياناً، ولا يأنف من التنكيل بهم حتى بعد موتهم[١].

ومن ذلك؛ مناظرته للفقية أحمد بن نصر الخزاعي، الذي رفض فيها الأخير القول بأن القرآن مخلوق، كما سأله عن رؤية الله يوم القيامة، وكان المعتزلة ينكرون ذلك، فأقر الخزاعي بذلك وفقاً لما جاء في الأحاديث الصحيحة، فقال الواثق: «ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال الواثق: أمخلوق هو؟ قال: كلام الله، قال فما تقول في ربك أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين قد جاءت الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر، لا تضامون في رؤيته»، فنحن على الخبر...»[٢]. ثم استشار الواثق من حوله من فقهاء المعتزلة في أمره، فطالبوه بقتله ما عدا ابن أبي داؤد الذي خشي عاقبة تحمل وزره، فطلب منه أن يستتيبه، لكن الواثق عزم على قتله، خاصة بعد أن نما إلى علمه أنه يطلق لسانه فيه فيصفه بالخنزير والكافر، فأمر بسيف وقام بضرب عنقه بنفسه، ثم أمر بحمل رأسه إلى بغداد وصلبها هناك، وصلب جثته في سامراء. وقد كتبت ورقة وعلقت في أذنه، كتب فيها: «هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبد الله الإمام هارون إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فعجله الله إلى ناره»[٣].

كذلك ما فعله بالفقيه نعيم بن حماد، حين امتنع عن القول بخلق القرآن، وكان قد سُجن في عهد المعتصم، فمات في سجنه زمن الواثق، فأُمر بجره وهو بأقياده، وألقي في حفرة ولم يكفن، ولم يصل عليه[٤].

وخلال عهده أيضاً استمر في تشدده مع أحمد بن حنبل، فاستمر في تعذيبه والتنكيل به، وألزمه داره ومنعه من الخروج منها حتى لا يحتك بالناس[٥].

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ١٢٢/١١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٨٧/٦.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٠.

(٤) البغدادي، تاريخ بغداد، ٣١٣/١٣.

(٥) الأزدي، الدول المنقطعة، ص٣٥٢.

وبلغ من تطرفه في هذا الأمر، أنه حين وقع تبادل للأسرى مع البيزنطيين عام ٢٣٠هـ/٨٤٤م، أمر بعمل امتحان لهؤلاء الأسرى قبل أن يفك أسرهم، ورفض أن يفك أسر من لا يقول بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يُرى في الآخرة منهم، ومن كان يقول بغير ذلك كان يتركه للبيزنطيين[١]. بل زاد على ذلك أنه أمر بامتحان أهل الثغور في القرآن، ولما علم أن أربعة منهم رفضوا القول بخلق القرآن أمر بضرب أعناقهم، وأمر للآخرين بجوائز[٢].

وخلال عهد الواثق نلمح تطوراً في موقف الفقهاء من قضية خلق القرآن، في مواجهة الخلفاء المؤمنين بها، ففي عام ٢٣١هـ/٨٤٥م كادت أن تقوم ثورة ضد الواثق من الرافضين لقوله بخلق القرآن، وقد تجمع هؤلاء الثائرين بقيادة اثنين من أثرياء بغداد، أحدهما يدعي طالب، والآخر أبو هارون الشداخ، حول أحمد بن نصر الخزاعي، لما رأوا من شجاعته ووقوفه ضد الخليفة في قوله، خاصة وأنه كانت لأبيه سابقة أيام الفوضى التي سادت بغداد في أعقاب اختيار المأمون لعلي الرضا ولياً لعهده، حيث بايعه أهل بغداد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نظراً لأنه كان من نقباء بني العباس في بداية دولتهم، ولمكانته بينهم، وظل كذلك حتى قدم المأمون إلى بغداد. وقد كان هؤلاء يأملون أن يجتمع الناس حول أحمد كما فعلوا مع أبيه، لذلك بايعوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والثورة ضد الواثق، وقام طالب والشداخ بتوزيع الأموال على العامة جذباً لهم[٣].

وقد وضعت خطة للتحرك تقضي بأن يخرج بعضهم في يوم محدد ويعلن إشارة متفقاً عليها وهي الضرب على الطبل، وحينها يتجمع الآخرون ويتوجهون لمهاجمة قصر الخليفة. ومن سوء حظ ابن الخزاعي وأنصاره أن الموكلين بهذا الأمر سكروا ذات ليلة، فخرجوا يعلنون بالطبل في يوم سابق للموعد المتفق عليه، ولم يخرج أحد بالطبع، لكن الأمر لفت الأنظار، فتم القبض عليهم، واعترفوا بكل تفاصيل المؤامرة، وقبض على مدبريها وعلى ابن الخزاعي نفسه[٤].

وبرغم أن طبيعة هذا التمرد والتخطيط الساذج له، كان يوحي بما لا يدع مجالاً للشك بأنه سيفشل فشلاً ذريعاً، إلا أن ما يهمنا منه هو أنه بدأت تظهر ملامح لمعارضة قوية من العامة لتوجه الخلافة الفكري، بعد أن اقتصرت هذه المعارضة في البداية على الفقهاء فقط.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ١٦٤/١١.

(٢) مجهول، العيون والحدائق، ٥٣٢/٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٨٦/٦-٨٧.

(٤) مجهول، العيون والحدائق، ٥٢٩/٣-٥٣٠.

لكن الواثق سرعان ما تراجع عن آرائه المتشددة في هذه القضية في أواخر أيامه، وكان سبب ذلك مناظرة تمت بينه وبين فقيه قبض عليه، لمخالفته رأيه في خلق القرآن، حيث نجح الفقيه في إفحام الواثق وحاشيته حتى بهتوا، حيث قال للواثق: «أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه، أعلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يدع الناس إليه، أم شئ لم يعلمه؟ فقال بن أبي داؤد: بل علمه، قال: فكان يسعه أن لا يدعوا الناس إليه، وأنتم لا يسعكم؟ فبهتوا وضحك الواثق». وقد فكر الواثق ملياً في كلام الفقيه واقتنع به، وأمر له بثلاثمائة دينار، وأن يطلق سراحه، وتوقف الواثق بعدها عن هذا الأمر[١].

إدارة شؤون الحكم

إدارة الولايات

لما ارتقى الواثق كرسي الخلافة أبقى على النظام الإداري في إدارة الولايات، الذي كان مطبقاً في عهد أسلافه، فأقر الطاهريين على شرطة بغداد وولاية خراسان، وما يتبعها من ولايات المشرق، وكان عبد الله بن طاهر يضطلع بهذه المهمة، ولما رأى الواثق نجاحه فيها لم ير سبباً لتغييره، خاصة وأنه كان يسير على درب عمه المأمون، فأعطي ثقته للطاهريين. وعندما توفي عبد الله عام ٢٣٠هـ/٨٤٤م أقر الواثق ابنه طاهر مكانه، وظل الطاهريون مضطلعين بأغلب شؤون المشرق[٢]. وإن كان ابن الجوزي يذكر أن الذي نصحه بذلك قاضيه ابن أبي داؤد، حيث ذكر له أن هذه الخطوة ستحقق له ثلاث مكاسب؛ أولها: أنها ستوفر الأموال التي ستنفق على الوالي الجديد، وستوفر إرسال جيوش جديدة معه، بجانب أن الناس سيقدرون له وفائه لأنه سيكرم هذه الأسرة التي خدمت الخلافة لسنوات طويلة، فقال له: «ولِ طاهراً، واربح إنفاق المال، وإنفار الجيوش، يتحدث الناس بوفائك»[٣].

وعلى الوتيرة نفسها سار الواثق فيما يخص شؤون المغرب، فاعترف بالأغالبة ولاة على المغرب كما فعل الرشيد، ومن بعده المأمون والمعتصم، وأقر محمد بن إبراهيم بن الأغلب على ولاية المغرب[٤].

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٨٢/٦.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ١٥١/١١.

(٤) مجهول، العيون والحدائق، ٥٢٩/٣.

لكن الواثق وقد سار على نهج أبيه في الاعتماد على الأتراك، اتخذ إجراءات جديدة لم تكن معهودة من قبل، حيث أعطى حق الإشراف الإداري على ولايات الخلافة لقادته الأتراك، حيث أعطى حق الإشراف الإداري على ولايات المشرق لقائده التركي إيتاخ، والإشراف على الولايات الغربية لقائده أشناس[١]. وغالباً كان هذا الإشراف ظاهرياً فقط، خاصة مع بقائهما في العاصمة سامراء، ويبدو أن الغرض منه كان منحهما ألقاباً شرفية لاعتماد الخليفة عليهما، خاصة بعد تكريمه المادي والمعنوي لهما، حيث قام بتقليد أشناس تاجاً ووشاحين من الجواهر[٢]، كما قلد قائده وصيف سيفاً وكسوة، بجانب خمس وسبعين ألف دينار[٣]. لكن الواثق لم يكتف بهذه الألقاب فقط، بل نراه يخلع على قائده أشناس لقب سلطان، فكان بذلك أول خليفة يَمنح هذا اللقب[٤].

وقد اعتمد الواثق في إدارة شؤون خلافته على وزير أبيه، محمد بن عبد الملك الزيات، وعلى الرغم من أن علاقة الواثق به أيام المعتصم كانت سيئة، حيث أمر المعتصم ذات مرة ببعض المال لابنه الواثق، لكن ابن الزيات أشار عليه ألا يعطيه شيئاً، فنزل على رأيه ومنع ابنه منه، فأسرها الواثق في نفسه وحلف: لإن ولاه الله الخلافة ليقتلن الزيات. فلما ولي الخلافة وأراد أن يبر بقسمه؛ بحث عمن يوليه الوزارة فلم يجد في كفاءة ابن الزيات، فلم يجد مفراً من الاعتماد عليه.

وكانت الأيام كفيلة بأن ينسي الواثق فعلة ابن الزيات معه، بل إن الواثق منحه ثقته حتى إنه سمح له بأن يختار أحد الولاة على ولاية اليمامة والبحرين، وكان هذا أمراً غير مسبوق، حتى إن الطبري يذكره قائلاً: «ولم يذكر أن أحداً عقد لأحد في دار الخلافة إلا الخليفة غير محمد بن عبد الملك الزيات»[٥].

---

(١) اليعقوبي، تاريخه، ٢٠٥/٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ١٢٩/١١.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤١/٩.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٠.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤٠/٩.

موقفه من الكُتاب

سعي الواثق للقيام ببعض الإصلاحات الإدارية للحد من فساد وتضخم نفوذ كبار رجال دولته وخاصة الكتاب، الذين استفحلت ثرواتهم بدرجة دلت على فسادهم واستئثارهم بموارد الدولة، فقام عام ٢٢٩هـ/٨٤٣م بحبسهم وصادر كثيراً من أموالهم، فبلغ ما جمعه قرابة المليون دينار[١].

وقد ذكرت المصادر أن سبب إقدامه على تلك الخطوة؛ يرجع لجلسة جمعته مع بعض المقربين منه، فسألهم فيها عن سببٍ نكبة جده الرشيد للبرامكة، فذكر بعضهم أن السبب يرجع لأن الرشيد أعجبته يوماً جارية فأراد شراءها، وكان ثمنها مائة ألف دينار، فطلب من يحيى البرمكي هذا المال فقال: «هذا مفتاح سوء، إذا أخذ ثمن جارية بمائة ألف دينار، فهو أحرى أن يطلب المال على قدر ذلك، فأرسل يحيى إليه أنني لا أقدر على هذا المال، فغضب الرشيد وأعاد لابد منها، فأرسل يحيى قيمتها دراهم، فأمر أن تجعل على طريق الرشيد ليستكثرها ففعل ذلك، فاجتاز الرشيد بها فسأل عنها فقيل: هذا ثمن الجارية فاستكثرها فأمر بردها»[٢].

ورغم أن يحيى البرمكي أراد أن يظهر أمام الرشيد بمظهر المحافظ على أموال الخلافة، إلا أن هذه الحادثة جعلت الرشيد يستفسر عن الشؤون المالية للبرامكة، فعلم بأنهم أطلقوا أيديهم فيها. ثم كانت القشة التي قسمت ظهر البرامكة حين أمر الرشيد لأحدهم بجائزة فماطل البرمكي في أدائها إليه، فوصل الخبر للرشيد مع أبيات يقول مطلعها:

واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فردد الرشيد الشطر الأخير وقال: أجل إنما العاجز من لا يستبد، ونكب البرامكة. ففعل الواثق مثله، وقال: صدق والله جدي وررد قوله، وقرر أن يحاسب الكتاب[٣].

ولاشك أن موقفه من الكتاب لم يكن نتيجة حديث جمعه مع بعض حاشيته فقط، أو نتيجة تصرف عفوي من جانبه، بل إن هذا الموقف كان رد فعل لما وصله من أخبار عن فسادهم. ونستشف ذلك على سبيل المثال: مما رواه اليعقوبي عما فعله

(١) اليعقوبي، تاريخه، ٢٠٦/٣؛ ابن الجوزي، المنتظم، ١٤٤/١١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٧٩/٦-٨٠.

(٣) مجهول، العيون والحدائق، ٥٢٧/٣-٥٢٨.

الواثق مع أحد هؤلاء، فنراه يقول: «وسخط الواثق على إبراهيم بن رباح ... وكان قد ولاه ديوان الضياع، فتشاغل باللهو، وفوض أمره إلى نجاح بن سلمة كاتبه ... وتجافيا للناس عن أموال كثيرة، فكثروا عليه عند الواثق ..»[١].

وتفصح رواية اليعقوبي عن مدى تقاعس بعض هؤلاء الكتاب وفسادهم، وإهمالهم لشؤون عملهم، مما أضاع على خزينة الخلافة كثيراً من الأموال، مع تضخم ثرواتهم بالمقابل مما يدل على رشوتهم. لذلك يبدو أن الواثق ربما أضمر في نفسه القيام برد فعل قوي تجاههم نتيجة فسادهم، لذلك سأل عن دوافع جده، ليقف على حقيقة الأمر ويقارنه بما سوف يفعله، ويظهر ذلك في قوله: «صدق والله جدي، إنما العاجز من لا يستبد، ثم أخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها»[٢].

ولسنا مع الرأي الذي رآه بعض الباحثين[٣] من أن دافع الواثق في نكبة كتابه كان طمعاً في أموالهم؛ لأنه كان في حاجة إليها. لأن الواثق اشتهر بكرمه مع الجميع سواء من الرعية أو مع كبار رجال دولته، ولم يؤثر عنه أنه صادر أي أموال أثناء خلافته باستثناء ذلك، كما أن المبلغ لم يكن بالضخامة التي تستحق أن يقوم بمصادرتها، فهو على الأغلب إجراء عقابي أكثر منه اقتصادي. ودليل ذلك أن الواثق كان قد ألغى أعشار سفن البحر، وهي ضريبة كانت تحقق مكاسب كبيرة[٤].

الثورات الداخلية

قامت خلال عهد الواثق بعض حركات التمرد في شبه الجزيرة العربية، ولم تكن هذه الحركات في أغلبها حركات سياسية، تهدف للتمرد على الحكم العباسي، بقدر ما كانت حركات اقتصادية، تهدف للسلب والنهب وإشاعة الفوضى، قامت بها بعض القبائل العربية في محيط المدينة وما حولها من مناطق، مستغلة ضعف الحاميات العسكرية العباسية في تلك المنطقة، ومن الملاحظ أن أغلب تلك الحركات كانت من قبائل العرب القيسية، ومن أهم تلك الحركات:

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٦/٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ١٤٤/١١.

(٣) عن هذا الرأي انظر: عبد العزيز الدوري، العصر العباسي، ص٢١٨؛ محمد ربيع مدخلي، المصادرات في العصر العباسي الأول من عهد الخليفة المنصور حتى عهد الواثق بالله، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٧، العدد (٣٤)، ١٤٢٦هـ، ص٢٥٢.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤٥/٩.

ثورة بني سُليم وبني هلال

كان عرب بني سليم[١] وبني هلال[٢] يغيرون على أسواق الحجاز، فينهبون أسواقها ويأخذون البضائع بأي أسعار أرادوا، كما كانوا يهددون طريق الحج. فلما علم عامل المدينة بذلك أرسل حماد بن جرير لمعاقبتهم، وصحب معه جند المدينة وبعض المتطوعة من أهلها، ولكنهم هزموه وقتلوه وأكثر من معه، واستولوا على ما معه من السلاح والأموال، وزاد هذا الامر في سطوتهم، فبدأوا في مهاجمة القرى التي تقع بين مكة والمدينة وينهبونها، ويقطعون الطريق على من يمر بها[٣].

وينفرد اليعقوبي[٤] برواية يذكر فيها أنهم نصبوا رجلاً منهم يسمي عزيزة الخفافي خليفة، وبايعوه بذلك. ولكن هذا الأمر يبدو بعيداً، فربما نصبوه رئيساً لهم، أما طمعهم في الخلافة فهو أمر مستبعد.

ولما نما الخبر إلى الواثق؛ أرسل لهم جيشاً بقيادة قائده بغا الكبير عام ٢٣٠هـ/٨٤٤م، الذي قرر أن يهاجم في البداية بني سليم، فقصد أماكن تجمعهم وأسر بعضهم، ثم دعاهم للتسليم مقابل الأمان، ولما رأوا مدى قوته وأنهم لن يتمكنوا من مواجهته استسلموا له، فقام بإطلاق سراح بعضهم وأسر من خشي خطورته[٥].

بعد ذلك قرر التوجه لبني هلال، فانتظر انتهاء موسم الحج ثم حاصرهم، ودعاهم للتسليم بشروط بني سليم نفسها فقبلوا، وفعل معهم مثل ما فعل بهم، فأسر من يخشى خطورته، وأطلق سراح الباقين. فكان جملة من أسرهم في سجون المدينة ألف وثلاثمائة أسير[٦].

---

(١) هم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، كانت مساكنهم في نجد بالقرب من خيبر، وهم أكثر قبائل قيس عدداً، انظر: النويرى، نهاية الأرب، ٣٤١/١؛ القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الإبياري، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) هم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، كانت مساكنهم في وسط نجد، انظر: ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ج١، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٢، ص٣٨٤؛ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، ٣٩٦/٣.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ١٥٠/١١-١٥١.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٥/٣.

(٥) مجهول، العيون والحدائق، ٥٣٣/٣.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل، ١٣٢/٩.

وقد استغل هؤلاء الأسرى فرصة رحيل بغا عن المدينة، وحاولوا الفرار من محبسهم، وقد عرضوا في البداية الرشوة على حراس السجن مقابل السماح لهم بالفرار، فقبل بعضهم، وحددوا لهم موعداً للهرب، لكنهم لم يصبروا على الموعد، فنقبوا جدار السجن وقتلوا الحراس الموكلين به واستولوا على أسلحتهم، ولكنهم لم يتمكنوا من الفرار بعيداً، فقد رأت امرأة من أهل المدينة النقب الموجود في سور السجن؛ فاستغاثت بأهل المدينة فأجابوها، ثم حاصروا الأسرى فلم يبقوا على أحد منهم(١).

وعندما عاد بغا للمدينة؛ وعلم بما حدث أصابه الضيق، ويبدو أنه لم يرد أن توصف مهمته بالدموية والعنف، خاصة أن مهمته كانت تسير بنجاح، وتمكن من القضاء على خطرهم.

ثورة بني فزارة

وكان من ضمن ثورات العرب الأخرى ثورة بني فزارة(٢) ومعهم بني مرة(٣)، وبني كلاب(٤) عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م، وكانوا قد استولوا على فدك، وقد اتجه بغا لقتالهم وبدأ ببني فزارة، واستخدم معهم أسلوب التفاوض، فأرسل إليهم أحد قادته وكان من قبيلتهم، فحذرهم من قوته وشجعهم على الهرب، فتركوا فدك واتجهوا إلى الشام، ودخل مضاربهم وقبض على من وجده من بني فزارة وبني مرة(٥).

بعدها اتجه بغا إلى مضارب قبيلة بني كلاب فحاصرهم، ثم عرض عليهم التسليم مقابل الأمان، فأجابوه لطلبه وسلموا له، فأطلق سراح كثير منهم، وأبقى على من استشعر خطورته كما فعل في السابق، ثم اصطحب الأسرى ووضعهم في سجن المدينة(٦).

(١) ابن الأثير، الكامل، ٨٥/٦.

(٢) هم بنو فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن قيس بن عيلان، كانت مساكنهم في نجد ووادي القري، انظر: القلقشندي، قلائد الجمان، ص١١٣.

(٣) هم بنو مُرة بن فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن قيس بن عيلان، ويسمون بني منولة نسبة إلى أمهم، انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٢٥٥.

(٤) هم بنو كلاب بن عامر بن صعصعة بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، كانت مساكنهم في فدك وبجوار المدينة، انظر: النويرى، نهاية الأرب، ٣٣٨/٢.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ١٣٤/٩.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٨٦/٦.

حركة بني نمير

قامت في الجزيرة العربية ثورة ثالثة عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م، بزعامة قبيلة بني نمير[١]، الذين عاثوا في الأرض فساداً، وقطعوا الطريق، ونهبوا القرى المجاورة لهم. وقد وصل خبرهم إلى الواثق، فكتب لبغا وهو بالمدينة بالتوجه لقتالهم[٢]، فاتجه إليهم بغا، وفي طريقة اصطدم ببعض رجالهم فأسرهم، ثم وصل إلى مضاربهم وحاصرهم، وعرض عليهم ما عرض على القبائل التي سبقتهم من التسليم مقابل الأمان، لكنهم رفضوا ذلك، وجمعوا له كل رجالهم وهجموا على جيشه، وتمكنوا من النيل منه وهزيمته، لكن الأمور انقلبت لصالح بغا حين انضم له مدد من بعض رجاله، كان قد أرسلهم في مهمة وعادوا، فباغتوا بني نمير، مما أصابهم بالمفاجأة، فاضطربوا وفر أغلبهم، ووقع الباقي في أسر بغا[٣].

ولم يكتف بغا بذلك، بل واصل مطاردتهم حين وصلته بعض الإمدادات من الواثق، ونجح في أسر كثير منهم، ثم عاد إلى بغداد، وأرسل لوالي المدينة يطلب منه أن يرسل إلى بغداد منٍ عنده من أسري العرب ففعل، فبلغ عددهم ألفي رجل ومائتين[٤].

سياسته الخارجية

وصلت القوة العسكرية للخلافة العباسية خلال عهد الواثق إلى مرحلة من الإجهاد الشديد، نتيجة كثرة المواجهات العنيفة التي مرت بها في الداخل والخارج؛ مما ألقى بظلاله على الجيش العباسي في عهد الواثق، فلم يدخل في مصادمات حربية كبيرة على النطاقين الداخلي والخارجي.

وانعكس هذا الوضع على علاقة الخلافة بالدولة البيزنطية، فساد الهدوء هذه العلاقات، خاصة مع مرور الأخيرة بفترة من الاضطرابات والخلافات التي ضعضعت

(١) هم بنو نمير بن عامر بن صعصعه بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، كانت مساكنهم في فدك وبجوار المدينة، انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ج٢، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٨٢، ص٢٧٩؛ النويري، نهاية الأرب، ٣٣٧/٢.

(٢) مجهول، العيون والحدائق، ٥٣٣/٣؛ ابن الجوزي، المنتظم، ١٧٦/١١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٩٠/٦.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤٩/٩-١٥٠.

قواها، وجعلتها لا ترغب في الدخول في مواجهات عسكرية جديدة مع العباسيين. ونتيجة ذلك سعي الطرفان لفترة هدوء وسلام، تخللتها عمليات لتبادل الأسرى بين الطرفين.

وقد ذكرت المصادر العربية أن الإمبراطور البيزنطي ميخائيل بين ثيوفيل هو من أرسل للواثق يطلب عملية تبادل الأسرى[١]، ولم يمانع الواثق في ذلك، فلم يكن الواثق أول خليفة عباسي يقوم بهذا العمل، بل سبقه إليه كل من: هارون الرشيد، وابنه الأمين، فقد جرى الفداء الأول مع البيزنطيين عامٍ ١٨٩هـ/٨٠٤م[٢]، بينما تم الفداء الثاني عام ١٩٢هـ/٨٠٧م[٣]. وقد اختار الواثق مندوباً عنه في عملية الفداء يدعي خاقان. وقد مرت عملية تبادل الأسرى بمرحلتين:

المرحلة الأولى: وجرت فيها المفاوضات بين رسل الإمبراطور البيزنطي والوزير ابن الزيات، حول نوعية الأفراد الذين سوف يشملهم الفداء، وقد تمسك الجانب البيزنطي بألا تضم عملية تبادل الأسرى الشيوخ، والعجائز من النساء، والصبية. لكن ابن الزيات رفض ذلك، واستمر التفاوض بين الطرفين إلى أن نجح ابن الزيات في جعل التبادل حراً، نفساً مقابل نفس، دون تحديد شروط لذلك[٤].

ويبدو أن أعداد الأسرى المسلمين في السجون البيزنطية كانت تفوق بكثير أعداد الأسرى البيزنطيين لدى العباسيين، حيث بلغ عددهم ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة. لذلك أمر الواثق بشراء بعض المماليك الروم من الأسواق ليدخلهم في عملية الفداء، ولكن يبدو أن العدد لم يف بالغرض، فأخرج الواثق من قصره الجواري الروميات حتى تم العدد[٥].

وخلال هذه الفترة؛ كان الواثق ما زال على شدته فيما يتعلق بقضية خلق القرآن، فأمر بامتحان هؤلاء الأسرى قبل فدائهم، فمن قال بخلق القرآن يتم فدائه ويعطي جائزة، ومن رفض يتم تركه لدى البيزنطيين[٦].

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٧/٣.

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٨٩.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ٢٣٨/٨.

(٤) مجهول، العيون والحدائق، ٥٣٢/٣.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤٢/٩.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ١٦٤/١١.

المرحلة الثانية: وجرى فيها التجهيز لعملية الفداء على ضفاف نهر بالقرب من طرسوس، حيث اجتمع المسلمون ومعهم أسراهم على الجانب الشرقي من النهر وعلى الجانب الغربي منه وقف البيزنطيون ومعهم الأسرى المسلمين. ثم جرى مد جسرين بين ضفتي النهر، خصص أحدهما لعبور الأسرى المسلمين والآخر للأسرى البيزنطيين، فكان كل طرف يطلق أحد الأسرى فيرد عليه الطرف الثاني بإطلاق أسير من عنده حتى اكتمل الفداء[١].

ويبدو أن عملية الفداء كانت تتم ببطء، حيث استمرت طيلة أربعة أيام، كما يبدو أن حرص الواثق على فداء كل الأسرى المسلمين جعله يشتري كثيراً من المماليك الروم، مما زاد عن العدد المطلوب للفداء، لذلك انتهت عملية الفداء، وظل لدى المسلمين بعض الأسرى البيزنطيين، فقام مندوب الخليفة بتسليم الجانب البيزنطيين مائة رجل منهم على سبيل الهدية، ثم قاموا ببيع الباقي، كما أعطاهم الأمان، حيث خشوا أن يستغل المسلمين كثرتهم ويهاجموهم بعد الفداء، فمنحهم أربعين يوماً حتى يكونوا قد وصلوا إلى بلادهم آمنين[٢].

وبعد هذا الفداء؛ قام أحمد بن سعيد قائد الثغور بمحاولة غزو الحدود البيزنطية، ولكن يبدو أن تحركه كان عشوائياً دون تخطيط مسبق أو مراعاة للظروف الطبيعية، لذلك فشلت الحملة رغم عددها الكبير، ومات كثير من الجيش نتيجة البرد والمطر، وغرق بعضهم في أنهار المنطقة. وقد أصاب الواثق الغضب نتيجة ذلك، فعزل ابن سعيد من ولاية الثغور[٣].

وباستثناء عمليات تبادل الأسرى، وهذه المحاولة الفاشلة لغزو الحدود البيزنطية، لم تشهد العلاقات العباسية البيزنطية جديداً خلال عهد الواثق، خاصة في ظل قصر فترة حكمه.

وفاته

لم يعش الواثق طويلاً بعد أن تولي الخلافة، حيث أصيب بمرض الاستسقاء، وكان فيه نهايته؛ وكان سبب إصابته بهذا المرض هو حبه لجارية فائقة الجمال، كان لا يصبر عنها، فطلب من طبيبه أن يصف له دواء يعينه على ذلك، فلما نصحه طبيبه بعدم الإفراط في الجماع، حتى لا يؤذي بدنه رفض نصيحته، وأصر

(١) ابن الأثير، الكامل، ٨٨/٦.

(٢) مجهول، العيون والحدائق، ٥٣٣/٣.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ١٤٤/٩.

على طلبه، ولما لم يجد الطبيب منه آذاناً صاغية وصف له مقداراً محدداً من شراب لحم سبع مغلي، على ألا يفرط في استخدامه حتى لايؤذيه. لكن الواثق لم يلتزم بنصيحة طبيبه، وأفرط في تناول الشراب، مما أدى لاصابته بالاستسقاء[١].

وقد فشل الأطباء في مداواته من هذا المرض، فكانت نهايته القاسية بعد معاناته معه عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م، ومن الغريب أنه أثناء مرضه أحضر المنجمين ليستطلعوا له الغيب، فقدروا أنه يعيش خمسين سنة بعد ذلك، فلم يعش بعد قولهم غير عشرة أيام[٢].

وكان الواثق قد رفض أن يختار ولياً لعهده من أبنائه؛ حتى لايتحمل تلك المسئولية [٣]، وإن كانت لدينا رواية تخص خليفته المتوكل، وتذكر أن المتوكل رأى في المنام كأن سكراً ينزل عليه من السماء مكتوب عليه المتوكل على الله، فقصها على أصحابه فقالوا: هي والله الخلافة، فبلغ ذلك الواثق فحبسه، وضيق عليه[٤].

وهكذا ترك الواثق الخلافة دون أن يحدد ولي عهده، مما أوقع كبار رجال الدولة في حيرة من أمرهم حول من يتولى الخلافة، فقد انضم فريق منهم لمحمد بن الواثق وبايعوه بالخلافة، لكن القاضي أحمد بن داؤد نازعهم في ذلك معترضاً على تولية هذا الغلام الصغير، ثم أحضر المتوكل وألبسه وعممه وقبل بين عينيه، وقال له: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، فبايعه الناس من بعده، ثم صلى المتوكل على أخيه الواثق ودفنه[٥].

وبوفاة الواثق بالله انتهت فترة من أهم فترات التاريخ العباسي، وهي التي أصطلح الباحثون على تسميتها بالعصر العباسي الأول، وهي الفترة التي شهدت قوة الخلافة العباسية وازدهارها، لتدخل بعدها مرحلة جديدة اختلف فيها حال الخلافة، تأرجحت خلالها بين القوة والضعف، وشهدت خلالها من الأحداث والخطوب ما جعل الباحثون يجعلون منه عصراً مستقلاً بذاته.

---

(١) الأزدي، الدول المنقطعة، ص٣٥٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٩٢/٦.

(٣) اليعقوبي، تاريخه، ٢٠٨/٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٩٤/٦.

(٥) القلقشندي، مآثر الإنافة، ص١١٠.

الخاتمة

نظرة تحليلية الخلافة العباسية في العصر العباسي الأول

على الرغم من أن العصر العباسي الأول يُعد - زمنياً - من أقصر الفترات في عمر الخلافة العباسية الذي جاوز الخمسة قرون ونيفاً، فإنه أُعتبر العصر الذهبي لها بحق، وكيف لا؟ وقد شهد هذا العصر أعظم خلفاء بني العباس وأبعدهم تأثيراً، وكان هو العصر الذي وُضعت فيه لبنات هذه الخلافة، وتوطدت فيه دعائمها.

وقد اتسم هذا العصر ببعض الخصائص التي ميزت حكامه، وطبعت سياستهم العامة في الداخل والخارج. ولنبدأ بالسمات الشخصية لخلفاء هذا العصر، حيث غلب على معظمهم القوة والشدة والحكمة، مما سمح لهم بإدارة أمور الخلافة في سلاسة برغم التحديات الكثيرة التي واجهتهم، والتي كادت أن تعصف بدولة الخلافة.

ورغم أن بعض الخلفاء ترك شؤون الحكم لفترة لبعض المقربين منهم، كما فعل الرشيد مع البرامكة، والمأمون مع الفضل بن سهل، فإن ذلك كان لفترة مؤقتة وتحت سمعهم وبصرهم، فإذا ما وجدوا أنهم قد جرى تهمشيهم، انتزعوا هذه السلطات منهم، وجعلوا عاقبتهم مثار حديث الناس، حتى لايطمح غيرهم لما صاروا إليه.

وفيما يخص الصراع مع بني عمومتهم من العلويين، فقد اتخذ أشكالاً عدة، مابين الكر والفر في المواجهة المباشرة والمواجهة المستترة، ومن القسوة والعنف إلى التسامح والملاينة من جانب الخلفاء العباسيين. وفيما ناطح بعضهم الخلفاء العباسيين ورنت أبصارهم صوب كرسي الخلافة، كما فعل محمد النفس الزكية، آثر بعضهم السلامة فجنحوا إلى السلم.

ولم يستطع العلويون أن ينتزعوا الخلافة من العباسيين، وحين داعبت مخيلتهم أحلام المُلك والخلافة، عندما أُختير أحدهم ولياً للعهد، مثلما فعل المأمون مع علي الرضا، سرعان ما أفاقوا منها سريعاً، وبدت لهم كأضغاث أحلام؛ حين مات علي الرضا قبل أن يهنأوا باختياره طويلاً.

وقد أظهر العباسيون صبراً ومثابرة في تعقب العلويين ومطاردتهم من ناحية، وبسط أيديهم إليهم باللين من ناحية أخرى، لإدراكهم أنهم الخطر الأشد على خلافتهم، ومن ثم عملوا على اتخاذ الحذر منهم، بل واستخدام العنف والشدة في بعض الأحيان، والتي وصلت إلى القتل والحبس والتشريد، لوقف أي طموح علوي نحو الخلافة.

أما عن علاقة العباسيين بالفرس، فلم ينس الخلفاء للفرس مساندتهم الخلافة العباسية، وحفظوا لهم الجميل، فجعلوهم من المقربين منهم، وأطلقوا أيديهم في شؤون الخلافة، ولكن العباسيين - وإن كانوا قد مدو أيديهم للفرس - فلكي يعلوا بهما لا عليهما، لذلك كلما توجس الخلفاء منهم خيفة، كانوا لا يتورعون عن البطش بهم، مهما بلغت درجة صلتهم بالخلفاء.

وقد تكرر هذا المشهد خلال العصر العباسي الأول كثيراً، بداية من أبي جعفر المنصور؛ الذي أطاح برأس كبير دعاة العباسيين أبي مسلم الخراساني، حينما حاول أن يناطح الخليفة في سلطانه. وعلى نهجه سار الرشيد الذي أطلق أيدي البرامكة في شؤون الخلافة، وفاء لجميلهم بتربيته في كنفهم، لكن كرمه أطمعهم فيه، فنافسوا الرشيد على السلطة، فأمهلهم الرشيد كثيراً، حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، فصاروا عبرة لمن لا يعتبر.

وعلى درب الأسلاف سار الأبناء، فقد بسط المأمون يده كل البسط لوزيره الفضل بن سهل في بداية حكمه، معترفاً بفضله في الوصول للخلافة، لكنه سرعان ما أنقلب عليه حين شك بنواياه، فدبر له من يتخلص منه، ولم تكن نهايته بأفضل حالٍ من سابقيه. ومع تعدد مساوئ الفرس، نفذ صبر الخلفاء العباسيين نحوهم، فتطلعوا لعنصر جديد يعتمدون عليه، بعيداً عن العرب الذين لم يضمنوا ولاءهم، ولا الفرس الذين كثرت سقطاتهم. وكان الأمل في الأتراك كعنصر فتي، ألقي العباسيون على كواهله عبء مساندة الخلافة، وقد أدي الأتراك مهمتهم باقتدار في بادئ الأمر، لكنهم سرعان ما صارو نقمة على الخلافة، خاصة في العصر العباسي الثاني، مع ضعف الخلفاء وخضوعهم لسيطرتهم.

وتميز العصر العباسي الأول بكثرة الخلافات في البيت العباسي حول ولاية العهد، ومن أحق بها، فقد حرص بعض الخلفاء على نقل ولاية العهد لأبنائهم حتى

لـو كانـت تخالـف وصيـة آبائهـم، كما حدث مع المهـدي ومن بعده الهـادي ثم الأمين، ورغم أن بعض الخلفاء حاول أن يتجنب هذا الصدام مثلما فعل الرشيد، لكن محاولته بـاءت بالفشـل. وقـد أدي هـذا التوجـه لكثيرٍ مـن الصراعـات، كان أخطرهـا الصـراع الدمـوي بـين الأخوين الأمـين والمأمون.

وقـد شـهد هـذا العصر نهضـة معمارية هائلـة، تمثلت في تشـييد عـدد مـن الحواضـر للخلافة، لعل أهمها مدينة بغداد، التي أنشأها أبو جعفر المنصور، والتي صارت واحدة من أشـهر المدن الإسـلامية على مر العصور، والتي كان إنشاؤها واحدة من علامـات القـوة العباسـية الجديـدة، حيـث صـارت حاضـرة للخلافـة، ومركـزاً سياسـياً واقتصاديـاً وثقافيـاً هائـلاً.

وفيما يخص سياسـة الخلفاء العباسـين الخارجية، فقد ورث العباسـيون عن أسلافهم الأمويـين إمبراطوريـة مترامية الأطـراف، امتدت مـن نهـر جيحـون شـرقاً، حتى شـواطئ المحيط الأطلسـي غرباً. وورثوا معها تخوماً غير آمنة مع ممالك الجوار، لذلك كان جهدهم الأساسـي - بـل الكلـي - منصرفـاً نحو تعزيـز وجودهم هناك، وشـن الحرب باسـتمرار في الجغرافيـة الـتي يسـيطرون عليهـا، وفي الجغرافيـة المحيطة التي يطمعون بالتوسـع فيها. لكن ذلـك لم يكـن يعـني أن العباسـيين كانـوا يميلون للعدوان، فلا شـك أن تلـك الظـروف هي الـتي دفعتهم لذلك.

وقـد بـرز اهتمـام العباسيين بالجانب البيزنطي بوصفه أخطر أعـداء الخلافة، خاصة مع الهجمات المستمرة للبيزنطيين على الحدود الإسـلامية. وقد تمثل هذا الاهتمام في عدة صور، لعل أهمها بناء الحصون، وشحنها بالرجال والسلاح، وعمل تنظيم ثغري يربط هذه الحصون والمدن الثغرية بشـكل مترابط.

كذلـك لم يخلُ عهـد أي خليفـة خـلال العصـر العباسـي الأول مـن عـدة حمـلات هاجمت الأراضي البيزنطية، وحرص كثير من الخلفاء على قيادة هذه الحملات بأنفسهم، ليؤكـدوا اهتمامهـم بهـذا الأمـر. وحقيقـة لم يتمكـن العباسـيون مـن تحقيـق الحلـم الأموي القديـم بفتـح القسـطنطينية عاصمـة البيزنطيـن، ومع ذلك؛ يحسـب للعباسـيين محافظتهم على حدود الدولة الاسلامية من الخطر البيزنطي، ورد أطماعه عن الأراضي الإسلامية.

الملاحق والخرائط
قائمة بحكام الدولة العباسية، وفترات ولايتهم

أبو العباس السفاح (٢٣١ ـ ١٣٦هـ/٠٥٧-٣٥٧م)

أبو جعفر المنصور (١٣٦ـ ١٥٨هـ/٣٥٧-٥٧٧م)

المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٥٧٧-٦٨٧م)

الهادي (١٦٩ - ١٧٠هـ/٥٨٧-٦٨٧م)

هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٦٨٧-٨٠٨م)

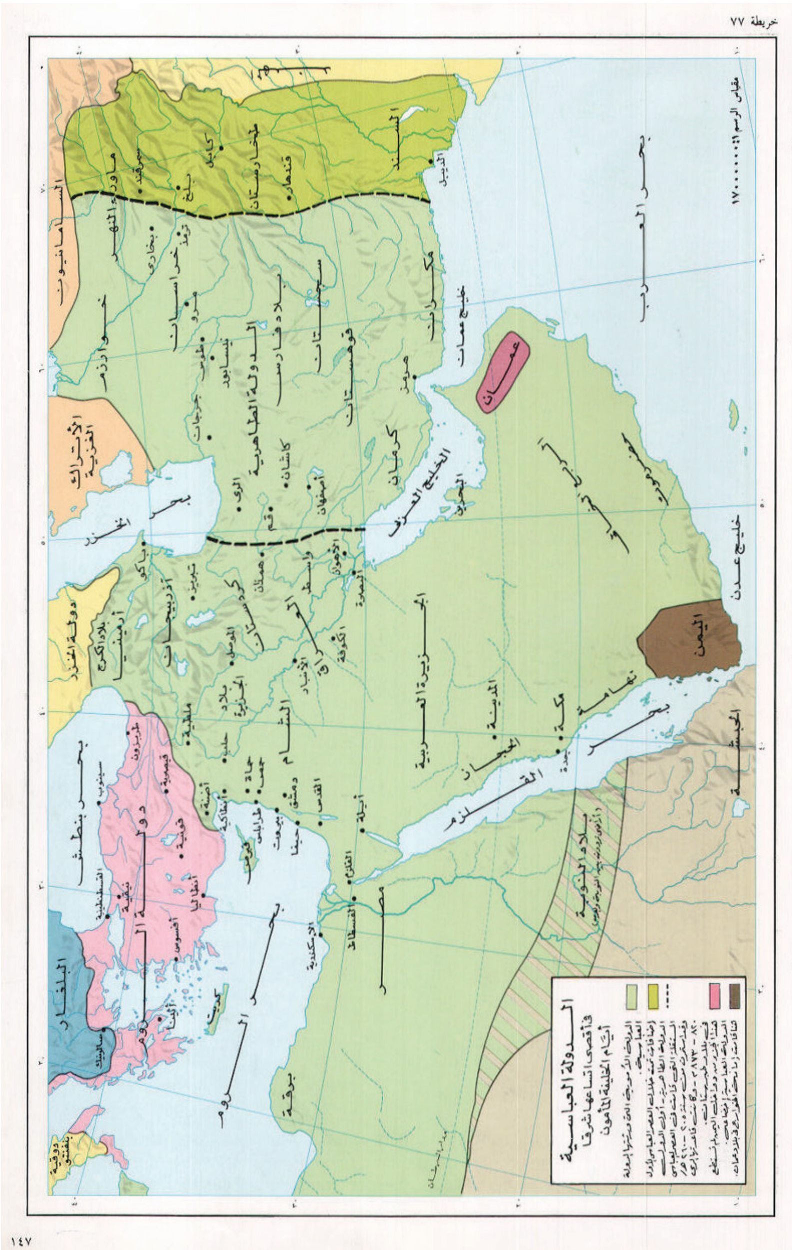
الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٤١٨م)

المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٣٣٨م)

المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م)

الواثق بالله (٢٢٧ -٢٣٢هـ/٨٤١-٦٤٨م)

خريطة الدولة العباسية



نقلاً عن حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٤٧

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

❖ ابن الأثير

- الكامل في التاريخ ، مراجعة : محمد يوسف الدقاق ، بيروت ١٩٨٧.

❖ الأزدي (ابن ظافر)

- أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : عصام هزايمه وآخرون ، الأردن ١٩٩٩.

❖ الأزدي

- تاريخ الموصل ، تحقيق : علي حبيبة ، القاهرة ١٩٦٧.

❖ ارشيبلد لويس

- القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٥ .

❖ الاصطخري

- المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة ١٩٦١.

❖ الأصفهاني (أبو الفرج).

- مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩.

- الأغاني ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٥٠.

❖ الأصفهاني (حمزة بن حسين).

- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، بيروت (د.ت).

❖ أمينة البيطار

- تاريخ العصر العباسي ، دمشق ١٩٩٧ .

❖ ابن أيبك الداوداري

- كنز الدرر وجامع الغرر ، ج٥ ، الدرة السنية في أخبار الدولة العباسية ، تحقيق : دوروتيا كرافولسكي ، بيروت ١٩٩٢ .

❖ اينهارد.

- سيرة شارلمان ، ترجمة عادل زيتون ، دمشق ١٩٨٨ .

❖ بزرك بن شهريار.

- عجائب الهند بره وبحره ، ليدن ١٨٨٦.

❖ البغدادي

- الفرق بين الفرق ، بيروت ١٩٨٧.

❖ البلاذري

- فتوح البلدان ، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٨٧.

- أنساب الأشراف ، تحقيق : سهيل ذكار ، بيروت ١٩٩٦.

❖ البيهقي

- تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب ، صادق نشأت ، القاهرة ١٩٦٠.

❖ الجاحظ

- الحيوان ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٥.

❖ الجهشياري

- الوزراء والكتاب ، تحقيق إبراهيم الابياري ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٣٨.

❖ ابن الجوزي

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق : محمد عبد القادر ، مصطفى عبد القادر ، بيروت ١٩٩٢ .

❖ ابن حزم الأندلسي

- جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٣.

❖ حسن أحمد محمود.

- العالم الإسلامي في العصر العباسي ، القاهرة (ب.ت)

❖ حسين عطوان

- الدعوة العباسية تاريخ وتطور ، بيروت ١٩٩٥.

❖ ابن حوقل

- صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ .

❖ ابن خرداذبة

- المسالك والممالك ، نشر دي غويه ، ليدن ١٨٨٩ .

❖ الخطيب البغدادي

- تاريخ مدينة السلام ، تحقيق : بشار عواد ، بيروت ٢٠٠١.

❖ ابن خلكان

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ١٩٧١ .

❖ خواندمير

- تاريخ روضة الصفا ، الجزء الخاص بتاريخ الدول ، الطاهرية ، الصفارية ، السامنية ، آل بويه ، ترجمة وتعليق أحمد الشاذلي ، القاهرة ، ١٩٨٨.

❖ ابن خياط

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : مصطفى فواز ، بيروت ١٩٩٥.

❖ ابن دحية الكلبي

- النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، تحقيق عباس العزاوي ، القاهرة ١٩٤٦.

❖ الدينوري

- الأخبار الطوال ، القاهرة ١٣٣٠هـ.

❖ الزبيرى

- نسب قريش ، نشر وتعليق : ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٨٢.

❖ الذهبي

- ميزان الاعتدال ، تحقيق : علي معوض ، عادل عبد الموجود ، بيروت ١٩٩٥.
- سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، بيروت ١٩٩٦.
- العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٦٠.

❖ ابن الزبير

- الذخائر والتحف ، تحقيق محمد حميد الله ، مراجعة صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٧٩.

❖ سليمان التاجر.

- أخبار الصين والهند ، نشر جان سوفاجيه ، باريس ١٩٤٨.

❖ السيد محمد يوسف الهندي.

- بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب ، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٠.

❖ سيدة الكاشف

- مصر في فجر الإسلام ؛ من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية ، القاهرة ١٩٩٤ .

❖ السيوطي

- تاريخ الخلفاء ، بيروت ٢٠٠٣.

❖ الشهرستاني

- الملل والنحل ، تحقيق : عبد الأمير مهنا ، علي فاعور ، بيروت ١٩٩٣ .

❖ ابن طباطا

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة (ب.ت)

❖ الطبري

- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ .

❖ ابن طيفور

- كتاب بغداد ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، بغداد ١٩٤٩.

❖ ابن عبد ربه

- العقد الفريد ، تحقيق : عبد المجيد الترحيني ، بيروت ١٩٨٣.

❖ عبد العزيز سالم

- دراسات في تاريخ العرب ، العصر العباسي الأول ، الاسكندرية ١٩٩٣ .

❖ عبد العزيز الدوري

- العصر العباسي الأول ، دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي ، بيروت ١٩٩٧.

❖ عبد المنعم ماجد.

- أضواء علي البرامكة ونكبتهم ، المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ١٩٧٣ .

❖ العصامي

- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، تحقيق : عادل عبد الموجود ، علي معوض ، بيروت ١٩٩٨.

❖ ابن العماد

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق : عبد القادر ، محمود الأرناؤط ، دمشق ١٩٨٦.

❖ العمراني

- الإنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، ليدن ١٩٩٩ .

❖ الغزولي

- مطالع البدور في منازل السرور ، القاهرة ٢٠٠٠ .

❖ فاروق عمر

- طبيعة الدعوة العباسية ، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها ، بيروت ١٩٧٠

- الثورة العباسية ، بغداد ١٩٨٩ .

❖ فتحي أبو سيف

- الجذور الفكرية لحركة الشعوبية الإيرانية ، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

❖ فخر الدين الرازي

- خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة ، تحقيق ، أحمد حجازي السقا ، بيروت ١٤١٣ه

❖ ابن الفقيه

- مختصر تاريخ البلدان ، ، نشر دي غوية ، ليدن ١٨٨٥م .

❖ ابن قتيبة

- المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٨١.

- الإمامة والسياسة ، تحقيق : محمد محمود الرافعي ، القاهرة ١٩٠٤.

- عيون الأخبار ، القاهرة ١٩٩٦.

❖ القفطي

- تاريخ الحكماء ، بغداد ١٩٠٣.

❖ القلقشندي

- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، القاهرة ١٩٨٢.

- مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق : عبد الستار فراج ، بيروت ٢٠٠٦

❖ الكتبي

- فوات الوفيات ، ج٤ ، تحقيق : احسن عباس ، القاهرة ١٩٦٥

❖ ابن كثير

- البداية والنهاية ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن ، القاهرة ١٩٩٦

❖ الكندي

- كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨

❖ الكوفي

- فتحنامه سند ، ترجمة بلوش ، دمشق ١٩٩١

❖ الماوردي

- نصيحة الملوك ، تحقيق : فؤاد عبد المنعم ، الاسكندرية ١٩٨٨

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق : أحمد مبارك البغدادي ، الكويت ١٩٨٩.

❖ مجهول

- العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، نشر : دي غويه ، بريل ١٨٧١.

❖ مجهول

- أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده ، تحقيق : عبد العزيز الدوري ، عبد الجبار المطلبي، بيروت ١٩٧١.

❖ محمد الخضري

- تاريخ الدولة العباسية ، بيروت ١٩٨٦.

❖ محمد ربيع مدخلي

- المصادرات في العصر العباسي الأول من عهد الخليفة المنصور حتى عهد الواثق بالله ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، ج١٧ ، العدد (٣٤) ، ١٤٢٦هـ.

❖ محمود إسماعيل.

- الأغالبة ، سياستهم الخارجية ، القاهرة ٢٠٠٠.

❖ المسعودي

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٣.

❖ المقدسي

- البدء والتاريخ ، القاهرة (ب ، ت)

❖ المقريزي

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار ، القاهرة ١٩٨٧.

❖ ابن منظور

- مختصر دمشق لابن عساكر ، تحقيق : روحية النحاس ، محمد مطيع ، دمشق ١٩٨٣

❖ ابن النديم

- الفهرست ، طهران ١٩٧١

❖ النرشخي

- تاريخ بخاري ، ترجمة وتحقيق : أمين عبد المجيد بدوي ، نصر الله مبشر الطرازي ، القاهرة ١٩٦٥

❖ النوبختي

- فرق الشيعة ، تحقيق عبد المنعم الحفني ، القاهرة ١٩٩٢

❖ النويرى

- نهاية الأرب في فنون الأدب، عدة أجزاء، تحقيق٠ أحمد الزين، القاهرة ١٩٢٩.

❖ ياقوت الحموي

- معجم البلدان ، بيروت (ب ، ت).

❖ اليعقوبي

- تاريخ اليعقوبي ، النجف ١٣٥٨ه.

- اليعقوبي ، البلدان ، ليدن ١٨٦٠.

❖ ثانياً المراجع الأوربية :

- Abdul Wahab، " Un Tournat de l'histoire Aghlabite "، **RT**،(1937) ، pp.343-352.

- Bacharach، J.، « Al-Amin's Designated Successor: The Limitations of Numismatic Evidence «، ***Journal of the American Oriental Society***، Vol. 116، No. 1. (Jan. - Mar.،(1996 ، pp. 108-113-

- Bouvat ، A.، " Les barmaecides d'apres les historiens arabes et persans "، **RMM**،(1912) 20 ، pp.1-1.

- Burey، B.، History of Eastern Roman Empire، (London1912 ،).

- Chandra، S.، Medieval India، (Newdelhi1999 ،).

- Corne، P.، Hinds.، M.، God's Caliph: Religious authority in the First Centuries of islam، (Cambridge1986 ،)

- Dunlop، M.، " A diplomatic exchange between AlMamun and Indian king"، in ***Medieval and Middle Eastern Studies in Honor of Aziz Suryal Atiya***،(1972) ، pp.133-143.

- El-Hibri، T.، Harun al-Rashid and the Mecca Protocol of 802: A Plan for Division or Succession?، ***International Journal of Middle East Studies***، Vol. 24، No. 3. (Aug. 1992)

- Elliot، H. & Doson، J.، The history of India as told by its Own historians، the Muhammadan period، vol.i، (Frankfurt1997 ،).

- Ismail، O.، « The Founding of a New Capital: Samarra «، ***Bulletin of the School of Oriental and African Studies***، University of London، Vol. 31، No. 1. (1968)، pp. 1-3.

- Ismail، O.، «Mu'tasim and the Turks»، ***Bulletin of the School of Oriental and African Studies***، University of London، Vol. 29، No. 1.،(1966) ، p.15.

- Kabi، M.، " Les origins Tahirides dans da'wa، Abbaside "، ***ARABICA***، ،(1972) pp.145 – 164.

- Kennedy، H.، The prophet and the age of the caliphates: The Islamic Near East from the Sixth to the Eleventh Century، (London، ،(1986

- Lapidus، I.، « The separation of state and religion in the development of early Islamic society»، ***International Journal of middle East Studies*** 6،(1975) ،pp.379-382.

- Lassner، J.، « Abū Muslim al-Khurāsānī: The Emergence of a Secret Agent from Kurāsān، Irāq، or Was It Isfahān?"، ***Journal of the American Oriental Society*** Vol. 104، No. 1، Studies in Islam and the Ancient Near East Dedicated to Franz Rosenthal (Jan. - Mar.،(1984 ، pp. 165-175.

- Mahajan، D.، Muslim Rule in India، (New Delhi.(1970 ،

- Nadvi، S.، " The origin of the Baramakids " ، ***Islamic Culture 6*** ، ، (1932) pp.19-28.

- Nawas، J.، " The Mihna of 218 AH/833 CE Revisited: An Empirical study"، ***Journal of American Oriental studies*** 1161996) ،)

- Omar، F.، " Appoint of View on the Nature of the Iranian Revolts in the Early Abbasid Period "،***Islamic Culture***،(1974) 48 ، pp.1 9 –.

- Pirenne، H.، Mohammed and Charlemagne، (London1958 ،)

- Reinaud، Mémoire géographique historique et scientifique sur l'Inde (Frankfurt ،(1993 ، p.200.

-Schmidt، F.، " Karl der Gross und Harun al Rashid "، ***DER ISLAM III***، ،(1912) pp.409-411

- Sourdel، D.، " La politique religieuse du caliphe ' abbaside al-Ma'mun"، ***Revue des etudes islamiques*** 30،(1962) ، pp.43-44.

- Strohmaier، G.، " Abu l'Abas der elelfant Karls des Grossen "، ***mitteilunge des institutus fur orientforschung*** 17،(1971-2) ، pp.365-358.

- Traini، R.، " LA Corrispondenzatra al-Mansure e Mohammad " an-nafs Azzakiyyah "، ***Annali del Institute Universitario Orientale di Napoli*** ،(1964) 14 ، pp.773-798.

- Vajda، G.، " Les zindiqs en pays islam au debut de la periode Abbaside "، ***RSO***، xvii (1938)، pp.173 229 –.

- Vanessa.، D.، Qur'anic rhetoric in the politics of al-Ma'mun's caliphate، Ph.D، diss.، (University of Chicago) 2008.

- Wright، E.، « Babak of Badhadh and al – Afshin during the Years A.D 816 – 841. Symbols of Iranian Persistence against Islamic Penetration in North Iran «، ***Muslim World***،(1948) 38 ، pp.43f.

- Zaman.، M.، Religion and politics under the early ' Abbasids: The emergence of the proto-Sunni Elite، (Lieden1997 ،)

- Zaman، M.، « The Caliphs، the 'Ulama' and the law: Defining the role and function of the early ' Abbside period' '، ***Islamic Law and Society*** 4،(1997) ، pp.28-29.